مراكز الحضارة الإسلامية

تأليف

د. طه عبد العزيز الخطيب　　د. محمود حسن نصار

د. عبد المعز فضل عبد الرازق　　د. فوزى عارف إبراهيم

الطبعة الثانية

دار الاتحاد التعاونى للطباعة

القاهرة　ت ٢٢٩٩٩٥٤٥

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم



مُقَدِّمَة

الحمد لله حمدا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، والصلاة والسلام على النبي الأمي الذي علَم الأمم ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

أما بعد ،،،

فإن الحضارة الإسلامية تميزت دون غيرها من الحضارات بكونها ربانية المصدر والغاية ، عالمية الوجهة ، وإنسانية المنطلق وسطية المنهج ، أخلاقية المحتوى ، إيجابية البناء ، ترتبط بالأصل وتتصل بالعصر ، واقعية بلا تسيب ، صادقة بلا تضخيم ، متنوعة بلا تضاد ، متطورة بلا جمود ، قوية بالحق بلا تهور .

واستطاعت هذه الحضارة أن ترتقي بالبشرية في التفكير والسلوك ، وصاغت أتباعها صياغة قرآنية فريدة ، فارتفعت راية الحضارة الإسلامية على كثير من البقاع ، وامتدت إلى كثير من المواقع ، بصورة معجزة قلَّ أن تتكرر في تاريخ الحضارات .

ومنذ تم للنبي ﷺ تأسيس دولة الإسلام ، حملت هذه الدولة مشاعل الحضارة ، ورفعت لواء الزعامة عبر عصورها التاريخية ، وكان لها تاريخ حافل ، ولأعلامها أثر بعيد ، حتى غدت دولة الإسلام قبلة الأنام ، وغرة في جبين الزمان ، ومنبعا للعلوم ، ومنارةً للمعارف والآداب ، ومقصداً للعلماء والطلاب من شتى البقاع والأوطان .

وآية العظمة في الحضارة الإسلامية إسهام كل العقول الإسلامية فيها على اختلاف الأجناس والعناصر واللغات والبيئات والرسالات السماوية ،

واستمداد مفاهيمها من القرآن والسنة النبوية في المقام الأول ، ونبذ العنصرية البغيضة التي تفرق بين الأجناس والأعراق .

وكذلك أسهمت كل العناصر التي دخلت في الإسلام ـــ على امتداد الرقعة الجغرافية الإسلامية ـــ في إقامة النظام الإسلامي ، ووصلت إلى مكان القيادة والصدارة ومن أجل هذا تعددت مراكز الحضارة الإسلامية ، وتنافست بلاد وعواصم ، فكانت : " دمشق وبغداد والفسطاط ثم القاهرة وقرطبة والبصرة والكوفة والقيروان وفاس وغرناطه ... " كلها مراكز للحضارة وتنقل العلماء بين عواصم الإسلام ، وذهب رحالتهم من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق بجنسية وهوية واحدة " الإسلام " .

واستطاع الإسلام ـــ لأول مرة في تاريخ الرسالات ـــ أن يقيم الجوامع الخمسة التي حققت الانتماء الجامع للجماعة المؤمنة في : " العقيدة .. والشريعة .. والحضارة .. والأمة .. ودار السلام " .

وهذه المحاضرات تلقى الضوء على مفهوم وروح الحضارة الإسلامية، وتتناول بعض مراكز الحضارة الإسلامية ، كالتي واكبت نشأة العلوم الإسلامية (الدينية والعربية) ، أو الأخرى التي أصبحت مراكز حضارية يُشد إليها الرحال كبغداد ، والفسطاط والقاهرة والأندلس ويبقى لطالب العلم أن يطلب المزيد ليلم بأطرافها بجمع شتات الكتب وفحصها ، والنظر في آثار الأولين وتمحيصها ، حتى يستخلص ما يريد ، ويصل إلى مبتغاة ، فتلك ـــ المحاضرات ـــ إشارات على الطريق ، وضوء مصباح ينير لطلابنا طريق البحث والتنقيب والدرس ، للوصول إلى الغاية المنشودة ، وهم عند حُسن ظننا بهم ـــ إن شاء الله تعالى ـــ حتى يكون لنا منهم في المستقبل القريب رجال يحملون الرسالة ويؤدون الأمانة .

ولعلنا في الطبعة الثالثة من هذا الكتاب ـــ إن شاء الله تعالى ـــ نستكمل الحديث عن باقي المراكز الحضارية الإسلامية الكبرى كدمشق ،

والقدس ، والقيروان وبلاد المشرق الإسلامي .

نسأل الله تعالى أن يجعلها نافعة هادفة ، وأن يسدد خطانا ، ويوفقنا لمبتغانا ، إنه سبحانه سميع قريب مجيب الدعاء .

المؤلفون
١٤٣٠ هـ ــ ٢٠٠٩ م
القاهرة



الفصل الأول [1]

الحضارة الإسلامية

---

(١) بقلم د / عبد المعز فضل عبد الرازق (مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية) حتى نهاية الحديث عن أثر الحضارة الإسلامية على الحضارة الأوربية .



الحضارة الإسلامية

تعريف الحضارة :

الحضارة تعني في اللغة : الإقامة في الحضَر ، والحضارة خلاف البادية ، وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ، ومساكن الديار التي يكون لهم بها استقرار ، وفي المدن والقرى نوع من الحياة يتميز بنوع من المدنية والاستقرار والتقدم ، واستخدام وسائل الإنتاج والابتكار لتيسير أمور الحياة ، خلاف ما عليه الحياة في البادية ، حيث الحياة فيها أقرب إلى الفطرة والبساطة . وما كان عليه بدء الحياة البشرية [١] . وهم المقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد [٢] ، والحضر هم المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم .. والبدو أصل للمدن والحضر ، وسابق عليهما ، لأن أول مطالب الإنسان الضروري ، ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلاً[٣].

ويقول صاحب كتاب تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي [٤] : " فالحضارة إذن هي : مدى ما وصلت إليه أمة من الأمم في نواحي نشاطها الفكري والعقلي من عمران وعلوم ومعارف وفنون وما إلى ذلك ، والترقي بها في مدارك الحياة ومسالكها حتى تصل إلى الغاية التي تواتيها بها أحوالها

---

(١) انظر للمزيد : القاموس المحيط ، للفيروز أبادى ، ج ٢ ، ص ١٠ ، المطبعة الحسينية ، ١٣٣٠هـ ، مجمع اللغة العربية : المعجم الوجيز ، ص ١٥٧ ، طبع وزارة التربية والتعليم ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .
(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ١٢١ ، دار القلم ، بيروت ، د . ت .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٢ .
(٤) د / أبو زيد شلبي (رحمه الله) استاذ الحضارة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر . ص ٧ مكتبة وهبه الطبعة السادسة ـ القاهرة .

وإمكانياتها المختلفة " .

والحضارة في إصطلاح المعاصرين ، منهم من يرى أنها نوع من الخبرة والمعرفة يستخدمها الإنسان في مختلف أنشطة الحياة ، ومنهم من يرى أنها تعني التقدم المادي والصناعي والزراعي الذي يستخدمه الإنسان في رقي حياته ، مما يعني أن الحضارة تختص بالتقدم المادي الخارج عن ذات الإنسان والذي يستخدمه في رقي حياته وتطويرها ، مثل المخترعات والآلات ، وكل ما يشتمله التقدم المادي [١] ، ولعل هذا هو التفسير لما ذهب إليه صاحب موسوعة " قصة الحضارة " [٢] ، بقوله : " الحضارة نظام إجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من انتاجه الثقافي ، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الإقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون ، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق " .

الحضارة في المفهوم الإسلامي :

وفي الفكر الإسلامي " الحضارة ما هي إلا جهود فكرية وعملية متعددة قدمتها أجيال بشرية متتالية ، تشتمل القيم الإنسانية التي تتصل بداخل الإنسان ذاته من حيث الرقي الروحي والعقلي والخلقي ، وتشمل كل ما تقدم بشرى ناتج عن النظر والتجربة والتفكر والعمل في إطار القيم الإسلامية التي تقلت عن رسول الله ﷺ ، وعليه فالحضارة إن استُعْمِلَت في نفع الناس ولم تتعارض مع قيم الإسلام وتعاليمه فهي حق يؤخذ به بعين الاعتبار ، وإن خالفت ذلك أو استعملت في غير أهداف الإسلام وتعاليمه فهي باطل لا يجوز

---

(١) د / شوكت محمد عليان ، دراسات في الحضارة الإسلامية ، ص ٩ ، الطبعة الأولى ، دار الشواف للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

(٢) ول ديورانت : مؤرخ انجليزي في التراث الشرقي . ج ١ ، ص ٣ ، طبع هيئة الكتاب المصرية ، ترجمة د / زكي نجيب محمود ، ومحمد بدران ، ضمن مطبوعات مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ٢٠٠١م .

الأخذ بها .

والحقيقة أن التفرقة في مفهوم الحضارة بين القيم الروحية والتقدم المادي في فكرة أوروبا النصرانية ، حيث تفرق الكنيسة بين ما هو روح ومعنى وفكر ، وما هو مادة وجسد ، وترى أن ارتقاء الروح وقيمها لا يتم إلا على حساب إهمال الجسد والمادة ، ومن ثم كانت ولا تزال الرهبانية عندهم .

والإسلام يرفض أصلاً هذه التفرقة ، ولا يقيم لها وزنًا ، فهو ينظر للإنسان وكل ما يتصل به من معرفة وسلوك ، وكل ما يعيش فيه من نظم مادية ، وقيم معنوية كوحدة متكاملة ، وليس هناك من سبيل إلى فصل أجزائها ، لأن التقدم الروحي يؤثر هو الآخر في المادة ، فليس الإنسان في حياته الدنيا مجرد روح لا تتأثر بالجسد ، فالصلاة وإن كانت عملاً يشترك فيه الجسد والروح ، والصيام والحج وغير ذلك من العبادات لا تتم إلا باشتراك الروح والجسد معًا ، ومن هنا قرر الرسول ﷺ " إنما الأعمال بالنيات " [١] ، " فالعمل للجسد والمادة والجوارح ، والنية في القلب والروح ، ولا انفصال بينهما على وجه الاطلاق في أي عمل إسلامي " ومن هنا نستطيع أن نقول باطمئنان إن الإسلام هو الحضارة [٢] .

وتؤمن هذه الحضارة بالشمولية والعمق فهي : " إرث مشترك بين جميع الشعوب والأمم التي انضوت تحت لوائها ، وشاركت في بنائها ، وأسهمت في عطائها ، وهي الشعوب والأمم التي كونت وشائج الأمة

---

(١) ــ الحديث ــ عن عمر بن الخطاب ﷺ رواه الخمسة .
(٢) انظر : د / شوكت محمد ، المرجع السابق ، ص ٩ ، ١٠ ، محمد قطب : واقعنا المعاصر ، ص ١٠٠ ــ ١١٢ ، الطبعة الثالثة ، مؤسسة المدينة ، جدة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

الإسلامية ونسيجها المُحْكم [١] " .

خصائص وروح الحضارة الإسلامية :

استطاع الإسلام أن يحقق الائتلاف بين الإنسان وأمته ومجتمعه والكون حوله ، و " لقد كانت الصناعة الثقيلة التي بدأت الدعوة الإسلامية فأقامتها ، منذ المرحلة المكية ، هي صناعة الصياغة الإسلامية للإنسان الذي تدين بدين الإسلام .

وكانت " دار الأرقم بن أبى الأرمم " ـــ في مرحلة الدعوة السرية ـــ هي أولى المؤسسات التربوية التي أقامها الرسول ﷺ ، وقبل فتح المسلمين للمدائن والأمصار والأقطار ، وقبل إقامة الدولة .. وتغيير الواقع .. وتطبيق القانون .. وبلورة العلاقات الدولية .. كان الفتح الإسلامي للقلوب والعقول بهدى القرآن الكريم ، ذالك الذي أصبح خلق سلوك وممارسات ، وسجية للحياة التي يحياها المسلمون .. بل إن أولى المدن التي فتحها المسلمون قبل الهجرة وإقامة الدولة ـــ وهي المدينة المنورة ـــ قد فتحها المسلمون بالقرآن الكريم .

وبعد إنجاز الصياغة الإسلامية بالتربية للإنسان جاءت كل الإنجازات والفتوحات وفي ميادين الحضارة وعلومها والثقافة وآدابها وفنونها .. فكانت تجسيدا لهذا الذي سبق وتم إنجازه في نفس الإنسان ، وجاءت جميعها مصاغة بمعايير الإسلام ، التي سبق وصاغت نفوس وعقول وقلوب الذين اهتدوا بهدى الإسلام [٢] .

---

(١) د / عبد العزيز بن عثمان التويجرى : التسامح في الحضارة الإسلامية ، بحث (التفاعل المتبادل والتواصل بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى ، ص ٨٧ من مجموعة أبحاث المؤتمر ١٦ للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، طبع المجلس القاهرة ، ١٤٢٥ / ٢٠٠٤م .

(٢) د / محمد عمارة : في فقه الحضارة الإسلامية ، ص ١٠٧ ، طبع مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٤٢٣هـــ / ٢٠٠٣م .

وحيث إن للحضارة الإسلامية أسسها الثابتة غير القابلة للتغيير أو التبديل كالقرآن الكريم والسنة النبوية واللغة العربية ، كان من المنطق أن يكون لها خصائص تتميز بها عن غيرها من الحضارات ، منها :

١ ــ أن أساس ما ترتكز عليه الحضارة الإسلامية في جوهرها وأصلها هو " **الوحي الإلهي** " ، فهي ليست بشرية الطابع ، فمصدرها الله تبارك وتعالى ، وكل المعارف تحكم بالقيم المنزلة من عند الله تبارك وتعالى، ولا وزن لأمور عن غير هذا المصدر [١] .

٢ ــ أنها حضارة تتميز " **بالمنهاج التربوي الشامل** " ، فإن الإسلام يتميز بأنه فجر حضارة ، وصاغ مدنية ، وأثمر اجتماعًا إنسانيًا وجعل الإنسان يبدع الحضارة المصطبغة بصبغة الدين .. لقد حقق الدين الإسلامي الائتلاف والتوازن والأمن في نفس المسلم ، فجاء الابداع الحضاري له ، ثمرة مجسدة لما أحدثه الدين في نفس المسلم [٢] .

٣ ــ أنها حضارة " **تربط الناس بخالقهم** " ، فإن الإسلام قد كفى الإنسان التفكير فيما سوى العالم المادي من الأمور الغيبية ، فقد جاء الوحي ببيانها ، وفي هذا توفير لكثير من طاقات العقل البشري التي صرفها في مجال "الميتافيزيقيا " ، ولذا فإن قدرات الإنسان واستعداداته في المنظور الإسلامي ، ينبغي أن تتوجه إلى العالم المادي ، تكشف القوانين التي تحكمه وتستغل طاقاته بما ترقى به الحياة ، وفي نفس الوقت تربط تقدمها وعروجها نحو الأفضل بخالق هذا الكون ومدبر أمره ، المانح الحقيقي للحياة [٣] .

---

(١) د / شوكت عليان : المرجع السابق ص ١٩ ، ٢٢ ، د / أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٣٧ .

(٢) د : محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٣) د / محمد عبد الستار نصار : الإسلام رؤية حضارية ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، العدد (٥١) من سلسلة قضايا إسلامية عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٤٣٠هـ / ١٩٩٩م .

٤ ــ أنها حضارة " **تكرم الإنسان لإنسانيته** " ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[(١)] فهي دعوة تخاطب عموم البشر ، فكلهم لآدم ، وآدم من تراب ، وبالتالي أوجب الله للإنسان التكريم ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [(٢)] وبالتالي فقد أوجب الله على الإنسان أن يتحمل المسئولية في بناء المجتمع الإنساني ، وأن يشارك في إعمار الأرض ، وأن يسمو بنفسه على العالم المادي ، خصوصًا وقد سخر الله تعالى الطبيعة للإنسان لنفعه وخيره لذلك فالعناية بالإنسان في الحضارة الإسلامية كل متكامل ، جسدًا وروحًا ، وغريزة وعقلاً ، وحاجات عضوية ، وعواطف وأخلاقًا ، فالحضارة الإسلامية تبعًا لذلك حضارة الأمن والطمأنينة، حضارة السعادة في الدنيا والآخرة [(٣)] .

٥ ــ أنها حضارة **الابتكار والاستقلال** ، فقد كانت الحضارة الإسلامية ولطالما كانت هدفًا لأقوال المتقولين ، وجحد الجاحدين ، بغية ألا يكون للإسلام والمسلمين فضل على رواد الحضارة الحديثة ، لكن الحقيقة أن الحضارة الإسلامية لم تكن تقليدًا لحضارة من الحضارات ، ولكنها امتصت عصارة الحضارات السابقة وصهرتها في بوتقة الفكر الإسلامي بكل مميزاته وخصائصه ، ثم شاهدت ولاحظت ، ثم جربت وطورت ، بحيث اكتسبت صفة الذاتية والأصالة والابتكار والاستقلال ، وذلك بإضافتها الكثير والكثير في ميادين العلوم والمعارف الإسلامية المختلفة ، فكانت بذلك صاحبة الفضل على الحضارة المعاصرة التي اتخذت من حضارة الإسلام أساسيات لتطورها، إذ لولاها لبدأت من حيث بدأ علماء المسلمين نشاطهم في القرن السابع الميلادي [(٤)] ، وعليه فقد تميزت الحضارة الإسلامية بإفراز حضاري

---

(١) سورة الحجرات : (١٣) .
(٢) سورة الإسراء : (٧٠) .
(٣) انظر : د / شوكت عليان : مرجع سابق ، ص ٢١ .
(٤) انظر : د / عبد الله الدفاع : لمحات من تاريخ الحضارة العربية ، ص ١٢ .

، وبناء ثقافي مبتكر ومستقل ، مع التميز بالتوازن والانسجام في مصادر المعرفة الإنسانية [١] ، وكان من مظاهر ذلك العطاء والابداع ، ما انتجته تلك الحضارة في : المبتكرات العلمية ، والبدائع الفنية التي انتجتها اليد الإسلامية الماهرة ، من بناء المدن والقصور والجوامع والمدارس والجامعات إلى الفنون والحرف والصناعات ، وفي مجال النظم الإسلامية المختلفة مثل : النظم الدينية في المعاملات ، والنظم المالية والاقتصادية ، والنظم الثقافية ، والنظم العسكرية ، والنظم الإدارية ، والنظم القضائية ، والنظم السياسية ، والنظم الاجتماعية ، وكذلك العطاء في مجال المبادىء التي قدمها الإسلام كالدعوة إلى تكريم الإنسان وانقاذه من الرق والعبودية والضلال ، وكذلك السجايا الحميدة ، والأخلاق الفاضلة ، كإشاعة المحبة بين الناس ، والدعوة إلى الإيثار والتضحية ، ونبذ البغض والفحش والحقد والتحاسد ، والنهي عن الترف والظلم والاعتداء [٢] .

٦ ــ أنها حضارة تتميز **بالتكامل** ، فلا تقتصر على جانب من الجوانب في مجال الحياة ، أو تشبع جانبًا على حساب الأخر ، وإذا كانت كذلك لما استطاعت اشباع الطبائع الإنسانية وارواء نزعاته الفطرية والغريزية بضوابط شرعية ، ولما حافظت على التوازن الذي أراده الله لها تبارك وتعالى ، فالدعوة إلى الإيمان مقرونة بالدعوة إلى العلم ، والدعوة إلى العبادة مقترنة بالدعوة إلى العمل ، والدعوة إلى الفكر ، والتأمل مقترنة بالدعوة إلى تنمية الروح والوجدان ، والدعوة إلى الغاية مقترنة بالدعوة إلى الوسيلة ، تلك هي الحضارة الإسلامية [٣] .

٧ ــ أنها حضارة **تربط الابداع الحضاري بالثواب الأخروي** ،فإن

---

(١) انظر : د / محمد عمارة : في فقه الحضارة الإسلامية ، ص ١١٠ ، ١١١ .
(٢) انظر : د / عبد الله الدفاع : المرجع السابق ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، د / شوكت عليان : دراسات في الحضارة الإسلامية ، ص ٢٢ .
(٣) انظر : د / راغب السرجاني : العلم وبناء الأمم ، ص ٨ ، ٩١ ، د / شوكت عليان : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

الإسلام يبعث في الحياة الأمل والطمأنينة والإشراق ، لكي يعمرها الإنسان بالخير ، وأن كفاحه فيها إذا كان كذلك ، فإنها ستكون مرقاة إلى حياة أخلد وأدوم ، يجني فيها ثمرة ما قدم ، وما أروع ذلك البيان الإلهي الذي يربط بين الدنيا ودرجة الكفاح فيها ونوعية ذلك الكفاح ، وبما يمكن أن يكون للإنسان في حياة الخلود فقال تعالى ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾(١) هذا في الجانب السلبي ، أما في الجانب الإيجابي فيقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾(٢) فالإسلام في حضارته يقرر أن الإنسان لم يخلق عبثًا ، وأن له يومًا سيرجع فيه إلى الله تعالى ليحاسب على ما قدم ، وبذلك يحيا المسلم مترقبًا موقف البعث والنشور والحساب والجزاء ، فتنشط مشاعره الأخلاقية ، ويعطى لأفعاله معنى أخلاقيًا ، بها تزدهر الحياة وتعمر بالخير ، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾(٣) إن هذا التصوير يربط الإنسان في الحضارة الإسلامية بربه جلا وعلا (٤) ، ويجعل إبداعه الحضاري مرتبط بأهداف أخروية ، تجعله يبدع الخير وينشط للعطاء مع الضوابط والقيم الإسلامية .

أسباب تراجع الحضارة الإسلامية

واقع الحضارة والعالم الإسلامي اليوم يفصح عن نفسه ، ولا يحتاج إلى إجتهاد ولتبيان ما آل إليه (٥) ، والقريب والبعيد يدرك أن ما نزل بالمجتمع الإسلامي في حضارته وثقافته ليس إلا أمرًا آتيا من إنحراف عن

---

(١) سورة الإسراء : (٧٢) .
(٢) سورة الكهف : (١٠٧ ، ١٠٨) .
(٣) سورة المؤمنون : (١١٥ ، ١١٦) .
(٤) د / محمد عبد الستار : الإسلام رؤية حضارية ، ص ٤٩ .
(٥) د / محمد عبد الستار : نفس المرجع ، ص ٨٣ .

الأصل ، وانقلاب عن الوضع ، وانقلاب عن العامل التربوي ، مما أصاب الحضارة والثقافة بعزلة عن طريق الاستمداد من الإسلام ، ومتين الاعتماد عليه ، حتى مال عمادها ، واضطربت أوتادها [١] والواقع الذي لا ينكره كل ذي عقل سليم أن المسلمين لم يتخلفوا عن ركب العالم الحضاري إلا نتيجة تركهم الدين ، وعدم تمسكهم بتعاليمه وإعطاء المجال للحضارة الغربية أن تغزو قلوبهم ، وتحتل أذهانهم وتوجه أفكارهم ، ولو أن هذا النفر من الناس نظر إلى حقيقة الشريعة الإسلامية ، وإلى الواقع التاريخي للإسلام ، بعيدًا عن الأهواء والنحل ، لما رأى أدنى صراع بين العلم والدين ، بل إن العكس هو المطابق للحقيقة والواقع [٢] .

إن الحضارات الأولى والسابقة عن الإسلام نذكرها كينابيع أولى للحضارة الإسلامية من باب الأمانة العلمية والاعتراف بالحق والانصاف ، لكن هذه الحضارات كانت فجة تحتاج إلى كثير من النضج الفكري ، والثبات التجريبي ، والضوابط الأخلاقية ، وجاءت الحضارة الإسلامية مختلفة عن الحضارات السابقة في الحياة والنظم والخبرات الكثيرة والتجارب العلمية الواسعة ، وكيفية استعمالها لوسائل الحياة بالعلم والتبصر والمعرفة والحق ، لقد جاء المسلمون فهذبوا ورفضوا وأضافوا ، ثم أنضجوا وشيدوا فوق الأساسيات بناءً عظيمًا حتى صار صرحًا شامخًا حضاريًا باهرًا ، تقدمت على أساسه البشرية ردحًا من الزمن ، ومازادت المدنية الحديثة إلا بالمخترعات التي تمثل تكنولوجيا العصر ، التي لم تنشأ أصلاً من فراغ ، ولم توجد من العدم ، بل تأسست على ما حصّله المسلمون من معارف

---

(١) د / محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٢) انظر د / شوكت عليان : المرجع السابق ، ص ٢٣ ، د / محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ١٠٩ ، ١١٠ ، د / راغب السرجاني : المرجع السابق، ص ٨ ــ ١٦ ، ص ٩١ وما بعدها ، د / محمود حمدي زقزوق : هموم الأمة الإسلامية ، ص ١٩ ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب (ضمن فعاليات مكتبة الأسرة) ، القاهرة ، ٢٠٠١م.

وعلوم وفنون في مختلف المجالات ، فكانت اسهامًا في إعلاء الصرح الحضاري الإسلامي،حين تسلمه الغرب من المسلمين ، من رصيد مزخور أسسوا عليه حضارتهم المعاصرة وهي سنة التداول بين الأمم في تاريخ الكون والحياة ، على إن المد الحضاري الإسلامي لم يتوقف ، ولم يستمر نموه وتطوره إلا بفعل الغارة على المسلمين ، وإجهادهم في الحروب ، واغتصاب ممتلكاتهم ، واحتلال ممالكهم ، واشغالهم بالحروب قرونًا طويلة ، حتى توقف النهوض الفكري ، وانتهي إلى ما صار إليه من كلال وإجهاد أعجزه عن التحليق في سماء العلم والنور والمعرفة [١] .

ولكن الخلل الذي حدث لم يحدث في ذات الإسلام ، وإنما في عقيدة المسلم الذي انكمشت لدية الإرادة الاعتقادية البنّاءة للحضارة ، وغربته الحضارية الدينية ، وتفكيك الدين عن الدنيا ... إن الإرادة الاعتقادية التي خارت وضعفت ، فأصبحت الأوضاع الاجتماعية ، والأثار المدنية تصدر عن غيرها كانت تصدر عنه ، فصارت هي في واد ، والعقيدة الدينية في واد، وبقى المسلم وفيًا لعقيدته الدينية ، غيورًا عليها من جهة ثانية ، متقبلاً لحياته العملية ، مطمئنًا إلى واقعها من جهة أخرى ، حتى أصبح المبدأ النظرى والواقع العملي عنده متباينين .. وتولدت من ذلك نظرية تفكيك الدين عن الدنيا ، بإعتبار أن الدين خيرٌ غير واقع ، والدنيا شر واقع ، وأن العبد المسلم يحمل بين جنبيه دينا لا يؤثر فيه إلا لمامًا ، ويعيش في دنيا لا يعرف فيها إلا كل ما يبعد به عن الدين .. ثم هجمت عليه في حياته العملية مدنيات أجنبية عنه فيها العلم ، وفيها الصناعة ، وفيها القوة ، وفيها الحكمة ، فلم يجد من إرادته الدينية ما يتناول به هذه المدنية ، كما تناول المدنيات التي احتك

---

(١) انظر : د / يوسف القرضاوى : تاريخنا المفترى عليه ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ ، الطبعة الأولى ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م ، د / عبد الله الدفاع : المرجع السابق ، ص ١٥٩ ، د / أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٩ ، د / راغب السرجانى : المرجع السابق ، ص ٤٢٩ وما بعدها .

بها من قبل ، يوم كانت ارادته الدينية قوية سليمة ، فوقف أمامها جامدًا ، واعتبرها من جملة صور الحياة التي كان من قبل آمن بانفكاكها عن الدين"(١).

ولم يزدد المسلمون إلا ضعفًا ، ولم تزدد أخلاقهم على مرِّ الأيام إلا انحطاط وتدهورًا ، ولا أحوالهم إلا فسادًا ، حتى أصبحوا في فجر القرن الرابع عشر الهجري العشرين الميلادى أمة جوفاء ، لا روح فيها ولا دم ، وصاروا كصرح عظيم من خشب منخور قائم كدوحة قد تآكلت جذورها ، ونخر جذعها العظيم ولم تنقلع بعد ، وأصبحت الأمة مالاً سائبًا لا مانع له ، وأصبحت دولهم فريسة لكل مفترس ، وطعمة لكل آكل (٢) .

لقد كانت هناك مخططات مدروسة ومقصورة على نية القضاء على الحضارة الإسلامية ، في نفس الوقت ضمان تفوق النهضة الأوربية وأدركت الأمم الأوربية ضرورة تدمير العقل الإسلامي الناهض ـــ إذ أن الحضارة الإسلامية ترتبط بالنهضة العلمية والفكرية ـــ وسرقة معارفه ونقل آثاره من أهم الوسائل في القضاء على تلك الحضارة ، وكانت وسائل الغرب في ذلك .

١ ـــ **إنهاء وسحق واستئصال الوجود الإسلامي** في المغرب العربي في بلاد الأندلس ، التي حملت الحضارة الإسلامية ، وبهرت طلاب العلْم الأوربيين وحكام الغرب وعلماء أوربا قرونًا من الزمان (٣) .

٢ ـــ **الحروب الصليبية** في المشرق الإسلامي التي كان من نتائجها احتلال الأرض والمعاقل الإسلامية ، وقد استوعبت هذه الغارات والحروب زهاء قرون متتالية نُقِل في أثنائها مؤلفات العرب والمسلمين إلى الغرب ،

---

(١) د / محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ١١٢ ، ١١٣ .
(٢) انظر : أبو الحسن الندوى الحسيني : المد والجزر في تاريخ الإسلام ، ص ٥١ ، الطبعة الأولى ، دار الصحوة ، القاهرة ، ١٤١٦هـــ / ١٩٩٥م .
(٣) انظر د / راغب السرجاني : العلم ودوروه في بناء الأمم ، ص ٣٩٠ ، ٣٩١، د / عبد الله الدفاع : لمحات من تاريخ الحضارة العربية ، ص ١٦٠ .

حتى امتد الاستيلاء ، بحيث شمل نقل الآثار القديمة للشعوب الإسلامية قبل الإسلام [١] .

واستهدفت هذه الحركة بسط النفوذ الأوربي المسيحي على الشرق الإسلامي ، مستخدمة الشعور الديني والقوة العسكرية في سبيل الوصول إلى أهدافها ، وتجلت أحقاد الصليبية في حروب الإبادة على الإسلام والمسلمين في الأندلس ، واستخدام كل الوسائل في تحقيق أهدافهم نحو القضاء على الإسلام والمسلمين ، واستباحوا كل شئ ، فهدموا المساجد ، أو حولوها إلى كنائس ، وأُحرقت مكتبات المسلمين ، بل لقد أُحرقت الشعوب الإسلامية نفسها [٢] ، مؤكدين قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [٤] ، وخلصت الحروب الصليبية إلى عدم إمكانية القضاء على الإسلام والمسلمين من خلال المواجهة العسكرية ، بل الأجدى كما جاء في وصية لويس التاسع (قائد الحملة الصليبية التاسعة ــ الذي أسر في دار ابن لقمان) .في وثيقة محفوظة بدار الوثائق القومية بباريس : " إنه لا يمكن الانتصار على المسلمين من خلال حرب ، وإنما يمكن الانتصار عليهم بواسطة السياسة بإتباع ما يلي :

أ ــ إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين ، وإذا حدثت فليُعمل على توسيع

---

(١) د / عبد الله الدفاع : المرجع السابق ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .
(٢) انظر د / محمد السيد محمد يوسف : التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، الطبعة الأولى ، دار السلام ، القاهرة ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م ، وانظر : سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ٩٦٦ ، وتفسير الآية ٨٢ من سورة المائدة ، محمد قطب : واقعنا المعاصر ، ص ١٩٠ ، مؤسسة المدينة ط ثالثة ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .
(٣) سورة البقرة : (١٢٠) .
(٤) سورة البقرة : (٢١٧) .

شقتها ما أمكن ، حتى يكون هذا الخلاف عاملاً على إضعاف المسلمين .

ب ــ عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية من أن يقوم فيها حكم صالح .

ج ــ إفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد والنساء حتى تنفصل القاعدة عن القمة .

د ــ الحيلولة دون قيام جيش مؤمن بحق وطنه عليه يضحي في سبيل مبادئه .

هــ ــ العمل على الحيلولة دون قيام وحدة عربية في المنطقة .

و ــ العمل على قيام دولة غريبة في المنطقة العربية تمتد ما بين غزة جنوبًا ، وأنطاكية شمالاً ، ثم تتجه شرقًا وتمتد حتى تصل إلى الغرب " [١] .

٣ ــ ما كان في أثناء ذلك من **غزو المغول لبلاد المسلمين** ، وتخريب ديارها وحضارتها ، ومأساة نهب المقومات وانتهاك الحرمات في وحشية تقشعر منها الأبدان ، ولا يخفي مأساة إحراق المكتبات الإسلامية ، حتى جعلوها جسرًا لعبور المارة عليه في نهر دجلة مما أضاع الكثير من المؤلفات الإسلامية العلمية هباءً دون مراعاة لاحترام هذا التراث التي يعتبر مدادًا لنمو الحياة وأسعادها ، ولقد كانت مأساة المسلمين مع التتار عجيبة ، في أرقام كل ما حدث ، في أعداد القتلى ، وأعداد الجيوش ، والمدن المنهارة، ومساحات البلاد المحتلة ، والخيانات وأسلوبها ، وكأن قصدهم إفناء النوع أو إبادة النوع ، وهدم الحضارات ، وتخريب وتدمير المدنيات[٢].

---

(١) انظر : د / محمد السيد محمد : المرجع السابق ، ص ١٣٨ ، نقلاً عن جلال العالم : قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله ، ص ٦٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ١٤٠٥هــ / ١٩٨٥م ، وانظر : أنور الجندي : المد الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر ، ص ١٩٥ ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٨٢م .

(٢) انظر : د / راغب السرجاني : قصة التتار ، ص ٧ ، ١٧ ، الطبعة الأولى=

وما يعنينا في عمليات الإبادة هذه ، هو ما يتم حاليا من محاولات دائبة متواكبة في كافة القارات لمحاصرة الإسلام وإبادته بصورة لا تخطئها العين.. وإن كانت الغارة على الإسلام قد بدأت منذ بداية انتشاره ... فإن ما يدور حاليا من محاصرة الإسلام على الصعيد العالمي إنما هو عود على بدء لم يتوقف .. وإنما هي عملية إبادة للإسلام برمته أينما كان ، وإبادة لا رحمة فيها للشعوب والحضارة الإسلامية أينما كانت ، وإن كان يتم ذلك بمسميات مختلفة ، وبمحاولات وأساليب متنوعة (١) .

٤ ــ الكرة على المسلمين مرة أخرى في القرن التاسع عشر "**موجة الاحتلال العسكري**" ، واحتلال الديار المصرية وملحقاتها من البلاد الإسلامية، بالغزو الفرنسي ثم الإنجليزي والإيطالي والأسباني وغير ذلك وكلها غارات صليبية هدفها إضعاف المسلمين وتوقف نشاطهم الذي يخافون أن يعود إلى قوته الأولى الرائدة والقاهرة ، حتى انتهى الأمر إلى زرع الصهيونية العالمية في قلب البلاد الإسلامية النابض بالحيوية الإسلامية ، وبفاعلية القرآن الكريم ، وذلك لاستمرار إنهاكها ، ووقف استعادة القوة والمجد والمد الحضاري في الحياة (٢) .

وكان هذا الهجوم الغربي أشد تأثيرًا ، وأعمق أثرًا ، وأبعد مدى من الهجوم المغولي التترى ، فكاد يخمد كل جمرة في قلوب المسلمين لم تخمدها العواطف طيلة القرون الخالية .. وسلطوا على المسلمين عدوين فتاكين ، هما: الأول : **الشك وضعف اليقين الذي لا شيء أدعى للضعف والجبن منه،** **والثاني : الذل النفسي (أو مركب النقص)** ، وهو أن صار المسلمون

= مؤسسة إقرأ ، القاهرة ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م ، د / عبد الله الدفاع: المرجع السابق ، ص ١٦١ .

(١) د / زينب عبد العزيز : محاصرة وإبادة (سلسلة فضائح الحضارة الغربية) ج ١ ، ص ٢٢٢ ، الطبعة الثالثة ، القدس للنشر والطباعة ، القاهرة ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م .

(٢) د / عبد الله الدفاع : المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

يشعرون بالذلة والهوان في داخل أنفسهم ، ويؤمنون بفضل الأوربيين في كل شيء ، ويعتقدون فيهم كل خير ، ولا يكادون يعترفون بنقص وعيب في ناحية من نواحي الحياة ، ولا يصدقون بانهزامهم وفشلهم في ساعة من ساعات الدهر ، وإذ تمكن هذا الذل من نفوس أمة ، فقد ماتت وإن كنت تراها تغدو وتروح ، وتأكل وتعيش ، وابتلى المسلمون في هذه المرة بتأثير الحضارة الغربية والفلسفة الغربية ، بعبادة المادة وحب الدنيا ، والجرى وراء النفع العاجل ، وتقديم المصالح الشخصية والمنافع المادية على المبادىء والأخلاق ، وشأنهم في ذلك شأن الأمم الأوربية الجاهلية ، فكانت هذه الأخلاق وهذه النفسية والتربية مانعًا من الجهاد ، وإعلاء كلمة الله ، ومن تحمل المشاق ، وتجرع المرائر ، ومكابدة الأهوال ، وتحمل الخسائر في سبيل المبدأ الصحيح ، والعقيدة السامية (١) .

وكانت الحقبة الاستعمارية قد جعلت المسلمين عبئًا ثقيلاً على الإسلام، وجعلتهم يشكلون أكبر عقبة في سبيل انتصار وانتشار الإسلام (٢) .

إن الاستعمار دائب على تخريج أجيال ملحدة ، وهو يغذى في إلحاح كل عمل يطرد الإيمان من القلوب ، ويشيع المنكر والفحشاء في المجتمع ، وغايته التي ظهرت من طول سعيه لها — مع شدة خبثه وتكتمه — هي القضاء على الإسلام في أوطانه ، وردم المنابع التي تمد الناشئة بتعاليمه ، وتبصرهم بحدوده وحقوقه ! ومن القصور أن نحسب أهداف الاستعمار الصليبي منتهية عند بث الرذائل في المجتمع ، ونشر التفكك في شتى نواحيه.. كلا ، إن الأمر لديه أكبر من ذلك .. إن المقصود هدم رسالة محمد من الألف إلى الياء (٣) .

---

(١) انظر : أبو الحسن الندوى : المد والجزر ، ص ٥٢ ، ٥٢ ، د / يوسف القرضاوى : الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا ، ص ١٥ ، ١٦ ، الطبعة السابعة عشرة ، مؤسسة الرسالة ، دمشق ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

(٢) يوسف البدرى : بصمات الاستعمار في المجتمعات الإسلامية ، ص ٤٩ ، دار العدالة ، المعادى ، ١٩٨٤م .

(٣) الشيخ : محمد الغزالي : الاستعمار أحقاد وأطماع ، ص ١٣ ، ١٤ ، =

٥ ــ ثم كانت **حركة التغريب** ، وهدفها صبغ الحضارة والفكر الإسلامي في أوطانه بالصبغة الغربية ، وتحويل الأقطار إلى مخترعات الغرب ، ليعيش غريبًا في وطنه الإسلامي ، تابعًا ذليلاً لفكر الغرب ، مفرغًا من مقومات الإسلام بزرع الأفكار الخبيثة في نفوس الشباب المسلم حتى لا تقوم لهم قائمة من الناحية الفكرية ، وبعد إضعاف أوطانهم من الناحية العسكرية ، وجند الغربيون في سبيل ذلك فريقًا من علمائهم المبشرين والمستشرقين ليتفرغوا لهذا التغريب ، وكان من وسائلهم :

أ ــ القضاء على اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة النبوية التي هي سبب وحدتهم وسر حضارتهم ، لأصالتها ، وغزارة مادتها ، وقدرتها على الارتقاء البشري في مجالات العلوم والفنون وسياسة الحياة .

ب ــ حركة التبشير التي قامت على قدم وساق ، وصاحبت الاحتلال الصليبي أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وما تزال قائمة حتى اليوم في كثير من البلاد الإسلامية ، ببث الشبه على المسلمين لزحزحتهم عن كتابهم وشريعتهم وحضارتهم ، حتى تتحقق التبعية للغرب ، ويصير المسلمون تبعًا وعضوًا في الجسم الغربي ، حتى لا يكون هناك شيء اسمه الإسلام ، ولا شيء يسمى بالحضارة الإسلامية .

ج ــ **الغزو الفكري** ، بشحن الأفكار في عقول الشباب والمثقفين برونق الحضارة الغربية ، وتقدمها وتسابقها في ميادين البحث في الأرض والفضاء ، وغير ذلك مما حققوه من سبق حضاري حتى يشعر المسلم أن ليس في دينه ما يسمو به إلى هذا المستوى الرائق في نظره ، مع شحنه بإلقاء تبعة التخلف على الدين الإسلامي فيما يعانيه المسلمون من تأخر وانحطاط (١) .

=الطبعة الثالثة ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، وانظر: الشهيد عبد القادر عودة : الإسلام وأوضاعنا القانونية ، ص ١٣٤ ــ ١٣٦ ، طبع الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية : ١٤٠١هـ / ١٩٨٢م ، وانظر: د / سعد بدير الحلواني ، وآخر : حاضر العالم الإسلامي ، ص ٤٠ ــ ٤٢ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .

(١) انظر : د / عبد الله الدفاع : المرجع السابق ، ص ١٦٢ ، ١٦٤ ، د / سعد=

ولقد عانى الفكر الإسلامي من ضغط الحضارة الأوربية الكثير ، التي عمدت إلى تزييف الحقائق الإسلامية ، والحديث عن المسلمين بحقد صليبي موروث [١] .

لقد كانت نتيجة هذا كله أن ظهر جيل في المسلمين : متنور الذهن ، لكنه مظلم الروح ، أجوف القلب ، ضعيف اليقين ، قليل الدين ، قليل الصبر والجلد ، ضعيف الإرادة والخلق ، يبيع دينه بدنياه ، وآجله بعاجله ، ويبيع أمته وبلاده بمنافعه الشخصية ، وبجاهٍ وبعزةٍ وهمية ، ضعيف الثقة بنفسه وأمته ، عظيم الاتكال ، كثير الإسناد إلى غيره .. هؤلاء هم الذين نشروا في المسلمين الجبن والوهن ، وصرفوا المسلمين عن الاتكال على الله ، ثم الاعتماد على أنفسهم إلى الاعتماد على غيرهم والتكفف لديهم ، والالتجاء في مواقع الخطر إليهم ، وأطفأوا في قلوبهم شعلة الجهاد في سبيل الله ، والحمية للدين ، وأبدلوها بالوطنية العليلة ، والقومية الناعسة ، وبعقل ناقص عليل ، لا يعرف إلا الموانع والعراقيل [٢] .

=الحلواني : حاضر العالم الإسلامي ص ٤٦ ـ ٥٩ ، د / عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام ، ص ١٥٩ ، ١٦١ ، طبع دار السلام ، القاهرة ١٩٨٤م ، د / محمد السيد يوسف : التمكين للأمة الإسلامية ص ١٣٩، ١٤٩ ، أنور الجندي : المد الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر ص ١١٥ ، د / علي جريشة ، وآخر : أساليب الغزو الفكري ، ص ١٥ ـ ٣٦ ، الطبعة الثانية ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، محمد قطب : واقعنا المعاصر ، ص ١٩٥ ، د / سعد الدين صالح : الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام ، ص ٣٢ وما بعدها ، دار الارقم ، الزقازيق ١٩٨٩م ، الشهيد عبد القادر عودة : الإسلام وأوضاعنا القانونية ، ص ١٣٦ ـ ١٣٨ ، وعلي جريشة : الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، ص ص ١٥ ـ ٣١ ، الطبعة الثانية دار الوفاء ، القاهرة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .

(١) د / عبد الحليم عويس : فقه التاريخ في ضوء أزمة المسلمين الحضارية ، ص ٧٩ ، الطبعة الأولى ، دار الصحوة ، القاهرة ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

(٢) الشيخ الحسن الندوى : المد والجزر في تاريخ الإسلام ، ص ٥٤ .

عوامل النهوض بالحضارة الإسلامية :

إذا كان الواقع المر يؤكد أن شعوبنا نَحَّتْ الحضارة الإسلامية من واقعها ، وأصبحنا نشكو " تخلفًا في العلم ، وتخبطًا في السياسة ، واضطرابًا في الاقتصاد ، وتفككًا في الاجتماع ، وتدهورًا في الأخلاق ، وبلبلة في الأفكار ، وزعزعة في العقائد ، وضعفًا في التربية ، وخواءً في الروح ، واختلافًا في الصفوف ، في الغايات والأهداف ، فضلاً عن الوسائل والطرائق " [١] ، مما يؤكد " أن الأزمة التي يعانيها المسلمون اليوم هي أقسى من سابقاتها وأمَرّ " [٢] لكن اليأس من وجود حل حاسم ومن دواء ناجع ، والاكتفاء بالحوقلة والاسترجاع ، وإبداء الأسف على ما انتهت إليه حال العرب والمسلمين ، دون البحث عن الحل ، والتفتيش عن العلاج ، إنما هو هروب من الواقع ، وفرار من الزحف ، ومناقضة الطبيعة الإيمان ، التي لا يعرف اليأس إليها سبيلا [٣] ، واليوم يدور الزمن دورته ، ويبدأ الوجه الكالح للقرون الأخيرة في حياة المسلمين منحسر ، ويبزغ فجر جديد للإسلام في ربوع الإسلام ، بدأ الناس ــ والشباب المثقف خاصة ــ يعودون إلى الإسلام، يريدونه رائعًا صافيًا كما نزل أول مرة بلا غبش ولا ركام ، وفي كل مكان في الأرض التي حكمها الإسلام ذات يوم حركات بعث إسلامي ، ودعاة يدعون إلى الإسلام ، وشباب يتطلعون إلى اليوم الذيْ يجدون فيه الإسلام مطبقًا بالفعل ، واليوم الذي يعود فيه المسلمون إلى الاستخلاف والتمكين في الأرض ... وفي الطريق عقبات كثيرة تعوق المسيرة ولكنها لا تمنع المسير " [٤] .

إن الأمة الإسلامية تملك رصيدًا ضخمًا من الإمكانيات والقدرات

---

(١) د / يوسف القرضاوى : الحلول المستوردة ص ١٦ .
(٢) محمد قطب : واقعنا المعاصر ، ص ٨ .
(٣) د / يوسف القرضاوى : المرجع السابق ص ١٦ ، ١٧ .
(٤) محمد قطب : واقعنا المعاصر ، ص ١١ ، ١٢ .

جديرة بأن تعيد للحضارة الإسلامية مجدها الخالد ، متى وجدت إلى النفوس والقلوب سبيلاً ، ومن هذه الإمكانيات والقدرات :

ـ **العقيدة الصحيحة** ، التي تلائم الفطرة الإنسانية السليمة ، وتجعل سلطانها على النفوس والقلوب أعمق وأدوم ، وتنقى كل الخرافات والأباطيل التي شكلت عقبات في سبيل الإيمان الصحيح ، وتمثل الرابط الحقيقي لمشاعر وأفئدة المؤمنين بها ، هذا الرابط الذي يدفعهم إلى العمل والحركة... وإذا كان الإسلام قد صنع حضارة شهد لها التاريخ بالسمو والتقدم ، فإن هذا الدين لم يتبدل ولم يتغير ، ولم ولن يتخلف عن صياغة حضارة جديدة تحياها أمته ، ويعيش في ظلها كل أمم الأرض ، متى توفرت النوايا والمقاصد الحسنة لذلك .

ـ **القوة البشرية والطاقات الفكرية** ، التي تشكلها سكان العالم الإسلامي، وتمثل ربع سكان العالم تقريبًا ، وهذه قوة لها أثرها الفعَّال متى كانت على وضع صحيح ، وبإمكانها أن تكون الزاد لبناء حضارة قوية إذا أمكن تربية هذه القوة البشرية بمنهجية تربوية ترتكز على حقائق الإسلام .. أما عن الطاقات الفكرية في العالم الإسلامي ، فهي حقيقة لا تنكر ، غير أن ولاءاتها قد فترت لعدة أسباب ، على رأسها : النظم المتسلطة التي تريد تسيير دفة الحياة بطريقة غير علمية ، ضاربة صفحًا خبرات أهل الاختصاص ، مولية وجهها نحو أهل الثقة ـ ممن يحفظون لها المقاعد والمناصب والمكاسب ـ لتستعين بهم حتى لو كانوا جهلاء ، ومنها : انعدام ـ أو ضعف ـ مناخ الحرية ، وهو الكفيل ـ إذا توفر ـ بأن تعود العقول المهاجرة إلى أوطانها ، وتخرج العقول التي لم تهاجر عن صمتها وحزنها ، وعندئذ سيستطيع هؤلاء تحقيق الهيمنة الفكرية للإسلام ، وقيادة البعث الإسلامي ، وبناء الحضارة الإسلامية في عصرنا هذا من جديد .

ـ **القوة المادية** ، ففي بلاد المسلمين اليوم أكثر من ستين في المائة من الطاقة الموجودة في العالم ، ولم توجه هذه الطاقة التوجيه السليم ، ولا

الاستثمار المناسب في بلاد الإسلام ، وسبب ذلك سوء التخطيط والإدارة ، وعدم الوصول إلى تخطيط وإدارة ناجحة ، وإهدار كثير من الخبرات الفنية والمهارات العلمية [١] .

ــ **العودة إلى الروح الدينية** ، التي صنعت الحضارة والثقافة المزدهرة المتألقة ، وإذا كان الناس يحنون إلى عهود ذهبية ، ازدهرت بها تلك العواصم الإسلامية ، ويتحرقون إلى إحيائها وتجديدها ، فأجدر بهم أن يعودوا إلى العامل الأصلي الذي ولّد تلك العصور الذهبية ، والذي بدونه لن تعود زهرة تلك العصور وينعتها ، ألا وهو العامل التربوي الإسلامي .. أما إذا وقفنا عند " استقلال العَلَم والنشيد " دون حقيقة " الاستقلال الحضاري " ، الذي هو ثمرة للصبغة الإسلامية المتميزة ، فلن نخرج من هذا المأزق الذي نعيش فيه [٢] .

ــ **العناية باللغة العربية** ، فإذا كانت أوربا لم تستطع التقدم بمسيرة الحضارة الإنسانية إلا بعد عكوفها على ترجمة العلوم من العربية إلى اللاتينية قرنًا من الزمان ، وإذا كان علماء العرب لم يستوعبوا قيادة المسيرة الحضارية إلا بعد عكوفهم على الترجمة إلى العربية من اللغات المتعددة مدة خمسين عامًا ، فإن بوسع المسلمين اليوم أن يعكفوا على ترجمة ما وصل إليه العصر الحديث من علم ومعرفة وفنون إلى العربية ، لينهضوا بحمل مسئولية المسيرة الحضارية من جديد ، وهذا واجب مقدس عليهم أن يتحملوه، ومفتاح الباب إلى ذلك هو العناية بلغتهم العربية ، ونشرها بين الأمم، ثم طرح ما استولى عليهم من أوهام التأخر والانحطاط بسبب الإسلام[٣] .

---

(١) انظر : د / محمد عبد الستار نصار : الإسلام رؤية حضارية ، ص ٩٢ ــ ١٠٣ ، د / عادل طه يونس : العالم الإسلامي اليوم (الاقتصاد ، الموقع الجغرافي ، السكان ، التعداد ، المشكلات) ص ٢٠ ــ ٢٤ ، طبع مكتبة ابن سينا ، القاهرة ، ١٩٩٠م .

(٢) انظر : د / محمد عمارة : في فقه الحضارة الإسلامية ، ص ١١٤ ، د / شوكت عليان : دراسات في الحضارة الإسلامية ، ص ١٨ ، ١٩ ، د / عبد الله الدفاع: لمحات من الحضارة العربية ص ١٦٥ .

(٣) د / عبد الله الدفاع : المرجع السابق ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

ــ **الوحدة الإسلامية** ، فلابد للأمم الإسلامية أن تطرح جانبًا كل دواعي الفرقة والإنقسام أيا كانت أسبابها ، وتوحد صفوفها في مواجهة الأخطار التي تتهددها من كل جانب ، فإن أمة الإسلام أمة واحدة ، والمؤمنون أخوة ، بعضهم أولياء بعض ، ويتطلب هذا اتحاد الوجهة ، وتحديد العدو ، وتحقيق الوحدة بين الدول الإسلامية ، وليس من الضروري أن يكون العالم الإسلامي كلة تحت حاكم واحد ، بل يمكن تحقيق الوحدة العقدية والتعليمية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية وفق مخطط محكم مدروس تلتزم به الدول الإسلامية على مستوى العالم كله في مدارسها ومعاهدها ومؤسساتها ، ووضع سياسة سريعة للاستعداد الصناعي الحربي ، وتوفير العدالة الاجتماعية في توزيع الثروات ، واستقلال الموارد في زيادة العمران ، وبناء المؤسسات النافعة ، وضرورة الوحدة في الاتجاه السياسي تجاه مختلف القضايا المرتبطة بالعالم الإسلامي ، وضرورة الاستقلال الاقتصادي الإسلامي عن التبعية للغير ، ولن يتم ذلك إلا إذا خلصت النيات ، وصدقت العزائم من أجل استئناف حضارة إسلامية صاعدة واعدة [١] .

ــ **سقوط الحضارة الغربية** ، التي تقدم أبشع صورة للإنسان في مجال التدمير [٢] وأشقت البشرية وأتعبتها من حمل هذه الحضارة المادية ، والمضي في متاعها وترفها ، وحقيقة أن الفساد والانحلال والأمراض العصبية والنفسية ، والشذوذ العقلي والجنسي ، وأثار ذلك كله تنخر في جسم هذه الحضارة ، وتشقى الأمم والأفراد ، وتفتح الأعين بعنف على الشر والفساد والدمار .. ولكن البشرية ما تزال في هياجها الحيواني ، وفي خمارها الجنوني ، وفي نشوتها المعربدة ... كما تعاني من الاستهتار

---

(١) انظر : عبد العظيم منصور : طريقة العودة ، ص ١٨٤ ــ ١٨٦ ، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ، الكتاب رقم ٧٣ ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م ، يوسف البدري : بصمات الاستعمار ص ١٧٨ ، د / محمود زقزوق : هموم الأمة الإسلامية ، ص ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) أنور الجندي : المد الإسلامي ، ص ١٧٥ .

والاستخفاف بكل عقيدة وكل رأي وكل مذهب ، كما تعاني من نفاق القلب ، وكيد الضعف ، وخبث الاحتيال [١] ، إن هتافات كثيرة من هنا وهناك ، تنبعث من القلوب الحائرة ، وترتفع من الحناجر المتعبة ، تهتف بمنقذ ، وتتلفت على مخلص ، وتتصور لهذا المخلص سمات ، وملامح معينة فيه ، وهذه السمات وتلك الملامح لا تنطبق إلا على هذا الدين [٢] .

إن الحضارة الإسلامية المتجددة ستعطى البشرية نموذجًا جديدًا ، فقد صيغت المبادىء الإسلامية على نحو يجعلها قادرة على ضمان التنسيق والتوازن والتكامل بين حاجيات المادة والحاجيات النفسية والروحية ، والضوابط التي وضعها الإسلام لا تعارض سنة التطور ولكنها تقيم حركة المتغيرات داخل إطار الثوابت [٣] ، وهنالك قدر علوي يدفع الأحداث .. ويدفعها في إتجاه معين ، في إتجاه الصحوة الإسلامية ، وبواعثها موجودة ، ولا يملك الاعداء وقف الحضارة الغربية عن الانهيار ، بل يملكون ـــ بقدر الله ـــ التقتيل والتذبيح والتشريد والتعذيب والاضطهاد ، وهذا لا يقضي على المسيرة الإسلامية بقدر ما يمحصها ، ويجعلها أقدر على المواجهة [٤] .

ولا يجوز أن يتطرق إلى قلوبنا الشك بسبب الضربات الوحشية التي تكال للمسلمين ، ولا ضخامة الأسس التي تقوم عليها الحضارة الغربية المادية ، فالذي يفصل في الأمر ليس هو ضخامة الباطل ، وليس هو قوة الضربات التي تكال للإسلام ، وإنما الذي يفصل في الأمر هو قوة الحق ، ومدى الصمود للضربات [٥] .

---

(١) سيد قطب : هذا الدين ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، الطبعة الخامسة ، طبع الاتحاد الإسلامي العالمي ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.
(٢) سيد قطب : المستقبل لهذا الدين ، ص ٩٤ ، طبع الاتحاد الإسلامي العالمي ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
(٣) أنور الجندي : المد الإسلامي ، ص ١٧٥ .
(٤) انظر محمد قطب : واقعنا المعاصر ، ص ٥٤١ .
(٥) انظر : سيد قطب : المستقبل لهذا الدين ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

وما دام المسلمون اليوم يملكون شريعة الله ، وهي أنضج الشرائع عطاءً وتجددا وشمولاً ، وما دام بأيديهم مفاتيح الحضارة وعوامل وجودها ، وما داموا يملكون المواد الخام والثروات الطائلة ، وما دام فيهم الطاقات الهائلة القادرة على الإبداع ، وما دام فيهم النبوغ والذكاء وتفتح العبقرية ، وما داموا يُعدون ألف مليون من البشر ، وما دامت أوطانهم تقع في قلب العالم ، وهي شبه متصلة ، يملكون البعد الديني ، الإنساني ، الاجتماعي ، والجغرافي ، والحضاري ، والمصيري ، وما دام المسلمون يجمعون هذه الخصائص ، وتتوفر فيهم هذه المزايا ، فباستطاعتهم اليوم ـــ إن أرادوا الحياة العزيزة ــ أن ينهضوا بالحضارة الإسلامية كما نهضوا بها من قبل ، وبقدرتهم أن يحملوا إلى العالم إمامة العلم والثقافة والمعرفة ، وبإمكانهم أن يستعيدوا وصايتهم على البشرية من جديد [١] ، ولا بد ونحن نسير على هذه الطريق أن ندرك أمرًا واحدًا يجب أن يكون في حسابنا .. إن أمامنا كفاحًا مريرًا ، شاقًا طويلاً ، لاستنقاذ الفطرة من الركام ، ثم لتغليب الفطرة على هذا الركام[٢] ، فلن يكون الطريق مفروشًا بالورود .. إنما هو العرق والدموع ، والدماء والعذاب ، والجهد الناصب ، والطريق الوعر المحفوف بالمخاطر وبالوحوش الوالغة في الدماء ، يسقط فيها شهيد تلو شهيد .. بينما يسير الركب في الحر اللافح وفي الزمهرير .. لا يتوقف عن المسير .. وحين تعود الأمة إلى إسلامها الحق ، ويمكن لها الله في الأرض تتغير ملامح كثيرة في الأرض ... وحين تتجه البشرية إلى الإسلام ، فعندئذ فقط يصبح التقدم العلمي والتكنولوجي دافعًا إلى الإمام ، ومعينًا على الخلافة الراشدة [٣] ، ولن نستطيع أن ننقذ العالم من الأوحال والقاذورات والتسلط المادي والطغيان العلمي المزعوم الذي أصاب الإنسانية بالقلق والغربة

---

(١) انظر : عبد الله علوان : معالم الحضارة في الإسلام ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، د/محمود زقزوق : هموم الأمة الإسلامية ، ص ٧٩ ـــ ٨٨ .
(٢) انظر : سيد قطب : المستقبل لهذا الدين ، ص ١١٧ .
(٣) انظر محمد قطب : واقعنا المعاصر ، ص ٥٤٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٩ .

والضياع ، وقتلت المعاني الروحية في الإنسان المعاصر ، ولوثت فطرته ، وأفسدت طبيعته ، فعاش في فراغ روحي استولى عليه ، فبحث عن الخلاص والراحة .. وخلاصه وراحته في الحضارة الإسلامية الإنسانية الهادية الخالدة الربانية ، التي ما قصرت عن العطاء لكل عصر ، وما قعدت عن الوفاء بأي مطلب[١].

إن التاريخ والحضارة في الحقيقة هما مجرى السنن الربانية في واقع الأرض ، وحين تقف الجاهلية تحارب قدر الله فمن يكون الغالب ؟ ومن يكون المغلوب ؟ ، وما أعظم وأجل أن نعرض في هذا الباب ببديع بيان الدستور الإلهي الخالد ، إذ يقول رب العزة في شأن السنن التي تجرى على الحضارات الإنسانية ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [٢] ، ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ [٣]، ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [٤] ، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٥] .

إن الحضارة الإسلامية آن لها أن تعود لتملأ الفراغ المنتظر بعد السقوط النهائي للحضارات المادية ، آن لها أن يحملها أقمار هداية وشموس إصلاح ، ودعاة خير وحق ، وشباب مؤمن واع يجسذ مبادىء الإسلام ، ويترجمه في حركاته وأفعاله وتصوراته ، حتى تعطى الحضارة الإسلامية

---

(١) انظر : عبد الله علوان : معالم الحضارة في الإسلام ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦ .
(٢) سورة آل عمران : (١٤٠ ــ ١٤٢) .
(٣) سورة محمد : (٣٨) .
(٤) سورة المجادلة : (٢١) .
(٥) سورة يوسف : (٢١) .

للعالم كله أكلها وثمارها ، وتعود بالعزائم المتينة مجد الجدود العريض ، ويسمع العالم مرة أخرى بأمة الحضارة ، وأمة المبادىء ، وأمة الأمجاد ، وأمة الخلود [١] .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [٢] ، ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [٣] .

صدق الله العظيم

---

(١) انظر : عبد الله علوان : المرجع السابق ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٢) سورة النور : (٥٥) .
(٣) سورة الحج : (٤١) .

مكانة العلم والفكر في الحضارة الإسلامية

الإسلام دين العلم يحث على طلبه مهما نأى مكانه ، وأتعبت أسفاره ، وللعلم والتعليم والعلماء والطلاب مكانة سامقة في تاريخ الحضارة والفكر الإسلامي ، وقد بلغت الأمة الإسلامية بالعلم المكانة العالية ، والريادة والقيادة الرشيدة ، ونجد أنفسنا أمام حشد هائل من الآيات القرآنية يبلغ المئات في حديث القرآن عن العلم ، ورفع الإسلام العلم فيها إلى درجة العبادة ، ودعا إلى طلبه ، وحض على تحصيله ، وفرضه على كل مسلم ومسلمة ، حتى غدا الجانب العلمي من أبرز مظاهر الحضارة الإسلامية .

ولم تعرف البشرية رسالة مثل رسالة الإسلام عنيت بالعلم ، والدعوة إليه ، والترغيب فيه والتعظيم لقدره ، والتنويه بأهله ، والحث على طلبه وتعلمه وتعليمه وبيان آدابه ، وتوضيح أثاره ، والترهيب من القعود عنه ، أو الازورار عن أصحابه ، أو المخالفة لهدايته ، أو ازدراء أهله .[١]

وليس للإسلام عداء للعلم ولا التجربة الحسية الآلية التي يقوم عليها ، وليس معاديًا للصناعة ولا للتطور الصناعي[٢] .

كرم الله تعالى الإنسان لإنسانيته .. ذلك نص القرآن : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا ﴾[٣] .

---

(١) ينظر : د / يوسف القرضاوى ــ ثقافة الداعية ــ ص ١٧ ، الرسول والعلم ص ٣ د / مجاهد الجندي ــ تاريخ التربية الإسلامية، ص ١ د / أحمد مجاهد مصباح ــ تاريخ الحضارة والفكر الإسلامي ، ص ١٢٠ ، الشاعر أحمد شوقي ــ أسواق المذهب : ص ١٠٧ .

(٢) د / محمد البهي : الإسلام في الواقع الأيدلوجي المعاصر ، ص ٣٢ ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٣هــ / ١٩٨٢م .

(٣) الإسراء : (٧٠) .

والإنسان مكرم لعلمه وعقله وفكره .. ذلك ما صرح به القرآن حين حكى قصة آدم : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١) .

وأشار سبحانه وتعالى إلى سبب هذا التكريم : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾(٢).

وهو مكرم فوق ذلك لتقواه وإيمانه : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾(٣).

ومر عليه الصلاة والسلام بالكعبة ، فقال لها : " ما أعظمك وما أعظم حرمتك ! والله لحرمة المؤمن أعظم عند الله من حرمة بيته المحرم " ، وقال: " كل المسلم على المسلم حرام دمه ، وماله ، وعرضه " .

وهكذا ترتفع التقوى إلى أعظم درجة .. في الدنيا والآخرة ، فإذا اجتمع مع التقوى العلم ، فقد اجتمع له الحسنيان .(٤)

والمزية الكبرى في الحركة العلمية الإسلامية أنها جزء من هذا الدين لشموله وتوازنه وترابطه لا يشذ عنه ، ولا ينفصل عنه ونمت الحركة العليمة في الإسلام في ظل العقيدة الصحيحة ، فلم يحدث قط بينهما صراع لا على المستوى النظري ولا على المستوى العلمي .(٥)

---

(١) البقرة (٣٠) .
(٢) البقرة : (٣١ ــ ٣٣) .
(٣) الحجرات : (١٣).
(٤) د / جريشة ــ منهج التفكير ــ ص ١٠ ، ٨ ، ٧ .
(٥) ينظر محمد قطب ــ واقعنا الحاضر ــ ص ٩٨ .

وجعل الإسلام أهل العلم قرناء الملائكة في الشهادة على تفرده بالألوهية : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[١] .

وجعل العلم رافعا لأهله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٢] .

وجعل العلم أساس خشية الله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[٣] .

وحث الجاهل على اتباع العالم ولو أصغر منه : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾[٤] .

بل إن الآيات القرآنيات دلت على رفع قدر " الغراب " [٥] الذي علم ابن آدم ما كان يجهله ، ورفع قدر " الهدهد " [٦] الذي أحاط علما بما يحط به نبي الله سليمان بن داود عليه السلام ورفع قدر " الكلب " [٧] المعلم بفنون الصيد ، وأمر الإسلام بالرجوع إلى أهل العلم عند التباس الأمر على السائل : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٨] .

كما أن العلم بحر لا ساحل له ، ولا نهاية لخزائنه ، ولا نفاد لصحائفه: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٩] .

---

(١) آل عمران : (١٨) .
(٢) الزمر : (٩) .
(٣) فاطر : (٢٨) .
(٤) مريم : (٤٣) .
(٥) يراجع الآية (٣١) من سورة المائدة .
(٦) يراجع الآية (٢٢) من سورة النمل .
(٧) يراجع الآية (٤) من سورة المائدة .
(٨) النحل : (٤٣) .
(٩) الإسراء : (٨٥) .

وحث الإسلام على الازدياد من العلم : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[١] ، وحث على الرحلة في سبيله ، فقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[٢] .

وجعل الإسلام اللبنة الأولى في تكوين الرجال العظام تحصيل العلم في القراءة في كتاب الكون المفتوح ، وقد عانق الإسلام في أول آيات نزلت من القرآن العلم ، وخاطب الله رسوله بقوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[٣] .

وأكد الإسلام أن أهل العلم هم أقدر الناس على الفهم والتدبر ، والاعتبار بمواطن العبر : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[٤] وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[٥] .

وجعل الإسلام العلم شرطا لكل عمل قيادي ، على المستوى السياسي والإداري والدعوى والتربوي للفتى ، قال تعالى : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[٦] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٧] .

---

(١) طه : (١١٤) .
(٢) الحج : (٤٦) .
(٣) العلق : (١) .
(٤) سورة العنكبوت : (٤٣) .
(٥) سورة النساء : (١١٣) .
(٦) سورة يوسف : (٥٥) .
(٧) سورة البقرة : (٢٤٧) .

وقال تعالى ــ في الترهيب من الفتوى بغير علم ــ : ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١) .

وقال : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ... ﴾(٢) .

وجعل العلم غاية إنسانية توظف لهداية الضال ، وتعليم الجاهل ، وخدمة المجتمع ، وإنذار الأهل ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾(٣) .

وجعل كتمان العلم والسكوت عن الحق ، يستوجب اللعنة من كل مصدر ، ويتوجه إليها بعد الله كل لاعن ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾(٤) ، وهو تحذير لمن يكتمون العلم عن أهله.(٥)

---

(١) سورة الأعراف : (٣٣) .
(٢) سورة يوسف : (١٠٨) .
(٣) سورة التوبة : (١٢٢) .
(٤) سورة البقرة : (١٥٩) .
(٥) ينظر للمزيد : الشيخ محمد الغزالي ــ خلق المسلم ــ ص ٢٢٤ ، د / محمود حمدي زقزوق ــ الإنسان في التصور الإسلامي ، ص ٣٠ ، ٣١ ، د / شوقي ضيف : عالمية الإسلام ، ص ٥٣ ، عباس حسن الحسيني : دستور المهن في الإسلام ، ص ٧٥ ، ٧٦ ، د / محمد محمد الخطيب : تاريخ التربية الإسلامية ص ٢ ، ٣ ، ابن الجوزي : صيد الخاطر ، ص ١٠٧ ، ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم وأدب العالم المتعلم ص ٦ ، السيد علوي المالكي : مختصر الترغيب والترهيب ص ٩ ، ابن القيم الجوزية : إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ، د / يوسف القرضاوى : في فقه الأولويات ص ٦٠ ــ ٦٤ ، سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ١ ص ١٥٠ ، محمد على الصابوني : روائع البيان ج ١ ص ١٤٧ ــ ١٥٠ ، د / رؤوف شلبي : الوحي في الإسلام وأهميته في الحضارة الإسلامية ص ٢٨٨ ــ ٢٩٠ .

والحق فإن هذا قليل من كثير وغيض من فيض ، عن الآيات المتعلقة بموضوع العلم والفكر في القرآن .[١]

وفي السنة تجد كما هائلا من الأحاديث النبوية التي رفعت قدر العلم والعلماء ، ومن هذه الأحاديث ــ على كثرتها ــ ما روى عن أبى الدرداء ﷺ ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع ، وأن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهمًا إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر " .[٢]

ومن الهدى النبوي طلب العلم النافع والزيادة منه قال عليه السلام : " اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني ، وزدني علما ، والحمد لله على كل حال " .[٣]

وبينت السنة أن معرفة الدين والتفقه فيه خير للعبد من الله ، قال عليه السلام : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " .[٤]

كما حثت السنة على طلب العلم لأهميته ومكانته ، ومما جاء في الحديث ــ المروى عن معاذ بن جبل ﷺ ــ عن النبي ﷺ أنه قال : " تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه

---

(١) ينظر : د / يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، ص ٣ ، ٤ ، الشيخ توفيق السبع : قيم حضارية ، ج ٢ ، ص ٨١ .

(٢) رواه ابن ماجة في سننه ، ج ١ حديث (٢٢٣) ، المنذرى في الترغيب والترهيب ، ج ١ ، ص ٩٤ ، وقال " رواه أبو داود والترمذي وابن حيان في صحيح البيهقى " القرضاوى : المنتقى ج ١ ، ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٣) ابن ماجه في سننه ، ج ١ ، ص ٩٠ .

(٤) البخاري : الجامع الصحيح ح السندى ج ١ ، ص ٢٤ ، المنذرى : الترغيب والترهيب ، ج ١ ص ٩٢ ، يوسف البنهانى : إتحاف المسلم ، ص ١١ .

جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ... " (الحديث) .[١]

وشجعت السنة على الرحلة في سبيل طلب العلم ، فقال عليه الصلاة والسلام (من غدا يريد العلم يتعلمه لله ، فتح الله له بابا إلى الجنة ، وفرشت له الملائكة أكتافها، وصلت عليه ملائكة السماء ، وحيتان البحر ... " .[٢]

وإذا طالعت كتبَ الحديثِ النبوي ، تجد في جميع الكتب المصنفة حسب الموضوعات والأبواب ، تجد كتابًا حافلاً موضوعه العلم ، ففي (الجامع الصغير) ــ للحافظ البخاري ــ كتاب العلم ، قد اشتمل ــ كما يقول ابن حجر العسقلانى في فتح الباري ــ من الأحاديث المرفوعة إلى " مائة حديث وحديثين " منها ستة عشر حديثا مكررا ، فيه من الآثار الموقوفة على الصحابة ومن بعدها اثنان وعشرون أثرا .[٣]

وفي باقي أصول السبعة (الجامع الصحيح للإمام مسلم ، والموطأ للإمام مالك ، وسنن الإمام الترمذي ، وسنن أبو داود ، وسنن النسائي ، وسنن ابن ماجه) كتاب أو عدة أبواب عن العلم تقصر أو تطول ، وحسبنا أن كتابا مثل " الفتح الرباني " ــ في ترتيب مسند الإمام أحمد قد ضم في كتاب العلم واحدًا وثمانين حديثا ، وفي كتاب " المستدرك " ــ للإمام الحافظ محمد النيسابورى (ت ٤٠٥ هــ) ــ بلغت فيه أحاديث العلم أربع وأربعون صفحة، وجمع كتاب " العلم " في " الترغيب والترهيب " ــ للإمام المنذرى (ت ٦٥٦ هــ) ــ عدد مائة وأربعون حديثا ، وكتاب " العلم " من " جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد " ــ للإمام محمد السوسى (ت١٠٩٤هــ) ــ قد ضم أربعة وخمسين حديثا .

---

(١) المنذرى : الترغيب والترهيب ، ج ١ ، ص ٩٤ ، ابن عبد البر : جامع بيان العلم ج ١ ص ٥٤ .
(٢) المنذرى : نفس المصدر ج ١ ص ١٠٥ ، ابن عبد البر : نفس المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٦ .
(٣) ابن حجر العسقلانى : فتح الباري ، ج ١ ص ٢٧٩ .

ولا يخفي أن قدرًا كبيرًا من الأحاديث في كل كتاب مكرر مع أحاديث الكتب الأخرى ، والواقع أن هناك العشرات والمئات من الأحاديث لها صلة بالعلم ، ولكنها وضعت في مظان أخرى من أبواب الكتاب لأن الحديث الواحد له أكثر من دلالة ، ويستفاد منه في أكثر من حكم .(١)

ويتأكد من خلال هذه الأحاديث أن الإسلام لم يدفع إلى العلم الشرعي فقط ، كما يظن الكثير ، بل حث على العلم الشرعي وعلوم الدنيا ، فلا تجد نصا يصد عن أي علم يستفيد المسلم منه ، والذي به يُشكر الله حق شكره ، ويُعرف حق قدره ، ويقف به الإنسان على قوانينه وشرعه ، ويستخدم كل ما يصلح لخدمة الإنسانية وتوفير ما ينفعها .(٢)

وكل ما يوسع منادح النظر ، ويعطى العقل الفهم والمزيد من العرفان، ويؤكد صلة الإنسان بالوجود ويفتح آماد الكشف والإدراك ، ويتيح له السيادة، والتحكم في قواه ، والإفادة من ذخائره المكنونة ، في كل ذلك ينبغي التضلع منه ، ويجب على المسلم أن يأخذ بسهم منه ، وهذا الشمول دلت عليه الآيات الكريمات .(٣)

وليعلم شباب أمة الإسلام ، وجيلها الناهض ، أن سر التقدم والنفوذ والريادة والقيادة ، والانطلاق الإسلامي ، والتطبيق العملي الصحيح للإسلام قائم على أساس وجوب حتمية طلب العلم وتعليمه ، وعلى مقداره أهميته لدى الأمة ، ولم تنهض أوربا إلا بعد ما مسها قبس من نور العلم لدى الحضارة الإسلامية ، ولم يستطيع مؤرخو تاريخ العلم إنكار فضل العرب العلمي على نهضة أوربا .(٤)

---

(١) ينظر د / يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ص ٢٤ .
(٢) ينظر الإمام محمد عبده : الإسلام والنصرانية ، ص ٧٤ ، أنور الجندي : العودة إلى المنابع ص ٢٥ ، محمد يوسف السيد : التمكين للأمة الإسلامية ، ص ٦٥ .
(٣) ينظر الشيخ محمد الغزالي : خلق المسلم ص ٢٢ .
(٤) ينظر: د/ سفر الحوالي : العلمانية نشأتها وتطورها ، ص ١٤٥، د/ يوسف=

وكان الإسلام متميزا في مفهومه للعلم ، ولم تحدث معارضة بين الدين والعلم كما حدث في أوربا ، طالما كان العلم يتجه لنفع الناس ، ولا يستخدم في المحرمات والخبائث والفواحش والمنكرات ، وإنتاج أسلحة الإبادة الجماعية المحرمة ، أو تخريب الحضارات الإنسانية .(١)

بل جعل الإسلام العلم وسيلة لتربية النفس البشرية ، والنور الذي يكشف لها طريق الحق والخير والسعادة ، والحضارة والرشد والإصلاح .(٢)

مما لا شك فيه أن النصوص الشرعية في فضل العلم والعلماء والحث على طلبه ، كانت من أكبر دوافع المسلمين لطلبه ، والرحلة إليه ، ونشره في كل مكان وزمان ، وبناء معاهده ومؤسساته ، ورعاية طلابه وأعلامه ، الأمر الذي أدي بدوره لقيام نهضة علمية إسلامية انتشرت في جميع أقطار العالم الإسلامي وبرزت الصبغة الدينية في الحركة العلمية الإسلامية ، ونهضت الأقطار في المنافسة العلمية ، حتى امتلأت الأرض الإسلامية نورًا وضياءً ، وعلوما حتى شملت كل الفنون والدقائق ، وأورثت العديد من الموسوعات العلمية ، والمؤلفات الخالدة ، والمخطوطات النادرة ، التي ثبتت على الدهر ، وأتاحت لنفسها الخلود على مرّ الزمن ، وذلك يعز عرضه في

=القرضاوى : الدين في عصر العلم ص ١٨ ، ٢٤ ، جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٥٦١ ، ٥٧٩ ، زيغريد هو نكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٩٩ ، ٤٠٣ ، عمر فروخ : فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية ، ص ٦ وما بعدها ، مأمون ياسين : الأسس النبوية ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، د / السعيد رزق حجاج : تاريخ أوربا الحديث ص ٨ ، د/علي عبد الله الدفاع :لمحات من تاريخ الحضارة العربية ، ص ٣٠ وما بعدها، د / رؤوف شلبي : الوحي في الإسلام : ص ٢٩٢ ، د / مانع الجهنى : الموسوعة الميسرة : ج ١ ، ص ٣٠ ، ٣٣ .

(١) ينظر : د / أحمد عبد الحميد غراب : الإسلام والعلم ، ص ٣٨ ،٤٣ ، أنور الجندي : العودة إلى المنابع ، ص٢٥.

(٢) ينظر : د / محمد عبد الله منصور : المختصر المفيد في تربية النفس ، ص ١٦٢ ، د / عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ، ص ٣٦٥ ، د/محمد الخطيب ، التعليم في مصر ، ص ٧٧٨ .

أي عمل لكثرته المفرطة .[١]

وعلى هذا الأساس ـــ أساس العلم ـــ قامت الحضارة الإسلامية ، وتعددت مراكزها ، وازدهرت في جنبات العالم الإسلامي حركة حضارية إسلامية تبنى الفرد روحًا وجسدًا ، علمًا وعملاً ، بربانية المصدر ، وعالمية الوجهة ، وإنسانية المنطلق ، ووسطية المنهج ، وأخلاقية المحتوى ، وإيجابية البناء ، وصنعت مجدا صفق له التاريخ حينا من الدهر ونهض بنهضتها مجتمعات العصور الوسطي ، من عصور الظلام إلى عصور العلم والنور، والنهضة والتقدم ، والازدهار والرفاهية .

---

(٣) ينظر : د / شوقي ضيف : عالمية الإسلام ، ص ٧٢ ، محمد يوسف : التمكين للأمة الإسلامية ، ص ٦٧ ، فتحي رضوان : الإسلام والمسلمون ، ص ٤٨٥ . ويراجع للمزيد : عبد المعز فضل عبد الرازق : الحركة العلمية في إقليم الغربية (رسالة دكتوراه) .

نشأة العلوم الإسلامية ، ومراكز الفكر عند المسلمين

نشأت الحركة العلمية في الأمصار المختلفة من بدء الإسلام إلى آخر العصر الأموي ، وكان من أهم مراكز الحياة العقلية في ذلك العصر الحجاز (مكة والمدينة) ، والعراق (البصرة والكوفة) وفي الشام ومصر .

وقد دار في هذه المراكز علوم ، ونبغ فيها علماء ، وظلت هذه المراكز هي المراكز الفكرية بعينها في العصر العباسي ، لم يزد عليها إلا " بغداد " في العراق ، والأندلس التي أصبحت باستيلاء الأمويين عليها مركزًا من مراكز الثقافة والفكر الإسلامي .

١ ـــ الحجاز :

أكثر ما عرف عن مدرستي مكة والمدينة علوم الحديث والفقه ، واستمرت هذه الحركة على أصول الكتاب والحديث ، وظل العلماء في مكة يتلقون العلم طبقة عن طبقة ، واشتهر من التابعين من علماء مكة " مجاهد بن جبر ، وعطاء بن أبى رباح " وغيرهم .

وجاء بعدهم طبقة أخرى اشتهر منها " عمرو بن دينار " وكان ثقة ثبتًا كثير الحديث ، وغير هؤلاء من العلماء الثقة أمثال "سفيان بن عيينة" (ت١٩٨هـ) ، و" الفضيل بن عياض" ـــ شيخ الحرم المكي ـــ (ت١٨٧هـ).

وأما المدينة فقد نبغ فيها في هذا العصر من العلماء في نحو آخر من العلم ، منهم " محمد بن عمر الواقدى " شيخ المؤرخين ، العالم بالمغازى والسير والفتوح ، وصاحب المؤلفات الكثيرة إبَّان العصر العباسي .

وقد كانت مدرستا الحجاز في مكة والمدينة من أكبر مصادر الحديث النبوى ، وما يبنى عليه من أحكام الفقه ، وما يتصل بذلك من أخبار وسير ، لأن مكة منشأ النبي ﷺ والمدينة مهاجره ، وكلاهما منبت الصحابة من

مهاجرين وانصار عاشروا النبي ، وحدثوا عنه ، وحكموا ما رأوا وسمعوا من أقوال وأفعال ، وتناقل التابعون عنهم ما سمعوا ، ونقل عنهم من أتى بعدهم ، كما كانت حركة الحج الدائمة سببًا في اتصال العالم الإسلامي بعلماء مكة والمدينة ، يجتمعون بعلمائها ، ويأخذون عنهم ، ويرجعون إلى بلادهم لنشر ما تلقوا لزمن بعيد .

٢ ـــ العراق :

كانت العراق من أهم المراكز الفكرية في فروع العلم والفن ، من تفسير وحديث وفقه ولغة ونحو وصرف ، وترجمة كتب الفلسفة والمذاهب الكلامية ، والعلوم الطبية والرياضية ، وحتى الغناء والطرب والنقش والتصوير ، والتأليف في جميع أنواع العلوم والفنون .

فكان إقليم العراق بحق : إقليم الظرفاء ، ومنبع العلماء ، لطيف الماء عجيب الهواء ، ومختار الخلفاء ، أخرج أبو حنيفة فقيه الفقهاء ، وسفيان سيد القراء ، وحمزة والكسائى ، وكل فقيه ومقرىء وأديب ، وحكيم وداه وزاهد ونجيب ، وظريف ولبيب ، فيه البصرة والكوفة ، وبغداد الممدوحة في الورى .

وكان أهم مراكز الفكر في العراق في العصر الأموي " البصرة والكوفة " وكان التنافس بينهما شديدًا ، وفي العصر العباسي ظل هذا التنافس، ودخل في المنافسة مدينة " بغداد " ـــ التي أنشأها المنصور ـــ وكان التنافس بين هذه المدن الثلاث في العصر العباسي أشد منه في العصر الأموي ، تبعًا لنمو الحركة العلمية ، فالبصريون والكوفيون والبغداديون في النحو والصرف واللغة والأدب والكلام ، وكل جماعة من العلماء تتعصب لبلدها ولمذهبها العلمي ، ودارت مفاخرات كثيرة بين البصريين والكوفيين في العصر العباسي ، فخر جغرافي ، وتاريخي ، وعلمي ، وكانوا يناظرون في حضرة الخلفاء والأمراء وفي مجالسهم الخاصة ، وفي كتبهم وتآليفهم .

ثم جاءت بغداد ففخرت على الكوفة والبصرة معًا ، فليس عالم أعلم من عالمهم ، ولا أروى من روايتهم ، ولا أجدل من متكلمهم ، ولا أعرب من نحويهم ، ولا أصح من قارئهم ، وقد كثر علماؤها ، والراحلون إليها ، وزهادها والأدباء فيها ، نحوًا من (٧٨٣١) ترجمة .

وظهرت بذلك ظاهرة العصبية للقطر والبلد ، وازداد في العصر العباسي ، وحملت على وضع الأخبار في مزايا البلاد وعيوبها في الأخلاق والعلم ، وكان ذلك بين الشاميين والعراقيين واضحًا على أثر النزاع العلمي بينهم .

على أن ما تفخر به بغداد تلك النهضة العلمية في رحابها إبَّان العصر العباسي ، عهد هارون الرشيد ، والمأمون ، ثم المستنصر بالله العباسي ، وأما أصحاب الفضل من العلماء والفقهاء والزهاد والعباد والأدباء والشعراء وغيرهم في بغداد ، فلا يعلم عددهم إلا الله ، ومن مشاهيرها : " الإمام أبو حنيفة النعمان (ت١٥٠هـ) ، الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) ، البختري (ت٢٠٠هـ) ، الحارث المحاسبي (ت٢٤٣هـ) ، أبو بكر الرازي (ت٣١٣هـ) ، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) ، أبو الحسن البصري (ت ٤٣٦هـ) " وغير هؤلاء من الأعلام في العلم والفضل والريادة والقيادة والزهد والعبادة ، والفقه والفهم ، والأدب والشعر ، ومن المشهورين والمغمورين ، ممن جاء ذكرهم ، وورد وصفهم ، وذكرت آثارهم في كتب العلوم والفنون والتراجم .

٣ ـــ مصر :

كانت في مصر حركة دينية واسعة النطاق ، القرآن والحديث والفقه والقراءات ، وتعنى بالقصص ، كان مركزها جامع " عمرو بن العاص " بالفسطاط ، حيث اتخذ الصحابة الذين شهدوا فتح مصر مقرًا لهم ولتدريسهم، وترتب على ذلك ظهور مدرسة دينية بمصر ، نشأت ثم نمت بالتدريج ،

وصار لها أتباع عديدون ، أسهموا في دعم الثقافة الدينية ، التي امتلأت بها سائر أرجاء الدولة الإسلامية في صدر حياتها ، وجعلوا من وطنهم في مصر مركزًا من مراكز هذه الحركة الدينية الزاهرة ، فتخصص نفر من علماء مصر في دراسة القرآن الكريم ، والحديث ، واستنباط الأحكام منهما ، حتى صارت الديار المصرية مقصد الطلاب من الأقطار المجاورة لها .

ولعل سبب هذا النشاط المبكر لمصر في ميدان الحركة الفكرية الدينية يرجع إلى أن الخلفاء اختاروا لها خيرة علماء المسلمين ، وأوسعهم ثقافة وفهمًا لشئون الدين ، وكان نواة هذه الحركة هم الصحابة الذين جاءوا لفتح مصر وبعده واستوطنوها ، أفردهم البعض بالتأليف ، وأشهر الصحابة ممن دخلوا مصر : " أبو ذر ، والزبير بن العوام ، وسعا بن أبي وقاص " ، وكان هؤلاء يحملون الحديث عن الرسول ﷺ وبعض الأحاديث لم تكن تُعرف إلا منهم ، وقد تلقى عن هؤلاء الصحابة حديثهم كثير من التابعين ، وتكونت بذلك مدرسة أول أساتذها الصحابة ، فأخذ عنهم التابعون ثم الذين يلونهم .

وقد بدأت هذه المدرسة البسيطة ، يسمع أحدهم الحديث فيحفظه أو يكتبه ، ثم نمت فتخصص قوم للعلم يتدارسونه ، يدرسون القرآن والحديث ويستنبطون منهما الأحكام ، ثم نبغ جماعة من العلماء المجتهدين ، مثل " سليم بن عنتر التجيبى " تولى القضاء عشرين سنة ، وهو عالم مصر وقاضيها ذلك الوقت (ت٧٥هـ) ، ومنهم " نافع مولى ابن عمر " و " يزيد بن حبيب الأزدى " ـ المؤرخ والفقيه ـ (ت١٢٨هـ) وله الفضل في التكوين العلمي لكل من " عبد الله بن لهيعة " والآخر " الليث بن سعد " (ت١٧٥هـ) ، وهما من أعلام المدرسة المصرية في العصر العباسي في الحديث والأخبار والفقه .

وعلى الجملة فقد كانت في مصر حركة علمية دينية كبرى ، وظهرت في سماء الحركة الفكرية الأسماء اللامعة في مجالات العلم مثل " عثمان بن

سعيد المصري " (ت١٩٧هـ) الملقب بورش الذي انتهت إليه رياسة الإقراء في مصر ، و " ذو النون المصري " (ت٢٤٥هـ) أحد رؤوس الصوفية في الديار المصرية ، و " عبد الرحمن بن عبد الحكم " مؤرخ مشهور صاحب كتاب فتوح مصر ، ولمع في التاريخ والنحو والأنساب أبو محمد بن عبد الملك ابن هشام ، صاحب السيرة .

وكان بجانب هذه الحركة الدينية حركة أخرى أدبية وعربية ، عمادها العرب المسلمون الذين جاءوا مصر عند الفتح وبعدها ، فعنهم كانت آثار الأقوال البليغة ، والثقافة اللغوية والأدبية ، وكان ممن وفد إلى مصر من الشعراء المشهورين في عهد عبد العزيز بن مروان : " جميل بثينة الشاعر العذرى المشهور ومات بمصر ، وكذلك كثير عزة ، وعبد الله بن قيس الرقيات ، وأبو تمام " ، وكان هؤلاء وغيرهم أثر في وجود الشعر في مصر، على أن الشعر المصري لم يزدهر إلا عقب الاستقلال عصر الدولة الطولونية .

وفي " الإسكندرية " التي تطل على البحر المتوسط ، ولها المناخ المعتدل ، الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، فتحت سنة (٢١هـ) بعد حصار دام أشهرًا ، وقد كانت في محط أنظار ولاة المسلمين في العصرين الأموي والعباسي ، فهي البوابة الشمالية لمصر ، وعرضة للغزوات البحرية على مرّ العصور ، فاعتبروها دار رباط ، فأصلحوا الموانى ، واهتم الولاة ببناء المساجد بها .

وكانت الإسكندرية قبل الفتح الإسلامي من أكبر المراكز الثقافية اليونانية والرومانية ، وظلت الإسكندرية تحتل مركزها الثقافي العالمي طوال العصور الإسلامية ، فقد نبغ فيها العديد من العلماء الذين تعلموا في مدارسها التي بنيت في تلك العصور .

ففي " الطب " نبغ " سعيد بن نوفل وسعيد بن البطريق " وأسهم

البيمارستان الذي بناه صلاح الدين في ازدهار العلوم الطبية ، وفي العصر المملوكي نبغ في الطب " عبد الواحد المغربي " ، وفي الهندسة والفلسفة والعلوم العقلية نبغ " الرشيد بن الزبير الأسواني " و " أبو المكارم ابن عامر بن فتوح " ــ المهندس ــ وفي علم الفلك نبغ " ابن الشاطر الفلكي " .

وكانت الإسكندرية منذ العصر الفاطمي ملتقى علماء المغرب والأندلس والمشرق على السواء ، منهم أبا الحجاج " يوسف بن عبد العزيز بن نادر " والصقلى ، والطرطوشى .

وكانت الدراسة في العلوم الشرعية والعربية على نظام الحلقات العلمية في مساجد وجوامع الإسكندرية قديمًا وحديثًا ، وأشهر مساجدها " جامع العطارين " و " جامع الخضر و " مسجد سليمان " .

أما المدارس ، فأشهرها " المدرسة الخلاصية " ، المنسوبة لعابد بن خلاص ، و " المدرسة النابلسية " بناها الشيخ جمال الدين النابلسي ، و " مدرسة الفخر " لعبد اللطيف التكريتى .

وكانت القاهرة فيما بعد مركز الإشعاع العلمي والفكري الذي يشار إليه بالبنان ، وتهفو إليه القلوب ، فيما نجاح الشيعة الإسماعيلية في الوصول إلى عرش الخلافة ، وإعلان دولتهم في المغرب (٢٩٧هـ) ، بدأت في التوسع ، حتى نجحت في الاستيلاء على مصر (٣٥٧هـ) بقيادة جوهر الصقلي ، ورأى ضرورة إنشاء مدينة جديدة ، لتكون مقرًا للخلافة الفاطمية ، ومركزًا لنشر دعوتهما الدينية بدلاً من الفسطاط والعسكر والقطائع .

وبدأت القاهرة رابعة العواصم الإسلامية المصرية القيام بدور انقلابى في الفكر الديني والثقافي من خلال جامع القاهرة (الجامع الأزهر) الذي فتح في رمضان (٣٦١هـ ــ ٩٧٢م) ، وصار كعبة طلاب العلم بعد ذلك .

وكانت الدراسة بالأزهر قد بدأت بنظام الحلقات ــ قوام الحياة العلمية ــ وعلى منهج نشر ودراسة المذهب الشيعي المذهب الرسمي للدولة ،

وقامت الدولة في عهد العزيز بالله الفاطمي (٣٧٨هـ) باختيار جماعة من الطلاب للدراسة في الأزهر بصفة دائمة ووفق نظام رتيب ، وهذا المشروع العلمي الذي اقترحه الوزير " ابن كلس " لقى استجابة من الخليفة ، وكان يُعد حركة تعليمية ترعاها الدولة بشكل رسمي ، فتختار الطلاب والمعلمين والمنهج وتجرى عليهم الرواتب والأرزاق .

وظل الأزهر مركزًا للثقافة الدينية والدراسات اللغوية والأدبية في القاهرة ، ينافس جوامع مصر والعالم الإسلامي ، يهدف في بدايته دراسة العلوم والمبادىء العامة للفقه الشيعي ، ويتطور الأزهر فيما بعد ليكون النبراس الذي ينشر المذهب السني ويصبح جامعًا وجامعة وقبلة طلاب العلم في القاهرة من شتى بقاع العالم ، ويغدو مركزًا عالميًا ، يعشقه العلماء والطلاب من كل مكان حتى الآن ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها .

٤ ــ الشـــام :

حظيت الشام بحركة علمية دينية تتدارس القرآن ، وتروى الحديث ، وتستنبط الأحكام ، نواتها علماء الصحابة الذين دخلوا الشام عند الفتح وبعده، مركزها جامع دمشق ، من أشهرهم " معاذ بن جبل " ــ الأنصارى الخزرجى ــ من علم الناس بالحلال والحرام ، ومنهم " أبو الدرداء الأنصارى الخزرجى " ، قاضي دمشق عهد معاوية ، و " تميم الدارى " عابد أهل فلسطين ومن عنده علم الكتاب ، غير كثير من علماء الصحابة الذين نزلوا الشام ، وحدثوا عن رسول الله ، وعلموا الناس الإحكام والأخبار والحلال والحرام .

وجاءت بعدهم طبقة من التابعين أخذت عنهم علمهم ، وزادت فيه باجتهادهم وفتاويهم ، مثل " عبد الرحمن بن غنم الأشعري " ، ومثل " كعب الأحبار " ، الذي خرج إلى الشام ، وسكن حمص ، وملأ الشام وغيرها من البلدان الإسلامية برواياته وقصصه من علم أهل الكتاب .

وجاءت بعدهم طبقة أخرى ، من أشهرهم " مكحول الدمشقي ، ورجاء بن حيوة " ، من أهل العلم والفتيا والعقل والنبل ، ومنها " عمر بن عبد العزيز " الحنيفة الفقيه المجتهد العالم بالسنة ، يرجع إليه قضاة الأمصار ، ويحض على جمع الحديث ونشره وتعليمه .

ثم تركز علم الشام في الأوزاعى (ت١٥٧هـ) ، كما تركز علم الحجاز في " مالك " وعلم العراق في " أبى حنيفة " وعلم مصر في " الليث بن سعد " .

وكان للإمام الأوزاعى مذهب في الفقه كمذهب مالك وأبى حنيفة يميل إلى مدرسة الحديث ، وعمل أهل الشام بمذهبه حينًا ، وانتشر بالأندلس لرحلة الشاميين المعتنقين مذهبه إلى الأندلس ، ثم حل محل الأوزاعى مذهب الشافعي في الشام ومذهب مالك في الأندلس .

وكانت هذه الحركة الدينية في الشام قوية وواسعة وإلى هذه الحركة الدينية كان هناك حركة أخرى أدبية ، نواتها العرب الذين نزلوا الشام ، وهي حركة من مصر والشعر كانت أقوى في الشام عن مصر ، فشعراء الشام أكثر عدد وأغرز قولا ذلك لقرب الشام من بلاد الحجاز ، ووفود نوابغ الشعراء إلى بلاد الشام ومصر " الأعشى وحسان ابن ثابت " .

ولما جاء العهد الأموي كانت " دمشق " حاضرة الدولة الإسلامية وكان حينئذ الأمويون والأمراء الأمويون عربًا خلصًا في دمهم وذوقهم ، أحب شيء إليهم أن يتسامروا بأحاديث العرب وأيامهم وأخبارهم ، وأن يسمعوا الشعر من شعر لهم ومن وفد عليهم ، ثم كانت بالشام الأحزاب السياسية وشعراؤها ، كل ينصر حزبه بالشعر ، فجعل ذلك الزعامة الشعرية في العصر الأموي للشاميين أصلاً أو موطنًا أو وفادة ، فالشام ساحة " جرير والفرزدق والأخطل والأحوص " وغيرهم .

وكانت دمشق قد فتحت سنة (١٤هـ) ، وكان عليها معاوية بن أبى

سفيان ، واتخذها الخلفاء الأمويين عاصمة لهم ، فعرفت عصرها الذهبي ، ابتداء من عهد الخليفة " معاوية " ، ومن أهم معالمها في العصر الإسلامي " الجامع الأموي الكبير " ، الذي بنى في العصر الأموي ، وله باع طويل في الحركة الفكرية الإسلامية خلال العصر الإسلامي .

ولما جاء العصر العباسي تحولت الزعامة الأدبية من الشام إلى العراق تبعًا لتحول الحاضرة من دمشق إلى بغداد ، فكان مسلم بن الوليد ، وأبو العتاهية ، ومروان ابن أبى حفصة ، وأبو نواس ، وغيرهم عراقيين لا يدانيهم في شعرهم ـــ في عصرهم ـــ شامي ولا مصري ، ولم يكن للعراق في هذا الباب نظير .

٥ ـــ شمال إفريقيا

انطلقت الجيوش الإسلامية ـــ عقب الفتح الإسلامي لمصر ـــ تجاه بلاد المغرب ، لترفع راية الإسلام ، وتنتشر الدعوة الإسلامية ، تُنشأ المساجد وتؤسس المدن الكبيرة ، وأشهر المراكز الإسلامية في هذه البلاد كانت مدينة " القيروان " ، وهي أول مدينة إسلامية في المغرب العربي ، أسسها عقبة بن نافع سنة (٤٩هـــ ـــ ٦٦٩م) حين غزوه أفريقيا .

وعلى امتداد تاريخها ، ذاع صيتها ، وكثرت مبانيها ، وازدهرت أسواقها ، وامتد إشعاعها إلى جميع الأركان .

ومن أهم معالم القيروان " مسجد القيروان " أول جامع في شمال إفريقيا عهد عقبة بن نافع ، وغدت القيروان مركزًا سياسيًا وعسكريًا وثقافيًا من هذا الحين ، فكانت تخرج منها الجيوش الإسلامية للفتح وفيها العدة والعتاد ، وصارت منبعًا للدين يلجأ إليها البربر لاعتناق الإسلام ودراسة تعاليمه على أيدي الصحابة والعلماء والفقهاء ، وصارت المدينة عاصمة الإسلام في المغرب ، ومركزًا من مراكز الفكر والحضارة الإسلامية .

وكانت الحياة في القيروان عملية تربوية تعليمية ترتبط بحياة العلماء

وتستوي قائمة فتمتد فروعها ، وتتشابك أغصانها ، وتتفتح أزهارها ، فتملأ الجو بالأريج والشذى بما يعود على الحياة عمومًا بالتقدم والازدهار .

وابتدأت الحياة الفكرية في القيروان بالعلوم الدينية ، على قمتها تعليم القرآن والحديث والفقه والتفسير التي قدم بها صحابة النبي ﷺ ومن تبعهم ، وذكر المؤرخون أن إفريقيا دخلها تسعة وعشرون أو ثلاثون صحابيًا من صحابة رسول الله ﷺ خلال فترة فتحهم لإفريقيا ، منهم من شهد العقبة ، ومنهم من شهد بدرًا ، وما بعدها من المشاهد ومنهم من شاهد بيعة الرضوان وصلى إلى القبلتين ، وممن تولى غرس بذور الحياة الفكرية من تابعي الصحابة " أبو عبد الله محمد بن أوس الأنصاري " ـ الفقيه الصالح المحيط بالرواية والدراية ـ ، و " حنش الصغانى " روى عن عدد من الصحابة ، و " على بن رباح اللخمى " محدث ومجاهد في سبيل الله ، و " أبو أيوب سليمان بن يسار " (ت٩٤هـ) محدث المدينة وفقيهها ، أقام في إفريقيا بعد أن قدم غازيًا ، ثم عاد للمدينة حتى وفاته .

وقد علم هؤلاء وغيرهم أهل القيروان كتاب الله وسنة رسوله ، وما يعلمونه من فقه في الدين وتفسير كتاب الله تعالى ، وكانت أخلاقهم وسيرتهم وحياتهم أسوة كريمة يقتدى بها أهل القيروان في السلوك والأخلاق .

ومن أولئك الصحابة والتابعين تلقى ناشئة العرب " المولدون " وأبناء الأفارقة والبربر الذين شرح الله قلوبهم للإسلام ، والقرآن والسنة والتعاليم الدينية ، والتمسك بالحق والجهر به .

وعندما تولى الخليفة " عمر بن عبد العزيز " (ت١٠١هـ) ، والخلافة اختار عشرة من فقهاء التابعين من أهل العلم والفضل ، وألقى على عاتقهم مهمة القيام بنشر تعاليم الإسلام ، وتثقيف المسلمين في إفريقيا ، فقدمت بعثة الفقهاء إلى القيروان واستقرت فيها ، وكان لكل واحد منهم جهود موفقة ذات أثر عميق في تثقيف المسلمين ، كانت مقدمات لبزوغ فجر الحركة الفكرية

في العلوم الدينية في مدينة القيروان ، وكان المقر الرئيسي لهم مدينة " القيروان " ، حيث بنى كل منهم دارًا ومسجدًا وكتابًا أو مدرسة صغيرة ، ففي الكتاب يكون تعليم الصغار للقرآن ، فإذا ما كبروا ، كان حضورهم لحلقة العلم في المسجد ، حيث يتلقون الحديث والأحكام الفقهية والتفسير وسيرة الرسول وغزواته .

ومن هؤلاء الفقهاء العشرة : " إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر المخزومى " ــ رئيس البعثة ــ كان مثالاً للزهد والتواضع والتقشف مجاهدًا في دعوة البربر للإسلام توفي بالقيروان سنة (١٣٢هــ) ، و " إسماعيل بن عبيد الله الأنصاري " (تاجر الله) من أهل الفضل والعبادة والنسك والزهد والتقشف ، جعل ثلث ماله لله تعالى للصرف في وجوه الخير ، وبنى مسجد كبير بالقيروان يعرف بمسجد الزيتونة ، يعمره بالتعليم والعبادة (ت١٠٧هــ)، مات في غزوة عطاء إلى صقلية وهو معانق للمصحف .

وإذا تأملنا هذه البعثة العلمية في القيروان نلاحظ أنها من أبناء المهاجرين والأنصار من العرب والعجم ، جمع بينهم الإسلام ، والعمل على نشره ، فكانوا أساتذة الحركة الفكرية للقيروان ، وظلوا في القيروان يوقدون مشاعل الفكر والهداية حتى أدركتهم الوفاة ، وبوجودهم انتشرت في القيروان المساجد والمدارس الصغيرة ، لتعليم الناس ، وشاع تعلم القرآن والحديث والفقه والتفسير ، واتبع الناس التعاليم والآداب الشرعية ، وصارت القيروان بفضلهم قبلة البربر لمعرفة الإسلام وأحكامه وآدابه ، فصاروا دعاة لقبائلهم .

ثم إن هذه البعثة صارت مصابيح الظلام في القيروان ، والمعلمين الأوائل لنشر علوم الشريعة ، وقد قاد نور الهداية والحركة الفكرية بعد ذلك تلامذتهم من أبناء القيروان ، الذين رحلوا إلى المشرق لأجل الاستزادة من علوم الشريعة ، ثم عادوا ليكونوا فقهاء وعلماء بلادهم ، وامتدادًا لبعثة الفقهاء خلال فترة حكم الولاة ، وإيذانًا ببزوغ فجر ازدهار الحركة الفكرية

في القيروان ، ومن أشهرهم : " عبد الرحمن بن زياد المعافرى القاضي " (ت ق ٢هـ) ، " عبد الله بن فروخ الفارسي " (ت ق ٢هـ) ، " البهلول بن راشد الرعينى الفقيه الزاهد " (ق ٢هـ) ، " عبد الله بن عمر بن غانم الرعينى القاضي " (ق ٢هـ) ، وبذلك أصبحت القيروان مستعدة لاستقبال ازدهار الحركة الفكرية في مجال الحديث والتفسير والفقه التي قام بها تلاميذ هؤلاء العلماء الأعلام ، مع حرصهم على الرحلة والاستزادة من العلم .

وقد كانت القيروان منذ تأسيسها مدينة عربية إسلامية لحمًا ودمًا وسكنًا ثم خالطهم وساكنهم من دخل الإسلام واعتنقه وأخذ عنهم العربية ، فتحدث من سكن القيروان بهذه اللغة ، وقد أقبل البربر على هذا الدين وتلك اللغة بعد اعتناقهم هذا الدين كثمرة للجد والنشاط من دعاة الإسلام ، فكانت العربية لهم لسانًا ضاربين بلغة البربر – لغتهم – صفحًا ، فكانت هذه العوامل التي جعلت القيروان تنمو منزلتها مبكرًا في مجال الفكر والأدب واللغة .

ولم يقتصر النشاط الفكري في مجال العلوم الدينية والأدب وعلوم اللغة، بل تناول العلوم العقلية في علم العقائد والمذاهب الكلامية وأهم هذه المذاهب وأكثرها انتشارًا وأنصارًا ، ومثلت الغالبية العظمى من سكان القيروان " أهل السنة " وفي حدود ضيقة " المعتزلة والمرجئة " والخوارج (صفرية وإباضية) .

ومن هذا العرض يتبين أن القيروان من المراكز الفكرية والحضارية ، التي قصدها العلماء والطلاب والأدباء والشعراء ، وكان لها أثر كبير في نشر العلوم الدينية والعربية والعقلية ، مما جعلها في عداد البلاد التي حملت راية الفكر الإسلامي ونشره خلال العصر الإسلامي .

٦ – بلاد المشرق الإسلامي :

اتجهت الفتوحات الإسلامية على امتداد حركة الجهاد الإسلامي شمالاً وغربًا وشرقًا ، فأخضعت البلاد تحت راية الإسلام ، فتحت الباب واسعًا أمام

الشعوب للتعرف على الفكر الإسلامي من جميع جوانبه ، فدخل من هذه الشعوب الجديدة الكثير في دين الله تعالى ، منهم من حمل لواء نشره والتبليغ عنه ، والنبوغ في معارفه وعلومه ، ومن هذه البلاد : " بخارى " ، وهي تقع في آسيا الوسطي (في جمهورية أوزبكستان) ، إحدى مدن بلاد ما وراء النهر فتحت سنة (٨٩هـ) على يد الفاتح المسلم " قتيبة بن مسلم الباهلى " وبنى فيها أول مسجد جامع سنة (٩٤هـ) ، ومن أعلام بخارى الإمام " إسحاق بن راهويه " والإمام " البخاري " العالم البارز الذي تُعرف به مدينة بخارى ، رحل لطلب الحديث وكتب صحيح الجامع ، وتوفى بإحدى مدن سمر قند سنة (٢٥٦هـ) .

ومن هذه البلاد أيضًا : " خوارزم " ، من بلاد ما وراء النهر ، فتحها " قتيبة بن مسلم " سنة (٣٩هـ) ، واحتلت مكانة كبرى في عصر الدولة السلجوقية إبَّان عهد السلطان سنقر ، وفيها معالم باقية من المآذن والجوامع والمدارس ، ومن أهم أعلامها " الخوارزمي " ـ مؤسس علم الجبر ـ ونبغ في علم الفلك والجغرافيا ، توفى سنة (٢٣٥هـ) .

ومنها مدينة " كابل " في شرق وسط الإقليم الأفغاني ، ومن المراكز التجارية لطرق المواصلات ، فتحت عهد الخليفة الأموي " الوليد بن عبد الملك " ، وتتابع على حكمها ولاة من الدولة الأموية والعباسية ، واستقل بها في ظلال الدولة العباسية دويلات مختلفة مثل " السامانية ، وبنو بويه ، الغزنوية ، الخوارزمية والصفارية " ، وبها المآذن والقلاع والمتاحف والمساجد ، ومن أعلامها " الإمام الفقيه أبو حنيفة النعمان " الإمام الأعظم ، رحل لطلب العلم وتوفى ببغداد ، والإمام " عبد الله الهروى " إمام التفسير الثقة ، ومن الأطباء " الشيخ ابن سينا ، وأبو منصور الهروى " ، ومن المؤرخين والجغرافيين " أبو الريحان البيروني ، والنضر بن عبد الجبار ، وأبو زيد البلخى " ومن علماء اللغة والأدب والنحو " أبو عمرو الهروى " .

وتُعد مدينة " نيسابور " من أهم مدن إقليم خراسان ، في أقصى الشمال الشرقي ـــ تقع حاليًا في إيران بين طهران ومشهد ـــ كانت مدينة عظيمة ، ذات فضائل ، معدن الفضلاء ، ومنبع العلماء ، ذات تاريخ وفكر وحضارة منذ دخلها الإسلام سنة (٣١هـ) ، أيام الخليفة الراشد " عثمان بن عفان " ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت المدينة من مدن الحضارة الإسلامية ، تعاقب عليها الولاة والأمراء في العصرين الأموي والعباسي .

وكانت نيسابور من المراكز الحضارية العلمية الإسلامية في المشرق الإسلامي ، خرج منها الكثير من الأئمة والعلماء ، منهم " الحافظ الإمام المحدث أبو علي النيسابورى " و " أبو القاسم القشيرى " صاحب الرسالة القشيرية في التصوف ، والشاعر المعروف " عمر الخيام " .

ومن أشهر أعلام هذه المدينة الإمام الجوينى " إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجوينى الشافعي " ، وهو أحد العلماء البارزين، جار في مكة والمدينة وأفتى ودرس ، وبنى له الوزير " نظام الملك " مدرسة في نيسابور ، فيسمع منه الطلاب وأكابر العلماء ، ومن تلاميذه " الإمام المشهور أبو حامد الغزالي " وكان الإمام الجوينى من علماء أصول الفقه والعقيدة ، ولها في ذلك كتاب " البرهان " ، وتوفى بنيسابور سنة (٤٧٨هـ) .

ومن أعلامها " أبو بكر الخوارزمي النيسابورى (ت٣٨٣هـ) الشاعر المشهور ، إمام اللغة والأدب والأنساب ، وتوفى بنيسابور ، وغير هؤلاء العلماء الفضلاء ممن كان لهم الفضل لا ينكر في نشر الفكر وإثراء حركة الفكر الإسلامي في تلك البلاد بالمشرق الإسلامي .

٧ ـــ بلاد الأندلس :

يُعطى الاستقراء العام لحال بلاد الأندلس قبل الفتح الإسلامي أن هذه البلاد لم تكن بحال يسمح لها القيام بدور حضاري في ظل حكام من العناصر

الغازية التي أسهمت في انزواء الحضارة الرومانية من غرب أوربا ، كما أن طوائف الشعب هي الأخرى لم تكن صالحة لأداء هذا الدور الحضاري وهي ترزح تحت وطأة العسف والظلم الاجتماعي .

لكن الأقدار كانت تدخر للشعب الأندلسي دورًا هامًا في التاريخ الإنساني في ظل الحكم الإسلامي ، الذي تحولت به هذه البلاد إلى واحد من أهم مراكز الحضارة الإسلامية التي كان لها الفضل في إخراج أوربا من ظلام العصور الوسطي .

وتحت زعامة " عبد الرحمن الداخل " وتأسيسه الدولة الأموية بهذا الإقليم ، وحدها تحت زعامة سياسة واحدة ، وبدأت تظهر فيها ملامح الحضارة الإسلامية القوية الناشئة ، وقد رحلت إلى الأندلس عناصر من أمراء البيت الأموي وأتباعهم من مختلف بلاد المشرق ، مما كان سببًا في نهوض الأندلس في مختلف الحياة ، خاصة الناحية الفكرية ، فقد كانت هذه الجموع تضم الكثير من علماء المشرق الذين آثروا المقام في بلاد الأندلس ، وأخذت قرطبة من هذه الحقبة تشق طريقها في مجال الفكر الإسلامي ، وتمضي في هذا الطريق كواحدة من أهم مراكز الفكر والعلم في الحضارة الإسلامية .

وقد عنى " الناصر " بالناحية العلمية التي ازدهرت على عهده ، إضافة لما بذله ــ بعد ذلك ــ ابنه " الحكم المستنصر " من عناية تقدمت بها مجالات البحث في علوم الدين واللغة والأدب والفلسفة والطب والفلك وغيرها من العلوم التي ظهر فيها النوابغ من علماء المسلمين ، الذين صارت مؤلفاتهم عمدة الأجيال اللاحقة .

وأحرزت قرطبة في ظل الحكم الإسلامي تقدماً وسبقاً حضارياً في مجال العلوم ، وكانت جامعاتها مقصد طلاب العلم من مختلف دول أوربا مثل " ألمانيا وانجلترا وفرنسا وإيطاليا " ، وذلك بالتقدم المذهل الذي حققته

حركة النشاط العلمي في الأندلس في مختلف المجالات ، وساعدت سياسة التسامح الإسلامي على تتلمذ أبناء أوربا على يد علماء المسلمين في قرطبة ، ومن أشهر تلاميذ أوربا " جربرت " الذي أصبح فيما بعد سنة (٩٩٩م) بابا روما ، وقد أبهر بعلومه معاصريه ، وهى المعارف التي تلقاها على أيدي المسلمين ، كما حرص ملوك وأمراء أوربا على إيفاد بعثات إلى أسبانيا الإسلامية ، للوقوف على حضارتها ، وتثقيف أولادهم بثقافة المسلمين .

وقد ظل الحرص على الإفادة من التراث الفكري الإسلامي في الأندلس حتى بعد زوال السلطان الإسلامي منها ، وتحولت مدينة "طليطلة" منذ سقوطها في أيدي المسيحيين سنة (١٠٨٥م) من مراكز الترجمة الهامة لنقل وترجمة التراث الإسلامي إلى اللغة اللاتينية ، في علوم الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والمنطق والفلسفة وغير ذلك من العلوم .

ووضع " الفونسو الخامس " ـ الملقب بالحكيم ـ (١٢٨٤م) العلوم والثقافات العربية خاصة الفلسفة والكيمياء والفلك في مدينة " طليطلة " تحت متناول أيدي الراغبين في العلم من الأوربيين ، كما أحاط نفسه بكبار العلماء من المسلمين واليهود .

ولو تتبعنا أسباب التقدم في أوربا في عصرها الحديث والمعاصر ، لوجدنا أنها تنبع من الثقافة الإسلامية التي تتلمذ الأوربيون عليها ، وكانت أسبانيا من أهم معابر هذه الثقافة ، ويقول المؤرخ " رينو " : " إن النهضة الأوربية الحقيقية إنما بدأت منذ القرن الثاني عشر حين أفاق الفرنسيون والألمان والإنجليز من رقدتهم ، وأخذوا يأمون أسبانيا لترجمة الكتب العربية".

٨ ـ جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا :

تقع هذه الجزيرة في البحر الأبيض المتوسط ، وتتوسط الطريق البحري بين أوربا وأفريقيا ، ولعبت دورًا هامًا في توجيه السياسة الرومانية

والبيزنطية التي هدفت إلى تحقيق السيادة على جنوب أوربا وشمال أفريقيا ، وكانت تمثل القاعدة التي ينطلق منها الأسطول البيزنطي على المسلمين في شمال أفريقيا ، وكانت في نهاية القرن السابع الميلادي من أهم الثغور في الدفاع عن الجناح الغربي للإمبراطورية البيزنطية .

ولم يكن المجتمع الصقلي في ظل الحكم البيزنطي سعيدًا مكفول الحرية، وكانت حياته في ظل الظلم والعسف نوعًا من العذاب ، حتى اختفى فيها كل شعور بالإنسانية ، وبلغت درجة كبيرة من التخلف والانحطاط .

وفي ظل هذه الأوضاع فتح المسلمون صقلية كدافع من دوافع الأمن الذي حتمه الاستقرار الإسلامي في شمال أفريقيا ، وكان هذا الفتح يمثل حلقة من حلقات الصراع مع البيزنطيين ، واستغرقت أعمال الفتح من سنة (٢١٢ـــ ٢١٧هـــ) ، عهد دولة الأغالبة ، ثم دخلت تحت الحكم الفاطمي سنة (٣٣٦هـــ) شهدت خللها الجزيرة ـــ عهد أسرة بني الحسيني ـــ تقدمًا واسعًا في الحياة العمرانية والعلوم والآداب .

وفي خلال العصر الإسلامي انتعشت ثروة الجزيرة وارتقت المعيشة فيها في مختلف مظاهر الحياة ، فنشطت الحركة العمرانية ، وأنشئت القصور والمساجد الكثيرة ، وكانت هذه المساجد عماد الحركة العلمية التي نشطت بالجزيرة في مختلف فروع العلم ، واقترن بكثرة المساجد كثرة المعلمين التي أشار إليها ابن حوقل في حديثه عن " بالرمو " ، ويسر المسلمون مهمة نشر التعليم بمختلف الوسائل ، حتى أنهم أعفوا المعلمين من الجهاد والغزو للتفرغ في أداء دور التعليم وتوجيه الرأي العام في الدين والدنيا على ضوابط الشرع الإسلامي .

وازدهرت في صقلية الدراسة في مختلف العلوم الدينية والعربية كعلوم القرآن والحديث والفقه وعلوم اللغة وغيرها من العلوم التي تمثل عماد الفكر الإسلامي ، كما نشطت فيها الدراسات الفلسفية ، وأنشأ المسلمون في "

بالرمو " أول مدرسة للطب ، مما ساعد على تقدم هذا الفرع من العوم ، وظهور بعض الأطباء الصقليين الذين كان لهم شأن في البلاط الفاطمي بمصر وبلاط الأمويين بالأندلس ، ومن صقلية انتشر الطب في بلاد إيطاليا .

وقد ظل دور المسلمين واضحًا وقويًا في توجيه جوانب الحياة المختلفة في صقلية حتى بعد زوال سلطانهم السياسي على هذه الجزيرة ، على أيدي ملوك النورمان الذين استولوا على صقلية من أيدي المسلمين ، وقد بالغ ملوك النورمان في التقرب من المسلمين فاتخذوا منهم أعوانًا في شئون الحكم وقدموا العلماء منهم ، مما ساعد على استمرار الدور الذي قاموا به في نشر الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي بالجزيرة ، ومن العلماء الذين علا شأنهم في بلاط النورمانديين " الشريف الأدريسي " ، أعظم الجغرافيين ، وأشهر رسامي الخرائط في العصور الوسطي المظلمة الوربية ، وقد علا شأن الأدريسي في بلاط الملك " روجر الثاني " (١١٣٠ ــ ١١٥٤م) .

وقد كانت اللغة العربية إحدى اللغات التي كُتبت بها مراسيم الدولة في العصر النورماندى ، كما كانت النقود تسك بالعربية في وجه واحد منها ، وكان " روجر الثاني " يرتدى الملابس العربية ، وكانت شواهد قبور النصاري تكتب بالعربية ، مما يدل على تمكن اللغة العربية في الجزيرة حتى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادي .

وكانت صقلية تزخر بالتراث الفكري الذي حققه المسلمون في مختلف فروع المعرفة خلال الحكم الإسلامي ، الذي امتد حوالي ثلاثة قرون ، وأضافوا إليه في ظل الحكم النورماندى ما أدى إلى وجود الكثرة الكاثرة من المؤلفات التي حوتها خزائن الكتب بصقلية وجنوب إيطاليا ، وتحت رعاية النورمانديين أقبل علماء وطلاب العلم من أوربا للإفادة من هذا التراث الفكري والعلمي وكان بلاط الملك " فريدريك الثاني " (١٢٢٥ــ ١٢٥٠م) غاصًا بعلماء أوربا ، يراجعون ويطالعون مؤلفات الطب والفلك والرياضيات

والهندسة ومختلف العلوم التي ازدهرت بجهود المسلمين في صقلية .

وقد انبعث شعاع الحضارة والفكر الإسلامي من صقلية إلى أجزاء واسعة من إيطاليا خاصة في الجنوب ، ووصل إلى القرب من روما العاصمة تحت عجلة الفتح الإسلامي ، وكان اتساع هذا النفوذ في هذه المناطق من العوامل الأساسية لانتشار النفوذ الثقافي الذي ظل نحوًا من ثلاثة قرون تأصلت فيها حركة الفكر الإسلامي وازدهرت حضارته ، حتى استعرب أهل الجنوب إيطاليا ، وتكلموا بالعربية ، حتى انتقل هذا التأثير الحضاري من الجنوب إلى الوسط والشمال .

وقد ظل التأثير الفكري للمسلمين في هذه المناطق حتى زوال الحكم الإسلامي ، كما ازدادت مع الأيام تأثيرات هذا النفوذ ، وصارت إيطاليا مع صقلية مركزًا هامًا من مراكز الفكر والحضارة الإسلامية ، ومعبرًا من أهم المعابر الفكرية والحضارية التي عبرت منها هذه الحضارة إلى أوربا .(١)

---

(١) عن مراكز الفكر والعلم عند المسلمين ينظر بالتفصيل كتاب " محاضرات في مراكز الحضارة الإسلامية " للدكتور طه عبد العزيز الخطيب وعبد المعز فضل عبد الرازق (صفحات متفرقة) ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م ، وللمزيد ينظر فيما يرتبط بهذا الموضوع في مراجعه ومصادره منها : البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، البلاذري : فتوح البلدان ، السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج ١ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، د / إبراهيم العدوى : مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام ، أحمد أمين : فجر الإسلام، وضحى الإسلام ، آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، استانلي بول : العرب في أسبانيا ، حسن الرزاز: عواصم مصر الإسلامية ، حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، د / محمد محمد زيتون: القيروان ودورها الحضاري في الحضارة الإسلامية ، د / محمد المنسي عاصي : تاريخ المغرب والأندلس ، ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، د / علي محمد الصلابي : صفحات متفرقة من التاريخ الإسلامي ، ج ١، ٢ .

أثر الحركة الفكرية الإسلامية على الحضارة الأوربية :

لم يقتصر فضل الحضارة الإسلامية على تهذيب التراث الحضاري القديم ، والإضافة إليه ، بل أسهمت كذلك بأبحاثها ودراستها في وضع الحجر الأساسي للحضارة الحديثة ، وانتشرت أضواء الحضارة الإسلامية إلى أوربا من ثلاث مراكز رئيسية كبرى هي :

ــ الشرق الإسلامي زمن الحروب الصليبية ..

ــ الأندلس زمن الخلافة الأموية ..

ــ ثم صقلية حيث نشأت دولة إسلامية ظلت حضارتها قائمة بين الصقليين زمناً طويلاً .

فقد أقام المسلمون في الأندلس جامعات زاهرة قصدها طلاب العلم من أوربا ، ونشر هؤلاء الطلاب في بلادهم ما تعلموه من المسلمين ، وانتفع الأوربيون بدور الكتب الكثيرة التي كانت منتشرة في أسبانيا ، مما ساعد على إحياء العلوم في أوربا فيما بعد .

وكانت صقلية المركز الثاني لنشر الثقافة الإسلامية في أوربا زهاء (١٣٠) سنة وكان الملوك النصارى يشجعون علماء المسلمين على الانتاج العلمي ، ويدفعون رعاياهم إلى ترجمة الكتب العربية .

وكان الشرق الإسلامي زمن الحروب الصليبية ، وحج النصارى إلى بيت المقدس مدعاة لاختلاط الأوربيين بالمسلمين ، فنقلوا الكثير من العلوم الإسلامية ومعارفهم وفنونهم وصناعتهم وحصلوا على كثير من الكتب العربية ، فساعد ذلك على ظهور روح البحث ، ودراسة علوم الأقدمين وآدابهم وفنونهم .

وحينما استيقظت أوربا من سباتها على ضوء الحضارة الإسلامية ، وسنا برقها اتجهت إلى هذه الحضارة الشامخة التي بهرتها ، تنهل منها

وتروى ظمأها ، ظلت هكذا حتى ارتوت ، وسارت في طريق العلم والعرفان، إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه الآن .

وقد أسهمت الحضارة الإسلامية في وضع أساس الحضارات الحديثة بنصيب موفور ، وفضلها عليها واضح غير منكور، وأحدثت ثورة علمية عم خيرها العالم الإنساني كله ، واعترف بذلك كثير من المنصفين الأوربيين .

ففي مجال الطب ظل كتاب " الحاوي " للرازي ، المرجع الوحيد المعترف به في كل جامعات أوربا حتى القرن السابع عشر ، وحقق المسلمون أعظم تقدم علمي في مجال " البصريات " ، واعتمد " روجربيكون" في دراسته لهذا الموضوع على رسالة الكندي .

ويعتبر " جابر بن حيان " مؤسس علم الكيمياء ، وكانت أبحاثه ومعلوماته هي المراجع الأولى في أوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادي وجعل المسلمون " الجبر " علمًا حقيقيًا ، وتقدموا به تقدمًا كبيرًا ، كما أسسوا علم الهندسة التحليلية وحساب المثلثات الذي لم يكن معروفًا عند اليونانيين .

وفي الفلك توصل المسلمون لنتائج قيمة ، وقالوا بنظرية كروية الأرض التي أخذها عنهم من جاء بعدهم في العصور الوسطي المظلمة الأوربية .

ومن أهم المراجع التي اعتمدت عليها أوربا إبَّان نهضتها العلمية تلك التي كتبها الرئيس " ابن سينا " في علم " طبقات الأرض " من حيث تكوين الجبال والأحجار والمواد المعدنية [١].

وفي علم " الاجتماع " يُعتبر " ابن خلدون " أول مفكر اجتماع ، فهو أول من صاغ قوانين تقدم الأمم وانهيارها ، وعرف للعوامل الطبيعية والجغرافية والمناخية تأثرها وأهميتها في ذلك .

والغرب مدين للمسلمين أيضًا بإدخال الكثير من الاصطلاحات والآلات

---

(١) انظر ما كتب عن ذلك بتوسع في الفصل السابع .

الموسيقية ، وتفوق المسلمون كثيرًا في الفن والنقش وأشغال الذهب والفضة والآنية ، وعنهم أخذت اوربا ، كما تأثرت الفنون المعمارية في الغرب بعناصر الفن الإسلامي .

وفي " الفلسفة " يُعد ما قام به الفلاسفة المسلمون من أعظم ما أمدت به الثقافة الإسلامية للفكر الأوربي ، فقد نقلوا فلسفة اليونان ، وبعثوها من جديد، خاصة مؤلفات أرسطو ، وكانت جامعة باريس لا تعترف بآراء أرسطو إلا على الوجه الذي تحدده تفسيرات ابن رشد حتى القرن الرابع عشر الميلادي.

وكان للأدب العربي أثره في النثر الأوربي ، فقد دون العرب الكثير من القصص والمغامرات التي تشتمل على الخيال الواسع والابداع ، ولا تزال اللغة الأسبانية حافلة بقصص كثيرة من آداب العرب ، إضافة إلى الروايات والقصص الأدبية التي أخذت تزدهر في أوربا الغربية قاطبة خلال القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد نقلت حكايات " كليلة ودمنة " للأسبانية برعاية الفونسو العاشر الحكيم ملك قشتالة وليون (١٢٥٢م ــ ١٢٨٢م) .

وفي علم " الحيوان " كانت كتب " الحيوان " للجاحظ ، وهو موسوعة شاملة تناول فيها أمورًا عديدة تختص بالحيوان ، " حياة الحيوان " للدميري ، وغيرهما ــ كانت ــ مصدرًا من مصادر معارف عن النبات والحيوان .

وكان للمسلمين الفضل في إحداث نهضة رياضية شاملة عندما استخدموا " الصفر " في العمليات الرياضية ، فلم يعرف الغرب استعمال الصفر عن طريق العرب في القرن الثاني عشر للميلاد ، وفي علوم "الطبيعة" ، استقت أوربا معارفها مما ذهب إليه المسلمون من معرفة قانون الجاذبية ، فالخازن البصري يذكر أن قوة التثاقل تتجه دائما إلى مركز الأرض ، وعرف بذلك علماء الإسلام قانون الجاذبية قبل " نيوتن " بزمن بعيد ، بل إن نيوتن توصل إلى نظريته من خلال معارف العرب ، ومن ابتكارات علماء الإسلام أيضًا في العلوم الطبيعية اختراع " ابن يونس المصري " للخطار ، أو بندول الساعة " واعتراف علماء الغرب بذلك ،

أمثال سيديو ، وسارطون ، وغيرهم [١].

إن فضل الحضارة الإسلامية بمعارفها وعلومها على الحضارة الحديثة حقيقة لا تنكر ، اعترف بذلك كثير من المنصفين الأوربيين ، فيقول المؤرخ الإنجليزى "ويلز" :

"وكل دين لا يسير مع المدنية فى كل أطوارها فاضرب به عرض الحائط ، وإن الدين الحق الذى وجدته يسير مع المدنية أينما سارت هو الإسلام .. ومن أراد الدليل فليقرأ القرآن وما فيه من نظريات ومناهج علمية، وقوانين اجتماعية ، فهو كتاب دين وعلم واجتماع وخلق وتاريخ ، وإذ طُلبَ منى أن أحدّد معنى الإسلام فإنة أحدده بهذه العبارة (الإسلام هو المدنية) .

ويقول " سيديو " : " كان المسلمون في القرون الوسطي منفردين في العلم والفلسفة والفنون ، وقد نشروها أينما حلت أقدامهم ، وتسربت منهم إلى أوربا ، فكانوا هم سببًا في نهضتها وارتقائها " .

ويشير " جب " بقوله : " إن خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوربا أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربي في شعراء العصور الوسطي ... إن هذه الظاهرة حدثت نتيجة للاقتباس من الأدب العربي الذي امتاز بالرومانتيكية البالغة في أغراضه المتعددة " .

ويقول " فليب حتى " عن اللغة العربية كلغة للثقافة الراقية والعلم : " كانت الشعوب العربية اللسان في مقدمة من حمل مشاغل الثقافة والمدنية في العالم قاطبة ، وبواسطة جهود هذه الشعوب تسنى لعلوم الأقدمين وفلسفتهم أن تعود إلى أوربا مشروحة ومضافاً إليها ، فسهل هذا السبيل لنشوء عصر النهضة في أوربا الغربية " .

وقال " ألفارو " ــ كاتب نصراني متعصب في القرن التاسع الميلادي

---

(١) انظر الفصل السابع "علم الرياضة" .

ـــ : " وأسفاه !! إن الجيل الناشىء من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدبًا ولا لغة غير الأدب العربي واللغة العربية ، أنهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان ، ويبالغون في الثناء على نفائس الكتب العربية ، في حين يأنفون من الرجوع إلى الكتب المسيحية بدعوى أنها لا تستحق الالتفاف ، إن المسيحيين نسوا لغتهم ، فلا تجد منهم اليوم واحدًا في كل ألف يكتب بها خطابًا لصديق ، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب ، وقد ينظمون بها شعرًا يفوق ما ينظمه العرب أنفسهم في الأناقة وصحة الأداء " .

ويقول " كاجوري " ـــ في تقدم العلوم الرياضية ـــ : " إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله المسلمون في الجبر ، فهم أول من أطلق لفظة جبر على العلم المعروف بهذا الاسم ، وعنهم أخذ الأوربيون هذه اللفظة ولا زالت تُستخدم كما هي إلى اليوم ولا شك في أن هذا الجهد العظيم للمسلمين يعود لأحد أعلام الإسلام في هذا الميدان ، وهو " الخوارزمي " الذي يُعد أحد أشهر الأعلام في العلوم الرياضية في الشرق والغرب على حد سواء إبَّان العصور الوسطي ... " .

ومن أهم شهادات علماء الغرب على تفوق المسلمين العلمي ما أقر به " بريفولت " ، عندما قال : " إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين لها بوجوده نفسه ، إن ما ندعوه " العلم الحديث " ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لمنهج التجريب والملاحظة والقياس ، ولتطور العلوم والرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح وتلك المناهج

العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربي " .

وقال المفكر " ليوبولد فايس " : " لسنا نبالغ إذا قلنا إن العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه ، لم يُدشَّن في مدن أوربا ، ولكن في المراكز الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة " (عن محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٤٠) ، وقال " آلبر شامدرور " : " لقد عاش العربي في أرض قاحلة ، تلهب الشمس رمالها ، فأتخذ النجوم دليلاً ، والعلم مرشدًا ،واستطاع أن يجمع علم العالم في أقل من مائة عام ، كما استطاع أن يفتح نصف العالم في أقل من مائة عام أيضًا ، وترك لنا في حمراء غرناطة، آثار علمه ، وآثار مجده وفخاره " (عن استيفن هوكينج : مبادىء السياسة العالمية ، ص ٢٥) ، وقال " غوستاف لوبون " : " إن حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوربية الوحشية في عالم الإنسانية ، فلقد كان العرب أساتذتنا ... وإن جامعات الغرب لم تعرف لها موردًا علميًا سوى حضارة العرب لغو ستاف لوبون ، ص ٢٦ ، ٢٧٦) ، ويقول " براند تراندجون " : " إن قرطبة التي فاقت كل حواجز أوربا مدينةً أثناء القرن العاشر كانت في الحقيقة محط إعجاب العالم ودهشته .. وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينة التي تحوى سبعين مكتبة ، وتسعمائة حمام عمومي ، فإن أدركت الحاجة حكام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جراح أو مهندس أو معماري أو خائط ثياب أو موسيقي فلا يتجهون بمطالبهم إلا إلى قرطبة " ، وقال " سنجر " : "إن طالب العلم الأوربي المشغوف بالعلم ، المتطلع إلى الاستزادة من المعرفة ذاك الذي كانت الدراسة في باريس أو أكسفورد لا ترضيه ، إنما كان يذهب إلى طليطلة أو قرطبة " ، ونختم بشهادة (جون هامان راندال) : "

وسط هذا العالم الذي أخذت رقعته في الاتساع اتجه رجال القرون الوسطي إلى المعرفة العلمية التي وجدوها في مكاتب العرب وجامعاتهم الغنية ، وحين أخذ الغرب يستيقظ في مطلع القرون الوسطي ، انتقل مركز الثقافة الإسلامية بنتيجة فعل المصلحين المسلمين من الخلافة الشرقية إلى أسبانيا ، وعن طريق أسبانيا جاءت أول معرفة بمؤلفات أرسطو مؤلفات العرب ، فهم الذين مّدنوا أوربا مادةً وعقلاً وأخلاقًا ، والتاريخ لا يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه ... إن أوربا مدينة للعرب بحضارتها " (عن الكبيرة ، ولكن المسلمين أنقذوا من العالم القديم شيئًا كان أرسطو بالرغم من عبقريته عاجزًا كل العجز عنه وهو العلم الرياضي والآلي " .(١)

وخاتمة القول أن الفكر الإسلامي بعلومه ومعارفه أنقذ أوربا من الأنحطاط والتخلف في التفكير العلمي ، فقد انتشر فيها ــ خلال العصور الوسطي المظلمة ــ الاعتقاد في الخرافات والمعجزات بين أهالي الغرب الأوربي ، حتى قضي السحر على البقية الباقية من المعرفة العلمية عند الأوربيين .

وقد كان الغرب النصراني آنذاك يئن تحت كابوس ثقيل من الجهل والتأخر والانحطاط العلمي والفني ، فظلت أحوال الشعوب الأوربية حيث هي ، بل ساءت كثيرًا عما كانت عليه أيام الرومان ، والعصر الذي أطلع فيه " الرشيد والمأمون " الشرق على خبايا الفلسفة اليونانية والفارسية وغيرها ، هو العصر نفسه الذي كان فيه " شارلمان " ونبلاؤه في الغرب الأوربي يحاولون أن يتعلموا كيف يكتبون أسماءهم .

---

(١) انظر مفصلاً د / راغب السرجاني : العلم وبناء الأمم ، ص ١٧٩ ــ ١٩٠ ، الطبعة الأولى ، طبع مؤسسة اقرأ ، القاهرة ٢٠٠٧م .

وكانت معظم الانحاء الأوربية ــ وسط وغرب أوربا ــ تكسوها الأحرش والمستنقعات ، وتنشر فيها الأمراض والأوبئة .

وتميزت نظرة رجال الكنيسة بالعداء الصريح للعلم ، وبلغت الهمجية الأوربية مداها خلال القرن التاسع الميلادي على يد عناصر " الفاينكنج " ، مما عرض أوربا لموجة كاسحة من الخراب والتدمير , ولم يظهر في أوربا بعض الميل إلى العلم إلا في نهاية القرن الحادي والثاني عشر للميلاد ، حين ظهر أناس رأوا أن يزنعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم ، فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم .

وفي خلال نهاية القرن الحادي عشر للميلاد بدأت أوربا تفيق من ظلامها ، لتجد أمامها علماء المسلمين يمضون قدمًا وانطلاقًا من دعوة دينهم، في إقامة بنيان حضاري شامخ ، ويضربون أروع الأمثلة في حرية الفكر وتشجيع البحوث العلمية ، حضارة إسلامية لم تترك أدبًا ول علمًا ولا فنًا إلا أسهمت فيه ، وأضافت إليه ، بقسط عظيم ، فكان أن هرع طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء أوربا إلى مراكز الحضارة الإسلامية ، يرتوون من معينها الفياض ، ويترجمون كل ما استطاعوا ترجمته من مؤلفات المسلمين ومصنفاتهم ، ويحاكون كل ما أمكنهم محاكاته من فنون المسلمين وآثارهم ، الأمر الذي ترتب عليه قيام نهضة حضارية شاملة في الغرب ، قامت في لحمتها وسداها على فكر العلوم والفنون والنظم الإسلامية .[١]

---

(١) للمزيد عن أثر الحركة الفكرية الإسلامية على الحضارة الأوربية ، ينظر : د/طه عبد العزيز الخطيب ، د / عبد المعز فضل ــ محاضرات في مراكز الحضارة الإسلامية ، ص ١٩ ، ٢٠ ، ٥٣ ــ ٥٧ ، د / محمد أحمد الشحري: العلوم والفنون وأثرهما في أوربا ، ص ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢١١ ، ٢١٦ ، ص ١٨٦ ــ ١٨٨ ، ولمزيد من التفصيل يراجع : آدم متز : الحضارة الإسلامية=

والحمد لله في الأولى والآخرة [١] .

=في القرن الرابع الهجري ، (ترجمة محمد عبد الهادي) ، استانلي ، لين بول: العرب في أسبانيا (ترجمة على الجارم)، أنور الجندي : الإسلام تاريخ وحضارة ، (عن دار الاعتصام) ، جورج زيدان : أثر الشرق في الغرب ، (مطبعة مصر) ، جوستاف لوبون : حضارة العرب ، (ترجمة عادل زعيتر) ، زيجريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب (عن دار الآفاق)، سعيد عبد الفتاح عاشور : المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية ، عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطي (الأنجلو المصرية) ، الهيئة المصرية : دراسات في الحضارة الإسلامية (ثلاث مجلدات) ، أحمد شوكت :الطب عند العرب ، (القاهرة ، أحمد علي الملا : أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ، (دار الفكر المعاصر بيروت) ، جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ، (الخانكي القاهرة) ، عباس العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية ، (الهيئة المصرية) ، عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ، (دار المعارف) ، عبد الصبور شاهين : العربية لغة العلوم والتقنية ، (دار الاعتصام) ، عز الدين فراج : فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية (القاهرة دار الفكر) ، فيلب حتى : العرب تاريخ موجز (دار العلم بيروت) ، محمود دياب : الطب والأطباء في مختلف العهود الإسلامية ، (الانجلو القاهرة) ، جوزيف شاخت : تراث الإسلام (ترجمةحسين مؤنس ، عالم المعرفة) ، مونتغمري " أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوربا (ترجمة جابر أبى جابر ، دمشق) ، نفيس أحمد : جهود المسلمين في الجغرافيا ، (ترجمة فتحي عثمان ، القاهرة) ...

(١) إلى هنا آخر ما كتب الدكتور / عبد المعز فضل عبد الرازق .

صلة الحضارة والعلوم الإسلامية بالحضارات السابقة (١)

من الثابت أن أهم مرتكزات وأصول العلوم الإسلامية ـ بصفة عامة ـ تكمن في دعوة الإسلام وآيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي ﷺ ، وقد عرضنا في الصفحات السابقة بعضا من الآيات القرآنية التي تدعو إلى طلب العلم ، وهي نظرة لا تجد لها مثيلاً في أي حضارة أخرى .

وقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يأخذ الخلف من السلف ، وذلك لعدم وجود حضارة مستقلة بذاتها ، استغنت عن جهود سابقتها ، فالإنسان لا يمكن أن يقطع الصلة بماضيه وكذلك الشعوب والأمم ، من هنا فإن الحضارة لا تولد من لا شيء ، أو منقطعة الصلة بما سبقها من حضارات . وبناءً على ذلك فإن الحضارة الإسلامية بنظمها وعلومها وفنونها وكل ما أنتجته لم تنشأ مقطوعة الصلة بالعلوم القديمة . إلا أن الإسلام وعلماء المسلمين وضعوا هذه العلوم في إطار من التميز والتقدم الذي من شأنه أن يخدم الإنسان ، وكانت وشيجة الإسلام تحيط بكل هذه العلوم .

كما أن النظرة الواقعية تؤكد على أن الحضارة أخذ وعطاء ، وأنها تبادل التأثير والتأثر وأنها تراكم معارف ، وأن التراث الحضاري الإنساني ملكا للإنسانية كلها ، وأن الحضارات سلسلة من التدرج والتقدم ، تصعد إليها البشرية درجة درجة ، وأنها إشعاع يضيء الدنيا يأخذه اللاحق من السابق .

والحضارة الإسلامية لم تكن كياناً منفصلاً عن الحضارات عليها أو المعاصرة لها ، إلا أنها ـ أي الحضارة الإسلامية ـ تميزت بخصوصيات عديدة لعل أهمها : التسامح ، الذي جعل المسلمين وبناء على عودة الإسلام وحثه لهم على طلب العلم ينهلون من علوم الحضارات الأخرى ، ليس هذا فحسب ! بل عرفوا كيف يتعاملون مع هذه العلوم ويجعلونها في خدمة

---

(١) بقلم الدكتور / محمد أحمد الشحري (العلوم والفنون الإسلامية وأثرهما في تقدم أوربا ، طبع مطبعة الرحمة ، ص ١٩ ـ ٣٣ ، القاهرة ، ٢٠٠٤م .

الإنسانية وأمامهم في ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .[١]

كما أن الحضارة الإسلامية تميزت بأنها كانت منفتحة ولم تعرف الانغلاق والتقوقع ، فهي حضارة للعالمين ، فكان من صحابة رسول الله ﷺ بلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي .

فالدعوة لم تكن محصورة في قوم دون آخرين . وكان نداء الله سبحانه وتعالى للناس جميعًا في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .[٢]

فالتقوى هنا مناط الأمر ، والدعوة الإسلامية لجميع الناس ، فدخل في الإسلام العديد من الأجناس تحت هذه المظلة الإسلامية ، فمنهم الفارسي ، والحبشي ، والرومي ، وغيرهم ، وكل يضيف معارفه إلى ما تعلمه من الإسلام ، طالما أن ذلك يخدم الأمة ولا يتعارض مع الدين .

هذا بالإضافة إلى الإرث العربي القديم الذي حمله العرب معهم بعد إسلامهم ، والذي تمثل في بعض معارفهم القديمة ، التي لا تتعارض مع قيم الإسلام وثوابته ، أضف إلى ذلك ما شهدته جنوب وشمال ووسط الجزيرة العربية من معارف ، فالحضارة المعمارية والمتمثلة في سد مأرب في جنوب الجزيرة تشهد على ذلك ، كما أن النشاط التجاري القديم بين الجزيرة العربية ومختلف الدول المجاورة شاهد آخر على أن العرب لم يكونوا بعيدين عن المؤثرات الخارجية المحيطة بهم ، كما أن شمال الجزيرة العربية شهدت حضارة زاهرة ، بالإضافة للدور المحوري الذي قام به عرب وسط الجزيرة العربية ثم يأتي بعد ذلك الأجناس التي دخلت الإسلام وامتزجت وانصهرت في إطار الإسلام وتعاليمه فكان النتاج الإسلامي في العلوم والمعارف من أعظم ما قدمته الحضارة الإسلامية للإنسانية بأسرها .

---

(١) سورة طه : آية ١١٤ .

(٢) سورة الحجرات : آية ١٣ .

على كل حال فإن الحضارة الإسلامية التي قامت على أسس عديدة منها التسامح ، وإحترام الإنسان وقيمته في الحياة ، وجعلت له هدفًا يعمل من أجله . قد استفادت من الحضارات السابقة والمعاصرة لها ، إلا أن الطاقة التي فجرها الإسلام في عقول من دخلوا فيه واعتنقوه كان لها أكبر الأثر في التقدم العلمي الذي شهده العالم إبان ازدهار الحضارة الإسلامية في عصورها الزاهرة .

وقبل أن نتعرف على كيفية تعامل المسلمين مع الحضارات السابقة ينبغي أن ننوه إلى أهم المدارس العلمية في تلك الحضارات ، التي تتمثل إجمالاً في :

١ ــ الحضارة الفارسية .

٢ ــ الحضارة اليونانية .

٣ ــ الحضارة المصرية القديمة .

٤ ــ الحضارة الهندية .

المؤثرات الخارجية في العلوم والحضارة الإسلامية

يؤكد الإطار الجغرافي الذي نشأت فيه الحضارة الإسلامية مدى تأثرها بالحضارات الأخرى ، فالإطار الجغرافي الذي نشأت فيه هذه الحضارة بعد فتوحاتها ، امتد من الهند شرقا إلى المحيط الأطلسي غربًا ، ومن بحر قزوين شمالاً إلى بلاد النوبة جنوبًا ، وشمل مناطق جغرافية مختلفة ، وتضاريس ومناخ ومنتجات وشعوب متنوعة ، ولعل هذا التنوع أسبغ على الحضارة الإسلامية طابعًا مميزًا ، فقد استفادت من خبرات هذه الشعوب وتفاعلت معها، بما لا يتعارض مع ثوابت الإسلام ــ هذا من ناحية ــ يضاف إلى ذلك أن هذه النتيجة ما كانت تصل غليها الحضارة الإسلامية لولا أن الشعوب التي دخلت في الإسلام وجدت فيه مبتغاها ، فسرعان ما تغلغلت روح الإسلام في نفوس هذه الشعوب ، فانطلقت الطاقات العلمية في كل مجال من مجالات العلم ، فكانت المحصلة النهائية إنتاج حضارة إسلامية ذات خصائص مميزة سادت الدنيا .

أما أهم المؤثرات التي تأثرت بها الحضارة الإسلامية فتتمثل في :

أولا : الحضارة الفارسية

تعد الأمة الفارسية من الأمم العريقة ذات الشرف والعز ، وأهم ما ميز الفرس حسن السياسة وجودة التدبير ، لا سيما ملوك بني ساسان منهم ، فهم كما يصفهم " صاعد " " لم يكن في سائر الأعصار مثلهم رجاحة الأحلام وكرم سيرة ، واعتدال مملكة وبعد صيت ".[١]

ويمكن تلخيص أهم خصائص الفرس العلمية فيما يلي :

١ ــ كان للفرس عناية بالغة بصناعة الطب ، ومن المشهورين في

---

(١) أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي (ت ٤٦٣ هـ) ــ طبقات الأمم ــ مطبعة مطر بمصر ــ د . ت ــ ص ١٧ .

هذا المجال في أيام الفرس ، ووصل إلينا تأليفه ونقل إلى العربية : تيادورس النصراني ، والذي بنى له سابور ذو الأكتاف البيع في بلده ، ويقال إن الذي بناها له بهرام جور ، ونقل له إلى العربية كتاب " كناش تيادورس " .(١)

٢ ــ من مميزات الفرس أيضًا أن لهم معرفة ثاقبة بأحكام النجوم وتأثيرها في العلم السفلي .

٣ ــ كانت للفرس أرصاد للكواكب قديمة ، ومذاهب في حركاتها مختلفة من ذلك : المذهب الذي ألف عليه أبو معشر جعفر بن محمد البلخي (ت ٢٧٢ هـ) (٢) زيجة الكبير ، وذكر أنه مذهب العلماء المتقدمين من أهل فارس ، وكثير من علماء سائر النواحي .

٤ ــ مما يذكر للفرس أيضًا أن لهم كتبًا جليلة في أحكام النجوم منها : كتاب في صور درجات الفلك ينسب إلى ازدرشت وكتاب التفسير ، وكتاجا ماساف وهو جليل جدًا .(٣)

٥ ــ من المؤثرات الفارسية التي دخلت في الحضارة الإسلامية انتقال ألفاظ كثيرة من اللغة الفارسية إلى العربية ، وترجمة العديد من الآثار الأدبية الفارسية إلى لغة القرآن التي أصبحت لغة الجميع . وأدخل الفرس العديد من التعبيرات والأساليب والأغراض إلى اللغة العربية .(٤)

٦ ــ في مجال الإدارة أخذ المسلمون بعض النظم الفارسية مثل :

---

(١) مختار القاضي ــ أثر المدنية الإسلامية في الحضارة العربية ــ القاهرة ــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية و (د . ت) ــ ص ٢٠ .
(٢) عن جهود أبى معشر البلخي الفلكية راجع : القفطي جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ) ــ إخبار العلماء بأخبار الحكماء ــ القاهرة (د . ت) ــ ص ١١٧ .
(٣) انظر : صاعد الأندلسي ــ طبقات الأمم ــ ص ١٨ .
(٤) انظر : د / محمد جبر أبو سعدة ــ دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ــ القاهرة ــ ص ٥٤ .

الديوان الذي نقله المسلمون باسمه وهيئته ، إضافة إلى بعض نظم الحرب وتقاليدها .

٧ ــ كان للفرس تأثيرهم في العمارة والبناء نلحظ ذلك من إشارة الطبري في وقائع سنة ١٧ هـ حيث ورد فيها أن الفرس بنوا لسعد بن أبي وقاص دارًا بحياله وهي : قصر الكوفة اليوم ، بناه روزبه من آجر بنيان الأكاسرة في الحيرة ، وجعل فيه بيت المال .[١]

هذه هي أهم مميزات الفرس وخصائصها التي تأثرت بها الحضارة الإسلامية ، ونلحظ أن الفرس كانوا من أنشط العناصر الإسلامية في بناء التراث العربي ، ظهر ذلك في كثرة مشاركات علماء فارس في الميدان العلمي ، لاسيما في العصر العباسي الذي اصطبغ منذ بدايته بالصبغة الفارسية ، واعتمد الخلفاء العباسيون على العنصر الفارسي في تصريف شئون الدولة ، فمنصب الوزارة يكاد يكون مقصورًا عليهم . من هنا أخذت الدولة الإسلامية إبان العصر العباسي وجهًا فارسيًا ، ظهر في المرافق العامة والمآكل والمشارب وأدوات الزينة والغناء ، حتى الأعياد الفارسية ، ونتيجة لذلك حدث التفاعل بين اللغة العربية والفارسية ، ولم يلبث أن ظهر في المجتمع العباسي أصحاب اللسانين الذين يجيدون كلاً من العربية والفارسية إجادة تامة مثل : عبد الله بن المقفع ، وسهل بن هارون ، والفضل بن سهل والأسواري الذي وصفه الجاحظ بأنه كان من أعاجيب الدنيا وفصاحته بالفارسية مثل فصاحته بالعربية .[٢]

والملاحظة الجديرة بالذكر هنا هي : قوة اللغة وقدرتها على استيعاب

---

(١) انظر : أبا جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) ــ تاريخ الرسل والملوك ــ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ــ ط ٣ ــ دار المعارف ــ القاهرة ١٩٧٣م ــ ٣ / ٣٤٨ ، ١ .

(٢) انظر : الجاحظ : أبا عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ) ــ البيان والتبين ــ تحقيق الشيخ : عبد السلام محمد هارون ــ القاهرة ــ سلسلة الذخائر ــ الهيئة العامة لقصور الثقافة ــ سنة ٢٠٠٣م ــ ٢ / ٩٢ .

كافة الألفاظ والمصطلحات الفارسية ، والتي كثر استخدامها خلال ذلك العصر فكانت هي لغة العلم ، ولغة الحضارة والتقدم .

ثانيًا : الحضارة اليونانية

من الحضارات التي تمازجت مع الحضارة الإسلامية ، حضارة اليونان (الإغريق) وتعد أمة اليونان من الأمم عظيمة القدر ... لم يزل ملكهم متصلاً إلى أن أغلبهم عليه الروم ، فأنقرض ملكهم من الأرض ، وانتظمت مملكتهم مع مملكة الروم ، فصارت مملكة واحدة رومية [١] ، وبناء على ذلك ورث الرومان الحضارة اليونانية (الإغريقية) .[٢]

ولغة اليونان تسمى الإغريقية وهي من أوسع اللغات وأجلها ، وكان علماء اليونان يسمون "فلاسفة" ومعنى الفيلسوف " محب الحكمة ".. وفلاسفة اليونان من أرفع الناس طبقة وأجل أهم العلم منزلة ، لما ظهر منهم الاعتناء الصحيح بفنون الحكمة من العلوم الرياضية والتطبيقية والمعارف الطبيعية والسياسات المنزلية والمدنية ، وقد ذكر صاحب طبقات الأمم أن أعظم فلاسفة اليونان خمسة أولهم : بندقبيس ، ثم فيثاغورس ، ثم سقراط ، ثم أفلاطون ، ثم أرسطاليس .[٣]

وكما أشرنا سلفا بأن الرومان ورثوا حضارة اليونان ، وأضافوا إليها من إنتاجهم ، لاسيما في التشريع والهندسة العمرانية ثم بسطوا سلطانهم على أمم الشرق ... وفي الفترة السابقة على الإسلام أنشئت عدة مدارس بالشام والعراق [٤] ، اشتغل فيها العلماء السريان بنقل كثير من المؤلفات اليونانية في فروع العلم المختلفة إلى اللغة السرسانية ، وهكذا احتفظت هذه المدارس بمؤلفات اليونان في الفلسفة والطب والرياضيات والفلك ، والكيمياء ، وغيرها من العلوم .[٥]

---

(١) انظر : صاعد ـــ طبقات الأمم ـــ ص ٢٢ .
(٢) انظر : د / محمد جبر أبو سعدة ـــ دراسات في تاريخ الحضارة ـــ ص ٥٤ .
(٣) انظر : صاعد ـــ ص ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) عن هذه المدارس انظر : مراكز الترجمة في هذا الكتاب .
(٥) انظر : د / محمد أبو سعدة ـــ دراسات في تاريخ الحضارة ـــ ص ٥٥ .

وقد بدأت الإرهاصات الأولى للتأثير الإغريقي في الحضارة الإسلامية إبان عهد الدولة الأموية (٤١ـ١٣٢هـ) فبعد أن انصرفت نفس خالد بن يزيد ابن معاوية (ت ٨٥ هـ) عن الخلافة اهتم بالمناحي ، فيذكر ابن النديم " أن الذي عني بإخراج كتب القدماء في الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية ، وكان خطيبًا شاعرًا فصيحًا حازمًا ، ذا رأي وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء ... " (١) .كما ورد أيضًا أن خالد بن يزيد دعا جماعة من اليونانيين من مدرسة الإسكندرية وطلب منهم ترجمة كتب جالينوس في الطب .(٢)

فهذا المؤشر كان من بدايات حركة النقل لهذه العلوم ، والذي وصل إلى ذروته إبان العصر العباسي .

على كل حال فإن تأثر الحضارة الإسلامية بالحضارة اليونانية ، انحصر في المجالات العلمية خاصة في الطب والرياضيات والفلك ، واهتموا بما كانوا يحتاجون إليه من هذه العلوم .(٣)

ثالثًا : الحضارة المصرية القديمة

لا شك في أن الحضارة المصرية القديمة لها تأثير مباشر على الناحية العلمية الموجودة في العالم آنذاك ، وبالأخص كان تأثيرها قويًا على اليونان القدماء ولعبت هذه الحضارة دورها في الثقافة اليونانية وتم اختلاط الإغريق بالمصريين في عهد الأسرة السادسة والعشرين ٦٣٣ ق . م تقريبًا ، وعرف

---

(١) ابن النديم محمد بن إسحاق (ت ٤٣٨هـ) ـ الفهرست ـ القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى (د . ت) ص ١١١ .

(٢) العسكري : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (المتوفي حوالى سنة ٣٩٥هـ) الأوائل ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ط الأولى سنة ١٤٠٧ هـ ـ ص ٢٦٠ .

(٣) راجع : عمر فروخ ـ العرب في حضارتهم وثقافتهم إلى آخر العصر الأموي ـ بيروت ـ ط ٢ سنة ٣٨٨ هـ ص ١٩١ .

الإغريق مكانة مصر العلمية ، وبدأوا في إيفاد الطلاب إليها للعلم والمعرفة ، فنقلوا الثقافة المصرية إلى بلاد اليونان ، فتعلموا من المصريين علم جسم الأرض ، ثم طوروه إلى علم الهندسة ، وأخذ سولون الإغريقي الذي تعلم في جامعة عين شمس القديمة القوانين المصرية وصاغ منها تشريعات اليونان في مجالات مختلفة ومنها المجال التربوي ، وتعلم كثير من اليونانيين في مصر ، ومثل : سولون وأفلاطون وزينون وغيرهم [١] . وهذا يؤكد أن التأثير والتأثر بين الحضارات القديمة كان إيجابيًا إلى حد بعيد ، وأن الحضارات بصفة عامة يأخذ بعضها من بعض ، لأنها تراث إنساني ملك لجميع البشر .

وما دمنا نتحدث عن الحضارة المصرية القديمة فينبغي أن نذكر ملامح بعض العلوم التي عرفها المصريون القدماء . فمن ذلك :

معرفتهم بالجيولوجيا والمعادن النفيسة كالذهب والفضة . كما عرفوا أيضًا الحديد والرصاص واستخدمت هذه المعادن والأحجار في صناعة الحلي والأواني والمسلات والتوابيت .

ومن معارف المصريين أيضًا نبوغهم في المجال الطبي منذ عصر الأسرة الأولى ، فيقال إن أول طبيب حينذاك هو " دجر " حفيد الملك " نارمر " وألف هذا الطبيب في التشريح كتابًا ظل معمولاً به حتى عصر المؤرخ " مانيتون " عام ٣٠٠ ق . م .

وما يذكر في مجال الطب أيضًا بالنسبة لقدماء المصريين بردية أدوين سميث التي ترجع إلى نحو خمسة آلاف سنة ، وسميت باسم مكتشفها ، وتضمنت معلومات طبية مهمة . فالطب المصري سبق الطب الإغريقي بحوالى ألفي عام ، وعرف المصريون أيضا بعض العلاجات والأدوية،

---

(١) انظر : سليم حسن ــ مصر القديمة ــ مطبوع ضمن فعاليات " القراءة للجميع ــ القاهرة سنة ٢٠٠٣ م ــ ج ١٢ ص ١٢٠ .

وتشخيص بعض الأمراض ، ولهم مهارة خاصة في علاج العيون كانت سببًا في استدعاء ملك الفرس لأحد أطباء مصر لعلاج عينيه ، كما أن مهارة المصريين في التحنيط ما زالت حتى اليوم تمثل براعتهم في هذا الشأن، وإعجازًا علميا يدل على مدي ما وصل إليه الطب آنذاك .[١]

وخلاصة الأمر أن الحضارة المصرية وضعت أسسًا للكثير من العلوم الرياضية والفلكية والكيميائية والطبية والهندسية استفادت منها الحضارات المعاصرة واللاحقة لها .[٢]

رابعًا : الحضارة الهندية

ذكر صاحب طبقات الأمم أن الهند أمة كثيرة العدد ، فخمة الممالك ، اعترف لها الظهور بالحكمة والظهور في فنون المعارف جميع الملوك السالفة والقرون الماضية ... وتعد الهند معدن من معادن الحكمة ، وينبوع للعدل والسياسة ، فهم أهل الأحلام الراجحة ، والآراء الفاضلة ، والأمثال السائدة ، والنتائج الغريبة واللطائف العجيبة .[٣]

أما أهم ملامح العلوم عند الهند فيمكن إجمالها فيما يلي :

١ ـ من أعلم الناس بصناعة الطب ، وأبصرهم بقوى الأدوية ، وطبائع المولدات وخواص الموجودات . ومن أطباء الهند الذين نقل عنهم المسلمون في العصر العباسي :منكه الهندي الطبيب الفلكي ، الذي كتب جملة من المؤلفات منها : كتاب النمو دار في الأعمار ، وكتاب أسرار المواليد ، وكتاب : القرانات الكبير والصغير [٤] .. ومن أطبائهم أيضًا ، بازيكر ،

---

(١) انظر : مختار رسمي ـــ فضل الحضارة المصرية على العلوم ـــ القاهرة ١٩٧٣م ـــ ص ٢١٠ .

(٢) للتوسع في دور الحضارة المصرية وأهميتها يراجع د . سليم حسن في موسوعته مصر القديمة .

(٣) صاعد : ص ١٤ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٥ .

وقلبرقل ، وسندباذ وغيرهم وهؤلاء الأطباء اجتلبهم إلى حاضر الخلافة العباسية بغداد : يحيى بن خالد البرمكي .[١]

٢ ــ من معارف الهند أيضًا معرفتهم بالنجوم ومذاهبها ، ولعل أشهر مذاهبها الذي وصل إلينا مذهب السندهند الذي أخذه جماعة من المسلمين وألفوا فيه الأزياج ، كزيج محمد بن إبراهيم الفزاري ، وحنش بن عبد الله البغدادي ، والخوارزمي وغيرهم .[٢]

٣ ــ من معارف الهند أيضًا علومهم في إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس ومن جملة مؤلفاتهم في هذا الميدان كتاب : كليلة ودمنة الذي جلبه برزويه الحكيم الفارسي من الهند إلى أنو شروان ملك الفرس وترجمه له من الهندية إلى اللغة العربية ، ثم ترجم هذا الكتاب إلى معظم اللغات الأوربية عن النسخة العربية .[٣]

٤ ــ من معارف الهند أيضًا معرفتهم بالرياضيات ، فقد كانوا مبرزين في هذا الميدان ، ومن أعمالهم في الرياضيات كتاب " حساب الغيار " الذي بسطه الخوارزمي ، وهو أوجز حساب وأخصره وأقربه تناولاً ، وأسهله مأخذا .[٤] وقد أخذ العرب بعض الاصطلاحات الرياضية من الهنود ، وأخذوا عنهم أيضًا أرقام الحساب [٥] وقاموا بإصلاحها وتهذيبها .

٥ ــ يذكر د / مصطفى الشكعة أن الامتزاج الذي حدث بين الشعبين العربي والهندي ــ والذي بدأ في فترة باكرة من تاريخ المسلمين ــ كان من

---

(١) مختار القاضي ــ أثر المدينة الإسلامية في الحضارة الغربية ــ ص ٣٢ .
(٢) انظر : الجاحظ ــ البيان والتبيين ــ ١ / ٩٢ ، صاعد الأندلسي ــ طبقات الأمم ــ ص ١٥ .
(٣) انظر : صاعد ــ طبقات الأمم ــ ص ١٥ ، مختار القاضي ــ أثر المدينة ــ ص ٣٠ .
(٤) صاعد ــ طبقات الأمم ــ ص ١٥ .
(٥) مختار القاضي ــ أثر المدينة ــ ص ٣٠ .

نتائجه أن صار من الهنود أدباء وشعراء ولغويون فمن الشعراء : أبو عطار السندي ، ومن اللغويين : ابن الأعرابي أستاذ ثعلب وابن السكيت ، وله مؤلفات من أشهرها : كتاب : أسماء البئر وصفاتها ، وكتاب أسماء الخيل وأنسابها .(١)

هذه أهم ملامح العلوم في الحضارات السابقة ، التي كانت من المؤثرات في الحضارة الإسلامية التي أظهرت قدرة فائقة ومقدرة على استيعاب هذه المعارف ، بعد أن ترجمتها وهذبتها ، وأضافت إليها نظريات علمية كثيرة سنتعرف على بعضها عند حديثنا عن أبرز علماء المسلمين في هذه الميادين .

انتقال التراث القديم إلى الحضارة الإسلامية : (حركة الترجمة) :

لعل أهم الأسباب التي حدت بالمسلمين لنقل التراث القديم إلى اللغة العربية الدافع الديني ، والمتمثل في حث المسلمين على طلب العلم ، وقد سبقت الإشارة إلى بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو المسلمين إلى طلب العلم ، والحرص عليه ، وقد وعى المسلمون هذه الآيات جيدًا ، وعرفوا مقاصدها ، فكانت همتهم في طلب العلم وتحصيله عالية ، وسرعان ما كانت الأمة الإسلامية تشكل مجتمعًا علميًا حقيقيًا بإرادة رجال من الأعلام جعلوا جل اهتمامهم النهوض بالعلم ، فكانت المحصلة النهائية لهذه الجهود إيجابية للغاية .

إضافة إلى ما سبق نلحظ عدة عوامل شاركت في الإسراع لنقل التراث القديم منها :

١ ــ نتيجة للفتوحات الإسلامية التي كان من أهم محصلتها دخول أجناس وشعوب مختلفة في الإسلام . وهذه الشعوب كانت لها ثقافتها ولغتها ،

---

(١) من معالم الحضارة الإسلامية ــ ص ١١٣ .

فلما دخلت في الإسلام وامتزجت بالعرب أحدث ذلك لونًا جديدًا في الحياة ، تمثل في التقاء الثقافات ، أو ما نسميه بتفاعل الحضارات ، فاحتاج كل فريق للآخر . فحرص المسلمون على أخذ هذه المعارف بما يوافق دينهم .(١)

٢ ــ رعاية الخلفاء للترجمة ، إذ شكلت هذه الرعاية أحد أهم العوامل التي أدت إلى دفع حركتها خطوات واسعة إلى الأمام ، لاسيما عهد خلفاء بني العباس ، وبخاصة في عصر الرشيد والمأمون ، ذلك العصر الذي شهد ذروة ترجمة معظم تراث الأمم المختلفة من فارسية وهندية ويونانية ... الخ.(٢)

٣ ــ رعاية بعض الأسر للترجمة ، إذ ظهرت خلال الأعصر العباسية أسر اهتمت بحركة النقل اهتمامًا كبيرًا ، وكان لهذا الاهتمام أثر فعال في تشجيع وتنشيط هذه الحركة . فعلى سبيل المثال لا الحصر كانت أسرة موسى بن شاكر مصدرًا رئيسيًا لأبرز النقلة في ذلك الوقت (٣) ، ويمكن القول بصورة عامة بأن الترجمة في العهد العباسي كانت عمل دولة وأفراد ، فتخصصت بعض الأسر بأعمال النقل ، وأقيمت مدارس خاصة لتعليم المترجمين وإصلاح ما يترجمونه .(٤)

٣ ــ رغبة بعض الوزراء والأطباء في الإطلاع على تراث الحضارات القديمة ، فنجد يحيى بن خالد البرمكي (ت١٩٠هـ) وزير الرشيد يستقدم العلماء من البلاد التي فتحها المسلمون في علوم مختلفة . من ذلك أنه

---

(١) انظر : محمد الصادق عفيفي ــ تطور الفكر العلمي عند المسلمين ــ ص ٣٧ ، عمر فروخ ــ تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ــ بيروت ــ ط ٢ ــ سنة ١٩٩٣م ــ ص ٢٧٠ .
(١) رشيد الجميلي ــ حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة ــ العراق وزارة الثقافة والإعلام سنة ١٩٨٦م ــ ص ٤٩ .
(٢) انظر : رشيد الجميلي ــ حركة الترجمة ــ ص ٥٠ .
(٣) حسن أحمد محمود ، وأخر ــ العالم الإسلامي في العصر العباسي ــ دار الفكر ــ القاهرة ــ ط ٥ (د . ت) ص ٢٧٣ .

استقدم عددًا من أطباء وحكماء الهند .[١]

٤ ــ حاجة العرب إلى تراث الحضارة القديمة ، أو ما يمكن أن نسميه رغبة الإنسان في معرفة علوم الآخرين ، خاصة إذا كانوا أسبق في بعض نواحي المعرفة ، من هنا جاءت الحاجة ملحة للإطلاع على هذا التراث ، خاصة إذا ارتبطت بعض هذه المعارف بالفروض الدينية كالصيام والحج مما يحتاج إلى حسبان وتقويم ، فنقلوا إلى العربية كتب الرياضيات والفلك .[٢]

٥ ــ مما ساعد على ازدهار حركة الترجمة مرونة اللغة العربية ، وثراء ألفاظها ومعانيها ، وكثرة مترادفاتها ، وقدرتها على التعبير ، واستيعابها للمصطلحات الأخرى ، فكانت اللغة العربية وسيلة ناجحة لهذا النقل دون عناء لما وهبها الله من مرونة في مادتها .[٣]

٦ ــ لا شك في انتقال الخلافة الإسلامية إلى العراق " بغداد " . كان له أثر فاعل في ازدهار العلوم بصفة عامة ، وازدهار حركة الترجمة بصفة خاصة ، وذلك نظرًا لتأثر العراق بالثقافة الفارسية ، ومشاركة الفرس الفاعلة في تثبيت دعائم الحكم العباسي ، مما أدى إلى امتزاج الثقافتين ، واستدعى ذلك قيام فريق من العلماء لترجمة ما عند الفرس من معارف .[٤]

على كل حال كانت الدوافع السابقة من أهم الأسباب التي شجعت المسلمين على نقل تراث الأمم السابقة .

---

(١) الجاحظ ــ البيان والتبيين ــ ١ / ٩٢ .
(٢) انظر : عمر فروخ ــ تاريخ الفكر ــ ص ٢٧٠ .
(٣) انظر : عبد الصبور شاهين ــ العربية لغة العلوم والتقنية ــ القاهرة ــ دار الاعتصام ــ ط ٢ سنة ١٩٨٦م ، ص ٦٥ .
(٤) محمد فتجي الشاعر ــ مآثر العرب في العلوم المترجمة ــ القاهرة (د . ت) ص ١٠ .

مراحل حركة الترجمة

مرت الترجمة في العصور الإسلامية بمرحلتين أساسيتين هما :

المرحلة الأولى : الترجمة في العصر الأموي :

تميزت الحركة إبان العصر الأموي (٤١:١٣٢هـ) بأنها كانت محدودة إذا ما قورنت بالعصر العباسي ولا شك أن ذلك راجع إلى أن الدولة الأموية انشغلت بفتوحاتها ووجهت أنظارها إلى هذا الميدان . ومع ذلك فقد بدأت حركة محدودة للترجمة في ذلك العصر على يد الأمير خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٨٥هـ) والذي يذكر ابن النديم أنه أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وألف في الكيمياء .. [١] .

ومن رجال الأمويين الذين وجهوا بعض عنايتهم إلى ميدان الترجمة الخليفة الأموي مروان بن الحكم (ت ٦٥هـ) إذ ترجم له ماسرجويه البصري كتاب أهرن بن أعين القس من السريانية إلى العربية ، وهو ثلاثون مقالة ، ويعد من الكتب النفيسة التي تناولت الحكمة وغيرها .[٢]

في عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي (٦٥:٨٦هـ) شهدت الدولة ما يمكن أن نطلق عليه انقلابًا كبيرًا في هذا الاتجاه ، فقام عهد الملك بتعريب وترجمة الدواوين إلى اللغة العربية ، وبذلك وضع لبنة قوية في تأصيل التعريب .[٣]

في خلافة عمر بن عبد العزيز ﷺ (٩٩:١٠١هـ) عثر على كتاب

---

(١) الفهرست ص ٤٩٧ .
(٢) انظر : القفطى ــ إخبار العلماء ــ ص ٧٥ ، محمد الصادق عفيفي ــ تطور الفكر العلمي ــ ص ٣٦ .
(٣) عن جهود عبد الملك بم مروان في التعريب راجع يوسف العش ــ الدولة الأموية ــ دمشق ــ دار الفكر ــ ط ٥ سنة ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م ــ ص ٢٢٧ .

أهرن القس في خزائن موروثات الخلافة ، فأخرجه وحث المسلمين على قراءته والانتفاع به لما له من أثر كبير في التفكير العلمي ، واحتوائه على ألوان من الحكمة ذات القيمة في بناء الحياة الفكرية ، بعد أن استخار الله في ذلك أربعين يومًا .[١]

في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ) قام كاتبه أبو العلا سالم وهو أحد الفصحاء البلغاء ، ونقل من رسائل أرسطاطليس وأصلح مجموعة رسائل نحو مائة ورقة .[٢]

هذا عن ملامح الترجمة إبان العصر الأموي ، ولاحظنا أنها حركة فردية ، إلا أن هذه المرحلة يحسب لها أنها وجدت نظر المسلمين إلى تراث الأمم الأخرى ، بدأ في العصور التالية حركة عامة في الترجمة ، وذلك لأن حركة النقل إبان العصر الأموي شأنها شأن باقي العلوم التي ظهرت خلال تلك الفترة من ناحية التنظيم والتصنيف الزيادة ، فالعصر الأموي هو عصر بداية العلوم ، أما الازدهار والتطور والتأليف وانتعاش حركة الترجمة كل ذلك كان في الأعصر العباسية .

المرحلة الثانية : الترجمة في العصر العباسي :

أخذت الترجمة في العصر العباسي طابع الشمول ، فبعد أن كانت في نطاق رغبة الخلفاء لإشباع نهمهم العلمي ، أصبحت سنة من سنن الدولة ، ومنهجًا من مناهج الأفراد والأسر ، فتشكلت قاعدة علمية حقيقية استطاع المسلمون من خلالها أن يقودوا الدنيا من خلال المعارف التي اكتسبوها ما أضافوه إلى هذه المعارف ، فكانت لهم رؤيتهم العلمية التي وصلت بالعلم إلى أعلى درجات التقدم حينذاك [٣] .

---

(١) القفطى ـ إخبار العلماء ـ ص ٢١٣ .
(٢) ابن النديم ـ الفهرست ـ ص ١٧١ .
(٣) انظر ما كتب عن الترجمة في الفصل الثانى .



اهم المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

١ ــ القرآن الكريم ..

٢ ــ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون) ، دار القلم ، بيروت ، د.ت .

٣ ــ الفيروزبادى : القاموس المحيط ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ١٣٣٠هـ .

ثانيا : المراجع العربية :

٤ ــ أنور الجندى : المد الإسلامى فى مطلع القرن الخامس عشر ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

٥ ــ جلال العالم : قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله : مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٦ ــ أبو الحسن الندوى الحسينى : المد والجزر فى تاريخ الإسلام ، الطبعة الأولى ، دار الصحوة ، القاهرة , ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

٧ ــ د . راغب السرجانى : قصة التتار ، الطبعة الأولى ، مؤسسة إقرأ ، القاهرة ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م .

٨ ــ د . راغب السرجانى : العلم وبناء الأمم ، الطبعة الأولى ، مؤسسة إقرأ ، القاهرة ، ٢٠٠٧ م .

٩ ــ د . أبو زيد شلبى : تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ، مكتبة وهبة ، الطبعة السادسة ، القاهرة ، د.ت .

١٠ــ د . زينب عبد العزيز / محاصرة وإبادة (سلسلة فضائح الحضارة الغربية) ، ج١ ، الطبعة الثالثة ، القدس للنشر والطباعة ، القاهرة ، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م .

١١ـ د . سعد بدير الحلوانى : حاضر العالم الإسلامى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .
١٢ـ سعد الدين صالح ، الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام ، دار الأرقم، الزقازيق ، ١٩٨٩م .
١٣ـ سيد قطب : فى ظلال القرآن ، ج٢ ، دار الشروق ، القاهرة .
١٤ـ سيد قطب : المستقبل لهذا الدين ، الاتحاد الإسلامى العالمى ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .
١٥ـ سيد قطب : هذا الدين ، الطبعة الخامسة ، الاتحاد الإسلامى العالمى ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .
١٦ـ د . شوكت محمد عليان : دراسات فى الحضارة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، دار الشواف للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .
١٧ـ د . عبد الحليم عويس : فقه التاريخ فى ضوء أزمة المسلمين الحضارية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .
١٨ـ د / عبد العظيم منصور : طريق العودة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامي ،(الكتاب ٧٣) ، القاهرة ، ١٩٩٢م .
١٩ـ الشهيد عبد القادر عودة : الإسلام وأوضاعنا القانونية ، طبع الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية ، ١٤٠١هـ / ١٩٨٢م .
٢٠ـ عبد الله ناصح علوان : معالم الحضارة فى الإسلام ، طبع دار السلام، القاهرة ، ١٩٨٤م .
٢١ـ على جريشة وآخر : أساليب الغزو الفكرى ، الطبعة الثانية ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
٢٢ـ على جريشة : الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، الطبعة الثالثة ، دار الوفاء ، القاهرة ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .
٢٣ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : أبحاث المؤتمر ١٦ ، طبع المجلس

الأعلى ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .
٢٤- مجمع اللغة العربية : المعجم الوجيز ، طبع وزارة التربية والتعليم ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .
٢٥- د / محمد البهى : الإسلام فى الواقع الأيدلوجى المعاصر ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م .
٢٦- د / محمد السيد محمد يوسف : التمكين للأمة الإسلامية فى ضوء القرآن الكريم ، الطبعة الأولى ، دار السلام ، القاهرة ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .
٢٧- د / محمد عبد الستار نصار : الإسلام رؤية حضارية ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة، (عدد ٥١ سلسلة قضايا إسلامية)، ١٤٣٠هـ / ١٩٩٩م .
٢٨- د / محمد عبد الستار نصار : العالم الإسلامى اليوم (الاقتصاد / الموقع / السكان / التعداد ، المشكلات) طبع مكتبة ابن سينا ، القاهرة، ١٩٩٠م .
٢٩- د . محمد عمارة : فى فقه الحضارة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م .
٣٠- محمد قطب : واقعنا المعاصر ، الطبعة الثالثة ، مؤسسة المدينة ، جدة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .
٣١- د / محمد حمدى زقزوق : هموم الأمة الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (ضمن فعاليات مكتبة الأسرة) القاهرة ، ٢٠٠١م .
٣٢- د . يوسف القرضاوى : تاريخنا المفترى عليه ، الطبعة الأولى ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م .
٣٣- د . يوسف القرضاوى : الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا ، الطبعة ١٧ ، مؤسسة الرسالة ، دمشق ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

ثالثا : المصادر المعربة :

٣٤ــ ول ديورانت : قصة الحضارة ، هيئة الكتاب المصرية ، ترجمة د.زكى نجيب محمود ، ومحمد بدران (مطبوعات مكتبة الأسرة) ، القاهرة ، ٢٠٠١م .

* * *

الفصل الثاني (١)

بغــــــداد

---

(١) إعداد : دكتور / طه عبد العزيز الخطيب ــ مدرس التاريخ والحضارة بقسم التاريخ والحضارة ــ كلية اللغة العربية بالقاهرة جامعة الأزهر .

تأسيس بغـداد

كان خلفاء بني العباس يتخذون مدينة «الهاشمية» مقرا لهم، وهي التي ابتناها الخليفة أبو العباس السفاح قرب الكوفة [١]، وسماها «الهاشمية» نسبة إلى هاشم جد العباسيين، وكان العباسيون منذ قيام الدولة العباسية يبحثون عن مكان يصلح عاصمة لدولتهم الجديدة، ويكون أيضا إيذانا بإنتهاء عهد الأمويين، وقيام البيت العباسي في الحكم [٢]، ولماكانت الكوفة وما جاورها، مقرا للشيعة، ومركز دعايتهم، كما كانت مركز القبائل العربية التي تثير الفتن والقلاقل حتى أصبح الخليفة أبو جعفر المنصور لا يأمن على نفسه مجاورته أهل هذه المنطقة التي أفسدت عليه جنده، أضف إلى أن الكوفة وما جاورها يقع على حد الصحراء العربية، التي تهب رمالها على الشاطئ الغربي للفرات [٣].

وبسبب ذلك قرر الخليفة المنصور بناء حاضرة جديدة في مكان تسهل فيه المواصلات إلى أجزاء دولته، ويصله ماءا دجلة والفرات، فبعث روادا يختارون له مكانا تتوافر فيه سبل العيش، فدلوه على موضع قريب من "بارما" الواقعة جنوبي الموصل، فخرج وبات فيه، مع جماعة من رجاله، ولما أصبح سألهم عن رأيهم في هذا المكان. قالوا: إنه طيب فقال «صدقتم ولكن لا مرفق فيه للرعية»، ثم ذكر لهم أنه مرَّ في طريقه إلى هذا المكان

---

(١) ياقوت، شهاب الدين ابو عبد الله – الحموى ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م، معجم البلدان ح٤ صـ٤٥٧، دار صادر بيروت.

(٢) إبراهيم العدوي تاريخ العالم الإسلامي صـ٢٠١، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٣.

(٣) حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي والديني ح٢ صـ٣٦٣، مكتبة النهضة المصرية ط ب سنة ١٩٦٤.

بموضع تجلب فيه المؤن في البر والنهر، وأنه يصلح مكانا لحاضرة ملكه، إذا استطاب هواءه، ثم رجع إلى هذا المكان وأقام فيه يوما وليلة وكان في فصل الصيف، فأعجبه هواؤه ووجد فيه المكان الذي يناسبه، وقال «هذا موضع صالح للبناء، فإن المادة تأتيه من الفرات ودجلة . وجماعة الأنهار، ولا يحمل الجند والرعية إلا مثله [(١)].

وقد روعى في بناء بغداد الشروط التي اشترطها ابن خلدون في بناء العواصم وهي: «إما أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال، والبسائط (أرض مسطحة، وسهول تصلح للزراعة) وإما باستدارة نهر، أو حر، وطيب الهواء، وقرب الزرع، ليحصل الناس على الأقوات».

كما عاب ابن خلدون على العرب أنهم لم يراعوا هذه الشروط في اختيار عواصمهم بقوله «وأما إذا لم يكن لتلك المدينة مادة تفيدها... فيكون انقراض الدولة خرقا لسياجها فيزول حفظها، ويتناقص عمرانها شيئا فشيئا إلى أن تخرب كما وقع في (البصرة، والكوفة، والقيروان بالمغرب)»[(٢)].

وكانت الدول منذ القدم تختار لعواصمها أماكن في أحضان الجبال، والبحار والأنهار، وذلك مثل المدائن، ومنف مصر القديمة على نهر النيل وأخذت مكانها الفسطاط، ثم القاهرة فيما بعد، وبيزنطة التى ورثت القسطنطينية والتي مكانها اسلامبول (إسطنبول) والإسكندرية على البحر الأبيض، ولندن، وباريس.

أما بغداد فإن مكانها يتمتع بكثير من المميزات التي يشترطها ابن خلدون فهو يتوسط الأماكن المأهولة والحضارية في العراق.

وكان موقعها مدينة قديمة بابلية على الشاطئ الغربي من نهر دجلة

---

(١) ياقوت – المصدر السابق ج٤ صـ٤٥٧، ٤٥٨.

(٢) ابن خلدون – عبد الرحمن بن محمد المقدمة الطابعة الخامسة ت٨٠٨هـ، ص ٣٤٣ دار القلم – بيروت – ١٩٨٤م.

تخلو من البعوض الذي كان ينتشر في البصرة والكوفة وكان الخليفة يقول «أن موقعها عظيم لمعسكر حربي» ويرى أنها في مأمن من جهة البر وعلى إتصال بدجلة والأقاليم الخصبة الداخلية، والخليج الفارسي وسائر مواني العالم، وهذا الموقع هو السبب في رخاء بغداد [١].

إشتقاق اسم بغداد:

إن كلمة بغداد من أصل فارسي مكون من «بغ» ومعناها «صنم» وداد معناها «أعطاني» فيكون معناها أعطاني الصنم، وقيل «بستان رجل» فبغ بستان وداد رجل، وكره الفقهاء هذا الاسم فسماها الخليفة المنصور «دار السلام» أو مدينة السلام تفاؤلا، لأن دجلة كان يقال لها وادي السلام. وقيل أن بغداد كانت سوقا يقصدها تجار الصين، فيربحون ربحا كثيرا، وكان اسم ملك الصين «بغ» فكانوا يقولون «بغـــداد» أي هذا الربح من «عطية الملك» وقيل أنها سميت مدينة السلام، لأن السلام هو: الله، فأرادها مدينة الله[٢].

وقد أطلق لفظ الزوراء على بغداد، في بدء إنشائها للإنحراف الذي شوهد في محاريب مساجدها، وسميت «المدينة المدورة» لأنها على شكل دائرة، ويقال لها «دار السلام» تشبيها بالجنة [٣].

بناء بغـداد :

شرع أبو جعفر المنصور في تخطيط مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ/١٧٦٢ على شكل مستدير، وجعل لها سورين، يفصل بينهما (١٦٠) ذراعا ويوجد

---

(١) جاك – ليسلر – الحضارة العربية ص١٣٧، ١٣٨ ترجمة. غنيم عبدون، مراجعة د. أحمد فؤاد الأهواني، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

(٢) ياقوت مصدر سبق م٤ ٤٥٦، ٤٥٧.

(٣) حسن إبراهيم مرجع سبق ج٢ ٣٦٧، ٣٦٨.

أمام السور الخارجي خندق يجري فيه الماء من نهر صغير، متفرع من نهر دجلة. وهناك سور ثالث يحمي مدخل الأحياء المركزية وكانت حوائط السور مفتوحة بأربعة أبواب مذهبة تفضي إلى الجهات الأربع [١]، المطلة على أرجاء إمبراطوريته، وهي: باب خراسان في الشمال الشرقي ويقع على نهر دجلة، وباب الشام في الشمال الغربي وباب البصرة في الجنوب الشرقي، وباب الكوفة في الجنوب الغربي [٢] وفي الوسط شيد الخليفة قصرا ومسجد جامع، وباب الذهب، ثم في كل جهة من الجهات الأربع قصور الأمراء وحكام الولايات، حول المدينة المدورة كأنها ميناء ساعة، ابتنى أثنى عشر قصرا يسكنها رؤساء الإدارات الكبرى [٣].

ومد المنصور قناة من نهر دجيل الآخذ من نهر دجلة وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات، وجرهما إلى المدينة في عقود وثيقة محكمة من أعلاها (نشبه الأنفاق) وكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب، وتجري صيفا وشتاءا لا ينقطع ماؤها في أي وقت، وجر لأهل الكرخ أربعة أنهر يقال لأحدهم نهر الدجاج، وللثاني نهر القلائين وللثالث نهر طابق، وللرابع نهر البزازين، والكرخ هو أسواق المدينة التي نقلها المنصور من مدينته في الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى، وبنى لأهل الأسواق مسجدا يجمعون فيه، ولا يدخلون المدينة، وسميت الشرقية لأنها شرقي الصراة [٤].

---

(١) ليسلر مرجع سبق ص١٣٨.

(٢) ياقوت نفس المصدر ح صـ٤٥٩.

(٣) ليسلر نفس المرجع ١٣٨.

(٤) محمد الخضري بك، محاضرات تاريخ الإمم الإسلامية (الدولة العباسية) صـ٩٢، ٩٣ تحقيق محمد العثماني - دار القلم بيروت ط١ ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

وقد أمر المنصور بإحضار المهندسين والبنائين والعمال والصناع من الشام، والموصل، والبصرة، والكوفة، وواسط، ثم اختار جماعة ممن يثق بفضلهم وعدالتهم وعلمهم وأمانتهم ومعرفتهم بالحساب والهندسة من أمثال الحجاج بن أرطاة، وعمران بن الوضاح، وأجرى عليهم الأرزاق، ثم أمر بضرب اللبن وطبخ الآجر [١] وقيل أن المنصور لما شرعة في بناء بغداد عهد إلى الإمام أبي حنيفة بالإشراف على البناء وعد الطوب، فأبتكر الإمام أبو حنيفة طريقة سهلة لعد الطوب بالقصب فإن كان طول الطوبة ٣٠سم مثلا، أتي بقصبة وقاس بها صف الطوب، فأمكنه بذلك عد الطوب في زمن قصير [٢]،

والسبب في ذلك أن المنصور أراد أن يولى أبا حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفي القضاء، فإمتنع حتي لا يظلم أحدا، فحلف الخليفة إلا يتركه بدون عمل، واختار له هذا العمل، فوافق الإمام أبو حنيفة خوفا من أن يكلفه بالعمل في القضاء، وهذا ورعا وخوفا من الله أن يظلم أحد.

ثم وضع الخليفة أبو جعفر المنصور أول لبنة بيده، وقال: «باسم الله والحمد لله: والأرض لله يورثها من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال. «إبنو على بركة الله» [٣].

وقد وضع الخليفة المنصور حجر الأساس في الوقت الذي إختاره المنجمون. قال: أبو سهل بن نوبخت: «أمرني المنصور لما أراد بناء بغداد بأخذ الطالع ففعلت، فإذا الطالع في الشمس وهي في القوس، فأخبرته بما تدل النجوم عليه من طول بقائها وكثرة عمارتها، ثم قلت: وأخبرك خلة أخرى أسرك بها يا أمير المؤمنين. قال: وما هي؟ قلت: نجد في أدلة النجوم أنه لا

---

(١) ياقوت نفس المصدر صـ٤٥٨.

(٢) حسن إبراهيم مرجع سبق ج٢ صـ٣٦٨.

(٣) ياقوت مصدر سبق م٤ صـ٤٥٨.

يموت بها خليفة أبدا. فتبسم وقال: الحمد لله على ذلك، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[١].

وكان من أعجب العجب أن المنصور مات وهو حاج، والمهدي إبنه خرج إلى نواحي الجبل فمات بموضع يقال له الروذ، والهادي إبنه مات «بصيباز» قرية قرب بغداد، والرشيد مات بطوس، والأمين قتل بالجانب الشرقي، والمأمون بطوس، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، والمستنصر بسامراء، ثم إنتقل باقي الخلفاء إلى التاج شرقي بغداد»[٢].

ولا شك أن هذه الأعمال الجليلة كلفت الخليفة المنصور كثيرا من النفقات حتى أنه فكر في استعمال أنقاض «المدائن» حاضرة الفرس القديمة، في تعمير حاضرة ملكه الجديدة، فاستشار وزيره خالد بن برمك في هدم إيوان كسرى ونقل أنقاضه لبناء بغداد، لم يوافقه خالد ونهاه عن ذلك وقاله له «لا تفعل ذلك يا أمير المؤمنين فإنه آية الإسلام، فإذا رآه الناس علموا أن مثل هذا البناء لا يخضع أصحابه إلا أمر سماوي، ثم هو مصلى على بن أبي طالب عليه السلام، والمؤونة في نقصه أكثر من نفعه، فقال له المنصور: أبيت يا خالد إلا ميلا للعجمية، ثم أمر المنصور بهدمّه، فهدمت منه ثلمة، فبلغت النفقة على هدمها أكثر مما حصل منها، فأمسك المنصور عن هدمه وقال لخالد: قد صرنا إلى رأيك وتركنا هدم الإيوان، فقال خالد: يا أمير المؤمنين، أنا الآن أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك، فأعرض المنصور عنه وأمسك عن هدمه [٣].

---

(١) سورة الجمعة آية (٤).
(٢) ياقوت نفس المصدر صـ٤٦٠، ٤٦١، القزويني/ زكريا ياسين محمد بن محمود ت٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م آثار البلاد وأخبار العباد صـ٣١٤ دار بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
(٣) ابن طباطبا – محمد بن علي ت٧٠٩هـ،٣٠٩ الفخري في الآداب السلطانية صـ١٢٤، ١٢٥.

وسرعان ما ازدحمت بغداد، فلم يرا المنصور بدا من الإقامة خارج المدينة في مكان طيب الهواء فبنى قصر الخلد سنة١٥٧هـ [١] على نهر دجلة .

كما بى لإبنه المهدي (الرصافة) وعمل لها سورا وخندقا وميدانا وبستانا، وأجرى لها الماء [٢].

ومما قيل في مدح بغداد:

بغداد جنة الأرض ومدينة السلام، وفيه الإسلام، ومجمع الرافدين ومعدن الظرائف، هواؤها الطف من كل هواء، وماؤها أعذب من كل ماء وبها أرباب الغايات في كل فن فلا غرو أن الشعراء أكثروا في مدحها والإشادة بها ومن ذلك ما قاله بعضهم:

بغداد يا دار الملوك ومجتبى   صنوف المنى يا مستقر المنابر

ويا جنة الدنيا ويا مجتبى الغنى   ومنبسط الأمالي عند المتاجر [٣]

ومن مفاخرها المدرسة المستنصرية التي بناها الخليفة المستنصر بالله، فلم يبنى مثلها في حسن عمارتها وطيب موضعها على شاطئ دجلة [٤].

ولم يمض على إنشاء بغداد فترة طويلة حتى أصبحت عامرة وزاخرة بالمدنية والعلم والفضل، وتطلعت لها أنظار المسلمين، وتسمعت لأخبارها أذان العالم، واحتلت بغداد بسرعة مكان الصدارة في السياسة، والنشاط

---

(١) حسن إبراهيم مرجع سبق ج٢، ٣٧٤.
(٢) الخضري مرجع سبق صـــ٩٣.
(٣) ياقوت مرجع سبق م٤ صـــ٤٦١، ٤٦٢، القزويني مصدر سبق صـــ٣١٣، ٣١٤.
(٤) المصدر السابق صـــ٣١٤.

الإجتماعي والعلمي في الشرق الأوسط كله واحتفظت طويلا بمكانتها [١] حتى سقطت وانهارت على يدا المغول [٢] سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

---

(١) د/ أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامى ج٣ صـ٢٢٣ مكتبة النهضة المصرية ط٨ سنة ١٩٨٥ .

(٢) والمغول قوم في صحراء منغوليا يشبه الترك في اللغة والمظهر العام عاشوا في شظف من العيش يعملون في الصيد والرعى، وكثر بينهم النزاع وتكررت إغارتهم على المناطق الخصبة المجاورة وبرز في هذه القبائل شاب اسمه تموجين، الذي استطاع توحيد كل قبائل الصحراء ووضع لهم نظاما ودستور حربي صارم أسسه الطاعة العمياء للسلطان ثم سمى نفسه جنكيزخان ومعناها (إمبراطور البشر وأعظم حكام الأرض) ثم توسع في معظم بلاد الصين، وإتجه نحو البلاد الإسلامية فاستولى على بلاد الدولة الخوارزمية، في تركستان وقتل ملكها جلال الدين منكوبرتي، ولقيت بخاري وسمرقند وغيرها من المراكز الإسلامية أشنع ألوان الدمار، ثم مات جنكيزخان، وتولى بعده إبنه هولاكو الذي استولى على إيران ثم اتجه إلى العراق وطلب من الخليفة الخروج من بغداد، والتسليم، ثم قتله هو وجنوده، وفي اليوم التالي أباح بغداد لجنوده فعاثوا فيها فسادا، وانتشروا في أحيائها يقتلون وينهبون أموالهم، ولم يسلم أحد إلا من كان في الآبار، والقنوات، والقبور، وكان القتلى في الأسواق والدروب كالتلال، واستمر القتل والنهب أربعين يوما. ثم نودى بالأمان فخرج من تخلف، وقد تغيرت ألوانهم، وزهلت عقولهم، وهم كالموتى إذا خرجوا من القبور يوم النشور، وكان الوالد لا يعرف ولده، والأخ لا يعرف أخاه، وأخذهم الوباء فتلاحقوا بمن سبقهم من القتل» [أ] .

وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد بعد أن مكثت مشرقه ٥٢٤ سنة، واشتفت قلوب العلويين من بني عمهم بما حل بهم من هذا الخراب والدمار.

أما بغداد دار الخلافة وعاصمة الملك فقد جرى عليها ما جرى على سواها من أمهات المدن الإسلامية، فقتل معظم أهلها، وقليل منهم من نجا، واستبقى المغول جماعة من الشيعة – «لأن الوزير ابن العلقمي كان شيعي وتعامل مع المغول ضد الخليفة»، كما استبقوا النصارى (لأن زوجة هولاكو كانت نصرانية) وصارت حاضرة دولة لا تدين بدين بعد أن كانت عاصمة المسلمين[ب] .

وعلق ابن الأثير في أسباب تلك الكارثة بقوله: «فما نرى من ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه=

النهضة الثقافية:

إزدهرت الحياة الثقافية في العصر العباسي الأول، لأن نظرة الخلفاء العباسيين إلى الموالي الفرس [(١)]، كانت تختلف كل الاختلاف عن نظرة

=وظلم رعيته، وهذا أخوف عندي من العدو».

ثم نعاها بقوله «لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها، فأنا أقدم إليها رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ... (ج).

(أ) النسوى محمد بن أحمد : انتهى من تأليف كتابه سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م. سيرة السلطان جلال الدين ص ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، تحقيق حافظ حمدى ـ دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٣م . ابن الأثير : أبو الحسن بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجذرى ، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، الكامل فى التاريخ ـ دار الكتاب العربى بيروت ١٩٨٥ ، ج ٩ ص ٣٣٩.

(ب) الخضرى ـ مرجع سبق ص ٥٥١ ، ٥٥٢.

(ج) ابن الأثير ـ نفس المرجع ـ ج٩ ص ٣٢٩ وحوادث سنة ٦١٧هـ.

(١) عصام عبد الرءوف الفقي الدولة العباسية مكتبة نهضة الشرق جامعة القاهرة ١٩٨٥ صـ١٢١.

والسبب في ذلك هو أن الفرس هم أصحاب الفضل في نقل السلطة إلى العباسيين، فقد رأى الإمام محمد بن علي العباس أن نقل السلطة يحتاج إلى شدة الحيطة فطلب من شيعته الدعوة إلى ولاية آل البيت دون تسمية أحد خوفا من بني أمية، ووجد أن كلا من الكوفة «بالعراق» وخراسان «بفارس» أنسب مكان ليكون مركز للدعوة، لأن الكوفة مهد التشيع لآل البيت منذ زمن طويل وأن أهل خراسان يفهمون فكرة التشيع بسهولة، ويعتقدون في نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة في فارس منذ أيام آل ساسان (قبل ظهور الإسلام) هذا إلى ما كان يقاسيه الفرس من ظلم الأمويين مما سهل على العباسيين نشر دعوتهم[(أ)] .

ومما يفسر لنا أسباب تعلق الفرس بالعلويين، هو أن الحسن، أصغر أبناء فاطمة بنت النبي ﷺ تزوج من «شهربانوه» إبنة يزدجرد الثالث آخر ملوك

الأمويين لهم، فأقبلوا على بغداد فور تأسيسها وأقاموا فيها [١].

«والفرس» أمة عريقة في القدم، وذات حضارة عظيمة إزدهرت زمن الدولة الساسانية التي نبغت في فنون السياسة، والإدارة والحرب، ومظاهر الترف والرفاهية، وكان لها دين رسمى هو الدين «الزرادشتى»[٢]، ومذهب

ساسان[ب] . والتي أسرت في معارك الفتح الإسلامي وعرفت فيما = =بعد باسم سلافة، وأنجبت للحسين إبنه عليا الرضا «زين العابدين» فاعتبر الفرس أنفسهم أصهار الحسين، وجعلوا من هذا النسب فخرا لهم فهو يجمع بيتين في العرب والفرس (بيت النبوة – وبيت آل ساسان) فتشيعوا لعلي وأبناؤه وخاصة أبناء (زين العابدين) [ج] .

ويعلل ذلك كثرة الثورات والفتن التي أثارها الموالي من الفرس الذين ساعدوا آل البيت ضد الأمويين، ويرجع الفضل لأبي مسلم الخراساني في القضاء على سلطان الأمويين، وحمل لواء الدعوة العباسية في خراسان، وقيام الدولة العباسية ويرجع الفضل في ذلك وفي نقل السلطة للعباسيين إلى أبي مسلم الخراساني، الذي تحمل على عاتقه هذه المسئولية».

(أ) حسن إبراهيم حسن ــ مرجع سبق ــ ج٢ص١٥ ، ١٦ .

(ب) محمد أحمد حسب الله ــ فى تاريخ دولة بنى العباس ــ جامعة الأزهر ص ٤١ .

(ج) حسن إبراهيم حسن ــ المرجع السابق ــ ج٢ص١٤.

(١) د/ حسن إبراهيم حسن مصدر سبق ج٢ صـــ١٥، ١٦.

(٢) زرادشت وبالدقة «زراثوسترا» (٦٠٠ أو ١٠٠٠ق.م) هو فارسي مؤسس الزرادشتية ولقيت دعوته تأييدا. فهي تقدس «النار» ووضع أناشيد «غاثا» تكريما «لارموزد» إله الخير.
زيغرد – هونكه – شمس العرب تسطع على الغرب صـــ٢٠٨.
ترجمة فاروق ببضون، وكمال دسوقي – راجعه – فاروق عيسى الخوري المكتبة التجاري للتوزيع ط(١) سنة ١٩٦٤م.

ماني[١] كما كان لها لغة ذات أدب وحكمة، هي اللغة «الفهلوية».

ولما فتح العرب بلاد فارس، وقوضوا عرش الدولة الساسانية، دخل الفرس في الإسلام أفواجا، وصاروا موالي للفاتحين من العرب، وبدخولهم في الإسلام طرحوا دياناتهم السابقة، وأقبلوا على الإسلام يدرسونه، ويتعلموا اللغة العربية لغة القرآن.

ولم يمض زمن حتى أصبحوا أغلب القائمين على الحركة العلمية، والتأليف في مختلف العلوم وأفادت الحضارة الإسلامية فوائد جمة، فكثير من الألفاظ الفارسية التي ليس لها مقابل في العربية نقلت بذاتها إلى اللغة العربية، هي الوسيلة الوحيدة للتفاهم بين المسلمين إلى أن أزالت المغول الخلافة العباسية من بغداد [٢].

---

(١) المانوية – نسبة إلى «ماني» بن فتق بن أبي برزام، أصله من همذان بفارس (٢١٥ – ٢٧١م) [أ].

وأخذت هذه الطائفة عقائدها من التوراة، والفارسية القديمة ثم البوذية، ويقول أتباعها بوجود عقائدها من إلهين لهذا العالم :

أحدهما إله الخير، ويرمزون له بالنور.

والثاني إله الشر ويرمزون له بالظلمة ويسمون الأول إله النور، والثاني إله الظلمة، وانتشرت المانوية في الشرق في بلاد الفرس، والهند والصين، والعرب، وظلت مزدهرة حتى القرن الحادي عشر الميلادي. ووصلت جنوب إيطاليا، وقد دعا القديس أوغسطين إلى هذا المذهب وعمل على نشره ثمان سنوات، وناوءه كل من فالنيان سنة ٣٧٢م ثم تيودوسيس الأول سنة ٣٨١م وأصدرا ضده عدة مراسيم شديدة [ب].

(أ) النديم – أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بابن النديم ت٣٨٠هـ/٩٩٠م الفهرست صـ٥٠٧ – ٥٠٧. ضبطه د/ يوسف علي طويل – دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان ط (١) ليسلر – مرجع سبق صـ١٢١

(ب) حسن إبراهيم حسن مرجع سبق ج١ هامش صـ١٧٧.

(٢) د. عبد الحميد العبادي، محمد مصطفى زيادة، إبراهيم أحمد العدوي الدولة=

وفي ذلك يقول ابن خلدون عند كلامه على «حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم» فيقول: «من الغريب أن حملة العلم من الملة الإسلامية كلهم من العجم، لأن العلوم العقلية إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته فهو أعجمي... مع أن الملة عربية، وصاحب شريعتها عربي، والسبب في ذلك أن الملك في أولها لم يكن علم فيها، ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة، وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم. وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين، ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين، وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء، أي الذين يقرءون الكتاب، وليسوا أميين لما أن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة لما كانوا عربا، فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء، إشارة إلى هذا، فهم قراء لكتاب الله والسنة والمأثورة عن الله، لأنهم لا يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه، ومن الحديث الذي هو في غالب موارده تفسير له وشرح.

قال ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بها: كتاب الله وسنتي» فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فيما بعد، احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ، ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الرواة للتمييز بين الصحيح من الإسناد وما دونه، ثم كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة، وفسد مع ذلك اللسان، فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم حضرية... وبعد العرب عنها وعن سوقها.

والحضر في ذلك هم العجم أو من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم، في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس،

=الإسلامية تاريخها وحضارتها دار نهضة مصر - القاهرة صـ٣٠ حسن إبراهيم حسن المصدر السابق ج٢ صـ٣٥٢.

فكان صاحب صناعة النحو سيبوية (والزجاج) والفارسي (٣٧٧هـ) من بعده الزجاج [(١)] (٣١١هـ) من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم، وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى، ومخالطة العرب، وصيروه قوانين، وفنا لمن بعدهم، وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى، لاتساع الفن بالعراق وما بعده.

وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما نعرف وكذا جملة علماء الكلام، وكذا أكثر المفسرين، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم، فظهر مصداق قوله ﷺ: «لو تعلق العلم بأعناق السماء لناله قوم من فارس».

وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة، وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة، فشغلهم الرياسة في الدولة العباسية، وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها، مع ما يلحقهم من ألأنفة في إنتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع، والرؤساء أبدا يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجري إليها، ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين، وما زالو يرون لهم حق القيام به فإنه دينهم وعلومهم، ولا يحتقرون حامليها كل الإحتقار، حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم، صارت العلوم الشرعية عربية النسب عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبها، وامتهن حملها بما يرون أنهم بعداء عنهم، مشغولون بما لا يجدي عليهم في الملك والسياسية» [(٢)].

ويقول د/ عصام عبد الرؤوف: «والواقع أن ابن خلدون، وغيره أغفلوا دور العرب تماما في ازدهار الحياة الثقافية مثل الأصمعي، والإمام الشافعي،

---

(١) كذا في الأصل ولعله يريد أن يقول: والزجاج من بعدها. والفارسي من بعدهما، لأن الزجاج متقدم على أبي على الفارسي د/ حسن إبراهيم حسن المرجع السابق ج٢ صـ ٣٢١.

(٢) ابن خلدون – مصدر سبق صـ٥٤٣، ٥٤٤.

والقاضي أبي يوسف، وحنين بن إسحاق، والإمام أحمد ابن حنبل، وأحمد بن أبي دؤاد والكندي وغيرهم، كما أن النهضة الثقافية لم تبلغ ما بلغته من تقدم إلا بفضل تشجيع الخلفاء العباسيين [1]. وحتى الأعاجم الذين ساهموا في تقدم الحركة العلمية، كانوا عربا مربى ونشأة، وغلبت عليهم الحياة العربية وتأثروا بها، وكانت الثقافة العربية هي محور دراساتهم وأبحاثهم.

* * *

---

(١) د/ عصام عبد الرؤوف مرجع سبق صـــ١١٧.

أسباب تقدم الحياة الثقافية :

١ ــ إتساع رقعة الدولة:

يقول الأستاذ نيكلسون «وكان لإنبساط رقعة الدولة العباسية، ووفرة ثروتها، ورواج تجارتها، أثر في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل، حتى لقد بدأ أن الناس جميعا من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأنا، غدوا فجأه طلابا للعلم، أو على الأقل أنصار للأدب، وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيا إلى موارد العلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين، ثم يضفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنفات التي هي أشبه شيء بدوائر للمعارف، والتي كان لها أكبر الفضل في إيصال هذه العلوم إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل»[١] وما أن انتهى الخليفة المنصور من بناء عاصمته الجديدة (بغداد) إلا وقد جمع فيها صفوة العلماء من مختلف النواحي، واتخذ وزيره من أسرة البرامكة، وهى أسرة فارسية قديمة، كان من اسلافها منذ قرون (الدلاى لاما) - أي (كبير رهبان الدين البوذي) وعرف هؤلاء البرامكة كيف يرغبون الخلفاء وحاشيتهم في تذوق العلم والدراسات، وجعلوا من بغداد مركزا عٌلميا قدر له أن يطغى على سمرقند بجميع الروائع الأدبية. الصينية، والإيرانية، من الشرق، والمؤلفات السورية، والبيزنطية، من الغرب في وقت واحد [٢] ولم تستغل الخلفاء وفرة الأموال في البذخ والترف الذي نلمسه في قصورهم [٣] بل كانوا يبذلون العطايا بسخاء على العلم والعلماء،

---

(١) د/ حسن إبراهيم حسن مرجع سبق ج٢ صــ٣٣٢ Lis Hist of the Arabs P.٢٨١.

(٢) ليسلر مرجع سبق صـــ١٢٠.

(٣) كان قصر الخليفة هارون الرشيد مفروشا باثنين وعشرين ألف بساط على الأرض وبثمان وثلاثين ألف بساط على الحوائط منها ألف وخمسمائة من الحرير المطرز بالذهب هذا بخلاف الأواني والملابس المرصعة بالأحجار=

فنجد أن الخليفة هارون يغدق على الشعراء ويمنحهم منحا جزيلة تفوق كل وصف، فقد منح (مروان ابن أبي حفصة) في قصيدة مدح واحدة قصيرة، خمسمائة ألف قطعة من الذهب، وخلعة سنية، وستة أرقاء صغار يونانين، وجوادا من جياده المفضلة، وكان كرمه الفائق يجذب ذوي الغايات والمواهب تجاه العاصمة، ولذلك كان يجتمع حوله مجلس لا يباري من الشعراء، والفقهاء، والأطباء، والنحاة، والأدباء، والموسيقيين وذوي العقول الراجحة، وكان على دراية بتقييم آثارهم وأعمالهم ويكافئهم بسخاء، وكان هو نفسه شاعرا، وعالما متبحرا، وخطيبا بليغا، ولم ينتظم بلاط في التاريخ كله جماعة متألقة من رجال الفكر مثل هذه الجماعة [(١)].

وكانت هالة الرشيد في بغداد تتكون من أسماء لامعة، جمعها الرشيد حوله ممن لهم باع طويل في ناحية من نواحي الثقافة، ومن هؤلاء، من الشعراء، أبو نواس، وأبو العتاهية، والعباس بن الأحنف، ومن الموسيقيين: إبراهيم الموصلى، وابنه إسحاق، ومن اللغويين: أبو عبيده، والأصمعى، والكسائي ثم ابن السمان الواعظ والواقدي المؤرخ وكثير غير هؤلاء [(٢)].

=الكريمة، والمطعمة بالذهب، وكانت جذوع الشجر في الحدائق التي لا حصر لها مكسوة بالخشب المطعم بالذهب.

كما أمر الخليفة المقتدر بإنشاء «قصر الثريا» الذي يمكن أن يتصور اتساعه بتسعة آلاف من الجياد، والبغال، والإبل التي كانت ترقد في استبلاطه كما سمى (بقصر الشجرة) لأنه أقيم فيه شجرة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام أبواب القصر ولها ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة، ولكل غصن فروع كثيرة مكللة بأنواع الجواهر على شكل الثمار وعلى أغصانها أنواع الطير من الذهب والفضة إذا هب الهواء سمعت منها الهدير والصفير.

نفس المرجع صـــ١٣٨، ١٣٩.

(١) ليسلر: مرجع سبق صـــ١٤٠.

(٢) د/ أحمد شلبي موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ج٥ التربية الإسلامية – نظمها ت فلسفتها ت تاريخها ص٨١، مكتبة النهضة المصرية ط٦ سنة١٩٧٨.

والواقع أن الخلفاء العباسيين لم يألوا جهدا في سبيل تشجيع الحركة العلمية، فقد كتب الخليفة الرشيد إلى ولاة الأمصار، وإلى أمراء الأجناد يطالبهم بتشجيع العلم وأهله فقال «فانظروا من التزم الآذان عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم، وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب، فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء، واسمعوا قول فضلاء عصركم وعلماء دهركم، وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم – وهم أهل العلم – وبلغ من تشجيع الرشيد للعلم والتعليم أن الغلام كان يحفظ القرآن الكريم وهو ابن ثمان سنين، ويتبحر فى الفقه ويروى الحديث، ويناظر المعلمين وهو بن أحد عشر سنة [١].

وكان الخليفة المأمون أعلم الخلفاء بالفقه والكلام، وله عدة رسائل، لذلك وله من الكتب كتاب جواب ملك البرغر فيما سأل عنه من أمور الإسلام والتوحيد، رسالته في حجج مناقب الخلفاء بعد النبي ﷺ رسالته في أعلام النبوة[٢].

لذلك شجع العلماء على مواصلة البحث والدرس، وعنى بمجالس المناظرة، فكان يدخل عليه من العلماء والمتكلمين جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته واختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل، وناظرهم، وناقشهم كثيرا، حتى وقع اختياره على أفضلهم وكانوا عشرة فقط .

على أن مجالس المناظرة احتدت فيها المناقشات بين المتكلمين حول مسألة خلق القرآن [٣]، وكان المأمون يميل إلى المعتزلة لأن أراءهم تتفق مع

---

(١) عصام عبد الرؤوف مرجع سبق صـــ١٢٤، ١٢٥.

(٢) النديم مرجع سبق صـــ١٨٦.

(٣) اعتنق المأمون رأى المعتزلة في خلق (القرآن) فقد نفى المعتزلة صفة الكلام عن الله تعالى لأنها من صفات الحوادث، وحتى لا يتعدد القدماء، وما جاء في القرآن من آيات تثبت كلام الله كقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ النساء : ١٦٤ فقد أولوها بأن الله خلق الكلام في الشجرة فسمعها موسى،=

العقل والمنطق [١].

٢- الترجمة:

لم يكن لترجمة الكتب إلى اللغة العربية حظ كبير في عهد بني أمية، وكان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، أول من عنى بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية، فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين في مصر وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيرا من الكتب اليونانية، والقبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية، وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء [٢] وممن نقلوا له هذه العلوم اصطفن القديم [٣].

=أما الفقهاء والمحدثون فقد أثبتوا صفة الكلام لله تعالى وقالوا بأنها غير مخلوقة، وقالت المعتزلة أن الله وصفاته لا تقبل التجزئة بحال من الأحوال وأن الله وصفاته لا يلحقها تغيير، ولا تقوم بها المحدثات، وعليه فمحال أن يكون القرآن كلام الله على معنى أنه صفة من صفاته، وأدى هذا الجدل إلى إحتدام الأزمة بين الناس، وقوبل هذا الرأى بالرفض ومعارضة شديدة من الفقهاء وعامة الناس.

وكان السبب في هذا الجدل بين المترجمين من النصارى له أثره في تصرف هؤلاء النصارى على ما جاء في القرآن الكريم من وصف لعيسى بن مريم بأنه رسول الله وكلمته، وقول الفقهاء بأن القرآن وهو كلام الله غير مخلوق، يؤدي إلى القول بقدمه مما يتخذه النصارى ذريعة لافحام المسلمين بأن المسيح إله، أو قديم كقدم الإله مستدلين بما وصفه به القرآن من أنه كلمة الله، ولذلك كان من رأى المأمون والمعتزلة، وهم الذين يدافعون عن الإسلام.

أما أهل الديانات الأخرى أن يقول المسلمون بأن القرآن مخلوق ويبطلوا كل الحجج أمام النصارى الذين يريدون أن ينتزعوا من الإسلام اعترافا بقدم عيسى عليه السلام فلم يجدوا أما مهم بدا من إجبار الناس ولو بالقوة على القول بخلق القرآن (راجع في ذلك كتاب تاريخ المذاهب الإسلامية الشيخ محمد أبو زهرة صـ١٧٥ - ١٧٩ محمد أحمد محمود حسب الله مرجع سبق صـ١٣٤ - ١٣٦.

(١) د/ عصام عبد الرؤوف مرجع سبق صـ١٢٥.

(٢) حسن إبراهيم حسن مرجع سبق ج١ صـ٤١٦، ٤١٧، ج٢ صـ٣٤٥.

(٣) النديم مصدر سبق صـ٣٩٨.

وكذلك عريث الدواوين منذ عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦هـ/ ٦٨٤ – ٧٠٥م) بعد أن كانت بالفارسية واليونانية فنقل ديوان مصر من اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦هـ/ ٦٨٤ – ٧١٤م)(١).

ولما قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس، إتجهت ميول الخلفاء إلى معرفة علوم الفرس، واليونان، فعنى الخليفة أبو جعفر المنصور بترجمة الكتب (٢)، ونقل له حنين ابن إسحاق بعض كتب أبقراط وجالينوس،

وكان حنين بن إسحاق وابن أخته حبيش بن الحسن أوفر المترجمين إنتاجا ؛ ونظرا لأنهم كانوا يشتغلون معا فنجد كتبا كثيرة تنسب لواحد منهم تارة، وللآخر تارة أخرى وشملت ترجمتهم كل علوم تلك الزمان، وكانوا يصلحون التراجم الموجودة ويترجمون كتبا جديدة، وكان حنين يؤثر كتب الطب أما إبنه إسحاق أميل إلى ترجمة كتب الحكمة وخدم من خدم أبوه من الخلفاء والرؤساء (٣).

وكان الخليفة المأمون عالما متقفا، فأولى النهضة العلمية عنايته الكاملة فاتجه إلى أن يحصل عدد ضخم من كتب القدماء، فوفق بطرق شتي إلى الحصول على مجموعات نادرة، وضعها في خزانة الحكمة وعين خيرة المثقفين، من المترجمين لينقلوا إلى اللسان العربي (٤).

ومن أشهر المترجمين في ذلك العهد – الحجاج بن مطر، نقل المجطى واقليدس، حبيب بن بهريز، مطران الموصل. فسر للمأمون عدة كتب، أبو

---

(١) المقريزي: تقي الديم أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ط٢ ج١صـ٩٨ مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة ١٩٨٧م.
(٢) عصام عبد الرؤوف مرجع سبق صـ١٠٥.
(٣) النديم مرجع سبق صـ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٧.
(٤) د/ أحمد سلبي – التربية الإسلامية صـ١٦٣.

عمرو يوحنا بن يوسف الكاتب نقل كتاب أفلاطون في آداب الصبيان، قسطا بن لوقا البعلبكي جيد النقل فصيح اللسان اليوناني والسرياني والعربي نقل أشياء كثيرة، وغيرهم الكثير [١].

ولما قويت حركة الترجمة في عهد الخليفة المأمون، أرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في جميع فروع العلوم. ويروى ابن النديم أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون، فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة، منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ممن اختاروا، وقيل أن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم [٢].

ولم تكن العناية قاصرة على الخليفة المأمون بل اهتم جماعة من ذوي اليسار في عهده في هذا المجال ومنهم أبناء موسى بن شاكر وهم محمد وأحمد والحسن بنو شاكر المنجم، فقد أنفقوا أموالا كثيرة وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلد الروم، فجاءهم بطرائف الكتب، وغرائب المصنفات في الفلسفة، والهندسة، والموسيقى والطب، وكلفوا كل من حنين بن إسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة وغيرهم، وجعلوا لهم رواتب شهرية نحو خمسمائة دينار في الشهر للنقل والترجمة [٣].

وكان من أثر نشاط حركة النقل والترجمة في عهد الخليفة المأمون، أن اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي ترجمت إلى العربية، وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها، وإصلاح أغلاطها، ومن هؤلاء يعقوب بن

---

(١) النديم – مصدر سبق صـــ٣٩٩، ٤٥٤.
(٢) نفس المصدر ٣٩٧، ٣٩٨.
(٣) نفس المرجع صـــ٣٩٨ حسن إبراهيم حسن ج٢ صـــ٣٤٦.

إسحاق الكندي، الذي نبغ في الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة، وعلم النجوم وقد حذا في تأليفه حذو أرسطو، وترجم كثير من كتب الفلسفة وشرح غوامضها [١].

ومن العلماء الذين طافوا البلاد سعيا وراء علم ينتفع به، الطبري – أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري – ت٣١٠هـ ٩٢٢م – طاف البلاد لتحصيل العلم فتنقل بين مصر والشام، والعراق، والكوفة، والبصرة، والرى، وكان متفننا في جميع العلوم "علم القرآن والنحو والشعر واللغة والفقه" ، كثير الحفظ، وانقطع أربعين عاما لعمل تاريخ جامع من حوليات الرسل والملوك منذ بدء الخليقة حتى سنة ٩١٣م/ وما وجد في هذا الكتاب يشغل خمسة عشر جزءا، ويقال أن الكتاب الأصلى أكبر من ذلك عشر مرات [٢].

وكذلك المسعودي • يعرف بأبي الحسن بن الحسين بن على المسعودي، وقد درس المسعود الجغرافيا وعلم الحياة، والتاريخ، والعادات، والدين والعلوم في جميع البلاد من الصين إلى فرنسا. صنف لكتب التواريخ، وأخبار الملوك، وله من الكتب كتاب يعرف بمروج الذهب ومعادن الجواهر في تحف الأشراف والملوك وأسماء القرابات، (نشره في ثلاثين مجلدا ثم اختصره في مجلد واحد) وكتاب ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور، كتاب الإستذكار لما مر في سالف الأعصار، كتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم [٣].

وهذه الكتب هي المصادر الأولى للعلوم الحديثة بأوسع ما تحتمله كلمة العلوم ن معنى، وهي مرجع العلماء والباحثين، ومنها يستمدون فنونا من

---

(١) حسن إبراهيم حسن ج٢ صـ٣٤٧.
(٢) النديم مصدر سبق صـ٣٨٥.
(٣) المصدر السابق صـ٢٤٨ ليسلر مرجع سبق صـ٩٨٠.

الثقافة والمعرفة أعمق بكثير مما يظن الناقد [١].

ومن الطبيعي أن يكون العصر العباسي الأول أنسب العصور ملائمة للنهضة الثقافية، فمدنية الإسلام بدأت فيه تستقر بعد هدوء حركة التوسع والفتوح التي كانت طابع العصر الأموي، والثقافة تنتشر في الأمة إذا هدأت واستقرت أمورها، وانتظم ميزانها، الإقتصادي.

وتوالت هذه الأسباب بعد قيام الدولة العباسية فظهر في هذا العصر نخبة من الشعراء، والفلاسفة، والمؤرخين، والرياضيين، ورجال الدين، وقادة الفكر الذين أكسبوا اللغة العربية أغنى تراث أدبي [٢].

وقد توقفت الترجمة تقريبا بعد الخليفة الواثق ولم يعد من السهل على الباحث ذكر للمترجمين في الكتب العامة والخاصة، ولعل السبب في ذلك أن النشاط الكبير الذي حظيت به الترجمة من قبل قد نقل إلى اللغة العربية أمهات الكتب، في الفنون المختلفة، أو أن المسلمين بعد أن أطلعوا على ما ترجم في بيت الحكمة، وما عاصرها من مكتبات استطاعوا أن ينتجوا بلغتهم ثقافة، وعلما، وفلسفة، كانت مجالا لنشاطهم العلمي في العهود التالية [٣].

كما اشتهر عن الخليفة الواثق أن الكتاب حدثت لهم نكبة في عهده ظنا منه بأنهم يرتشون، فقد تسلم بيت المال مبالغ كبيرة منهم ومن هؤلاء الكتاب:

١- أحمد بن الخصيب – وكتابه ١٠٠٠,٠٠٠ دينار.
٢- سليمان بن وهب كاتب إيتاخ ٤٠٠,٠٠٠ دينار.
٣- أبو الوزير ١٤٠,٠٠٠ دينار.
٤- إبراهيم ابن رباح وكتابه ١٠٠,٠٠٠ دينار.
٥- الحسن بن وهب ١٤,٠٠٠ دينار [٤].

---

(١) أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامي مرجع سبق ج٣ صـ٢٢٨.
(٢) المصدر السابق صـ٢٢٨، ٢٢٩.
(٣) د/ أحمد شلبي التربية الإسلامية مرجع سبق صـ١٦٤.
(٤) د/ أحمد شلبى ـ المرجع السابق ص ١٦٥ .

٣- الـــــورق [(١)]:

كان ورق البردي الذي اشتهرت به مصر منذ عهد بعيد كثير، الإستعمال في بغداد حتى أوائل العصر العباس الثاني [(٢)].

وكان في بغداد كميات هائلة منه، ويحدثنا الجهيشاري «أن الخليفة المنصور وقف على كثرة القراطيس في خزائنه، فدعى أحد أعوانه وقال له أمرت إخراج حاصل القراطيس من خزائننا فوجدته شيئا كثيرا جدا، فتولى بيعه. ولكن المنصور تدارك ما قد ينجم عن ذلك فدعى الرجل، وقال له فكرت في كتبنا وأنها قد جرت في القراطيس وليس يؤمن من حادث في مصر فتنقطع القراطيس عنا بسببه فدع القراطيس على حالها [(٣)].

وعندما اتصل العرب بسمرقندي في سنة ٩٣هـ/٧١١م أذاعوا فيها طريقة تعطين الكتان، وتشكيل عجينة منه، تنتهي إلى أوراق رقيقة جدا، وهذه العجينة تحل محل الورق الأبيض الأملس، والرق (الجلد) اللذين كانا

---

(١) يقال أن أول من كتب آدم على الطين، ثم كتبت الأمم بعد ذلك برهة من الزمان في النحاس والحجارة للخلود، هذا قبل الطوفان، وكتبوا في الخشب وورق الشجر للحاجة في الوقت، ثم دبغت الجلود فكتب الناس فيها، وكتب أهل مصر في القرطاس ويعمل من قصب البردي (وهو نبات يعلوا فوق الذراع) وقيل أن أول من عمله سيدنا يوسف ﷺ، والروم تكتب في الحرير الأبيض والرق وغيره، وجلود الحمير الوحشية وكانت الفرس تكتب في جلود الجواميس والبقر والغنم، والعرب تكتب في اكتاف الإبل والحجارة، وعسب النخل، والصين تكتب في الورق الصيني، ويعمل من الحشيش، والهند في النحاس، والحجار، والحرير الأبيض وأما الورق الخرساني فيعمل من الكتان، وقيل أن صناعا من الصين عملوه بخرسان على مثال الورق الصيني، وأنواعه السليماني، الطلحي، النوحي، الفرعوني، الجعفري الظاهري.
النديم مصدر سبق صـــ٣٣، ٣٤.

(٢) حسن إبراهيم مرجع سبق ج٣ صـــ٣٢٥.

(٣) د/ عصام عبد الرؤوف مرجع سبق صـــ١٢١، ١٢٢.

نادري الوجود، وأثمانها غالية، وسرعان ما استبعد الكتان وحل محله القطن لأنه أقل تكلفة، وهو منتشر في الشرق، وقد جعل الوزير الفضل البرمكي الصناعة الأولى للورق في بغداد سنة ١٧٨هـ ٧٩٤م وهذه الصناعة انتشرت بسرعة لمواجهة الإستهلاك المتزايد بسبب الترجمات كما أن الشغف بالكتب يستلزم الإكثار من صناعة الورق، ثم انتشر الورق في جميع البلاد الإسلامية حتى بلغ اسبانيا، وقد اقتضى ذلك ثلاثة قرون لكي ينتقل إلى أوربا[١].

٤- دور الكـتب :

أ- بيت الحكـمة :

يرجع الفضل في تأسيس بيت الحكمة إلى الخليفة هارون الرشيد، وكان ذلك بتشجيع من وزيره يحيى بن خالد البرمكي الذي كان يشرف على شئون الدولة بوجه عام، وعلى النهضة الثقافية بوجه خاص، وهو فارسي الأصل والثقافة فاهتم بأن ينقل إلى العربية الوانا من ثقافة الفرس، فجلب إلى بيت الحكمة مجموعة من الكتب الفارسية وعين لترجمتها أشخاصا لهم السيطرة على اللغة الفارسية، ومعرفة باللغة العربية [٢] أمثال أبي الفضل بن نوبخت، ويقول بن النديم في ترجمة أبي سهل «أنه كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد، وكان عارفا فاضلا وله من الكتب «كتاب مفاتيح القضاء، كتاب المواليد الكبير، كتاب الهيئة وعلم الحساب، كتاب الأمطار والرياح، وغيرها..[٣] كما ذكر في ترجمة علان الشعوبي «أن أصله من الفرس وكان راويا عارفا بالأنساب، منقطعا للبرامكة وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون وللبرامكة، وله من الكتب كتاب الميدان في المثالب ويحتوي على

---

(١) ليسلر مرجع سبق صـ١٢٠، ١٢١.
(٢) د/ أحمد شلبي التربية الإسلامية مرجع سبق صـ١٨٢.
(٣) النديم مصدر سبق صـ٤٣٨.

صناعات قريش وتجارتها ومثالب ما في قبائل العرب، وله كتب في أنساب العرب [١].

وكان الخليفة يعين المترجمين في بيت الحكمة، ويعين لهم رئيسا يتفقد أعمالهم ويراجعها ويصححها مثل يوحنا بن ماسويه وكان «نصرانيا» وهو أبو زكريا يحيى بن ماسويه – وكلفه المأمون ترجمة الكتب الطبية القديمة التي حصل عليها من بلاد الروم ، وظل يباشر عمله أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وتوفى وله من الكتب – كتاب الكمال والتمام، وغيره الكثير من كتب علاج الأمراض [٢] وكذلك الخوارزمي واسمه محمد بن موسى من خوارزم، كان منقطعا إلى خزانة الحكمة للمأمون، وهو من أصحاب علوم الهيئة (الفلك) ومن أهم كتبه، كتاب العمل بالإسطرلاب، كتاب الاسطرلاب، كتاب التاريخ [٣].

كما ضم بيت الحكمة كتبا وضعت في الأصل بلغات مختلفة، وأهمها الكتب اليونانية، والفارسية، والهندية، والقبطية، والآرامية، ومن أجل هذا كان المترجمون كثيرون، يترجمون في جميع اللغات.

غير أن نشاط الحكمة وصل إلى ذروته في عهد الخليفة المأمون الذي كان واسع الثقافة، وله شغف بالعلوم ولآداب، ومن أجل هذا أولى بيت الحكمة عناية خاصة، كان من نتائجها تطور الثقافة عند المسلمين، ودخول العلوم الأجنبية إليهم واحتضانهم هذه العلوم مما أدي إلى حفظ التراث للأجيال التالية [٤].

---

(١) نفس المصدر صـــ١٦٩، ١٧٠.
(٢) نفس المصدر صـــ٤٦٥.
(٣) النديم المصدر السابق صـــ٤٣٨.
(٤) د/ أحمد شلبي المرجع السابق صـــ١٨٢.

وكان صاحب بيت الحكمة يشرف على العاملين فيه، وعليه أن يرتب الكتب ويعد فهارسها، ويصنفها، وضم بيت الحكمة عدة طوائف، طائفة النساخ، وطائفة المترجمين، وطائفة المفسرين، وطائفة الفلكين والمنجمين، وطائفة الكتبة، وطائفة المجلدين، وكان الناسخ ينسخ ما يطلب منه نظير أجر، وعليه أن يرتب أوراق كل نسخة بعد جمعها وإصلاح ما قد يظهر فيها من أخطاء (١).

وكان العلماء في الدولة الإسلامية يودعون نسخا من مؤلفاتهم في بيت الحكمة، على أن بيت الحكمة ضعف شأنه في عهد الخليفة المعتصم (٢).

ولم يجد هذا العهد بعد المأمون من يمنحه عناية المأمون ورعايته وكان أول ما قل من شأنه أنه يتولى المعتصم الخلافة بعد المأمون، وهو قليل المعرفة بالثقافة، فأصيب بيت الحكمة بصدمة بسبب هجر الخلفاء بغداد إلى سامراء، ومع ذلك ظلت هذه الخزانة حتى دهم التتار بغداد وقتل الخليفة المستعصم عل يد هولاكو فذهبت خزانة الكتب، وذهبت معالمها (٣).

ب- وكان هناك مكتبات خاصة بالخلفاء :

١- مكتبة الخليفة الناصر لدين الله ، (٥٧٥هـ/ ٦٢٢هـ) :

فشخصيته القوية وطول مدة حكمه اتاحا له أن يعيد مجد الخلافة ويرد لها هيبتها، وكان مما إلتفت إليه الناصر، وأولاه عنايته أن رعى الناحية العلمية واستدعى هذا أن يكون له مكتبة خاصة ضخمة (٤).

وفي ذلك يقول ابن القفطي في ترجمة أبي الرشيد مبشر بن أحمد

---

(١) د/ عصام عبد الرؤوف مرجع سبق صـ١٢٦.
(٢) نفسه صـ١٢٦.
(٣) د/ أحمد شلبي نفس المرجع صـ١٨٤.
(٤) د/ أحمد شلبي التربية الإسلامية مرجع سبق صـ١٩٤.

الحاسب أن «مبشر بن أحمد تميز في أيام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد وقرب منه واعتمد في اختيار الكتب التي وقفها الناصر بالرباط الخاتوني السلجوقي، والمدرسة النظامية وبدار المسناه، فإنه أدخله إلى خزائن الكتب بالدار الخليفية وأفرده لإختيارها [١].

٢- مكتبة الخليفة المستعصم بالله:

هو آخر الخلفاء العباسيين تولى الخلافة سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م وقتله المغول عقب سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م [٢] كان له مكتبة عظيمة، حيث يقول ابن الفوطي أمر سنة ٦٤١هـ/ بعمل خزانة للكتب في داره وكتب على جبهتها أشعار منها ما نظمه صفي عبد الله بن جميل متقدم شعراء الديوان:

أنشأ الخليفة للعلوم خزانة ... سارت بسيرة فضله أخبارها

أهدى مناقبه لها مستعصم ... بالله لألأ به أنوارها [٣]

ويقول ابن طباطبا – أن الخليفة المستعصم استجد في آخر أيامه خزانة كتب، ونقل إليها نفائس الكتب، وسلم مفاتيحها إلى عبد المؤمن بن فاخر، فصار عبد المؤمن يجلس بباب الخزانة ينسخ له ما يريد، وإذا حضر الخليفة للجلوس في خزانة الكتب جاء إليها، وعدل عن الخزانة الأولى التي كانت مسلمة للشيخ صدر الدين على بن التيار [٤].

---

(١) نفس المرجع صـ١٩٤.

(٢) ابن القوطي: كمال الدين أبي الفضل عبد الرازق أحمد الشيباني ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة صـ٣٢٨، مطبعة الفرات – بغداد ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

(٣) نفس المرجع صـ١٨٤.

(٤) ابن طباطبا – مصدر سبق صـ٢٩٨، د/ أحمد شلبي – المرجع السابق ص١٩٤.

جـ- مكتبات علماء :

هذه المكتبات أنشأها العلماء والأدباء لاستعمالهم الخاص وهذا النوع من المكتبات كان كثيرا جدا وواسع الانتشار إذ كان من الصعب أن نجد عالما أو أديبا دون أن يكون له مكتبة يرجع إليها [١] ونذكر منها:

١- مكتبة الفتح ابن خاقان بن أحمد :

كان صديقا للخليفة المتوكل وكان يقدره ويقدمه على أولاده، وكان الفتح عالما وأديبا، وله مكتبة، لم يرى أعظم منها كثرة وحسنا جمعها له على بن يحيى المنجم ويجتمع فيها فصحاء الأعراب وعلماء الكوفيين والبصريين.

قال أبو هفان: ثلاثة لم أرقط ولا سمعت أحب إليهم من الكتب والعلوم، الجاحظ،والفتح بن خاقان، وإسماعيل بن إسحاق القاضي، فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان، حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين، ويبيت فيها للنظر، والفتح بن خاقان كان يحضر لمجالسة المتوكل، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتابا فلا يزال يطالعه في ممره وعوده فإذا وصل إلى الحضرة الخليفية أعاده حيث كان. وأما إسماعيل ابن إسحاق فإني ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر في كتاب، أو يقلب كتبا، أو ينفضها .

أما الكتب التي استكتبها الفتح فكانت كثيرة كتبها له نوابغ الرجال في ذلك الوقت ومنها «كتاب البستان» ألفه له محمد بن عبد ربه وكتاب اختلاف الملوك، كتاب الروضة والزهر [٢] كما ألف له بن حبيب كتبا أخرى، يصفها ابن النديم بأنها لم ير أعظم منها كثرة وحسنا [٣].

---

(١) د/ أحمد شلبي نفس المرجع صـ١٩٩.
(٢) النديم مصدر سبق صـ١٨٦، ١٨٧.
(٣) نفس المصدر صـ١٧١.

٢- مكتبة حنين بن إسحاق :

هو حنين بن إسحاق العبادي، ويكنى أبا زيد، والعبادي نصارى الحيرة توفي سنة٢٦٦هـ ٨٧٩م كان فاضلا في صناعة الطب فصيحا باللغة اليونانية، والسريانية والعربية، سافر إلى بلاد كثيرة وخاصة بلاد الروم ليجمع الكتب القديمة. وهو من أبرز المترجمين في عهد الخليفة المأمون، وتتميز مكتبته بثروة وافرة من كتب الطب والكتب المكتوبة باللغات الأربع التي كان يجيدها، وذكر ابن النديم عدد كبير من هذه الكتب، ومنها «كتاب المسائل في الطب، مقالة في اللبن، كتاب الأغذية وكتاب علاج العين عشر مقالات، كتاب آلات الغذاء، الخ [(١)].

٣- مكتبة سابور (دار العلم) :

أنشأ هذه الخزانة أبو نصر سابور بن أردشير المتوفي سنة٤١٦هـ. وكان وزيرا لبهاء الدولة (٣٧٩ - ٤٠٣هـ) في خلافة الخليفة الطائع ببغداد[(٢)].

فقد أسسها سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م وقف لها دار بالكرخ في بغداد ونقل إليها كتب بلغ عددها عشرة ألاف وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم منها مائة مصحف.

وكانت هذه الخزانة مركزا علميا وثقافيا يلتقى فيها العلماء، والباحثون

---

(١) النديم المصدر السابق صـ٤٦٣، ٤٦٤.

(٢) كان بهاء الدولة أحد سلاطين الدولة البويهية، الذين توسعوا في فارس ثم استولوا على العراق، وكان لسياستهم أسوأ الأثر على الخلافة العباسية، فلم تقتصر سياستهم على الحد من نفوذ الخليفة العباس في بغداد بل عملوا على نشر مذهب الشيعة، وارغام الناس على الاشتراك في أعيادهم، وامتد نفوذهم في جميع البلاد التابعة للدولة العباسية، حسن إبراهيم حسن مصدر سبق ج٣ صـ١٤٥ بتصرف.

والقراء. كما عقدت فيها الندوات والمناقشات العلمية [(١)]. وتردد عليها أبو العلاء المعري أثناء إقامته ببغداد [(٢)].

وترك عند وفاته عام «٣٥٢هـ/ ٩٦٣م» مجموعة من ١١٧,٠٠٠ مجلد، أليس هذا أدل على ما نقرأه من أن بعض الوزراء لم يكن يخرج إلى رحلة إلا ومعه حمولة ثلاثين جملا من الكتب تصحب ركبه[(٣)].

د- مكتبات المدارس والمساجد :

لقد أولت الحكومات عنايتها بالعلم في مختلف فروع المعرفة، وجعلت لكل مسجد ومدرسة مكتبة مزودة بمجموعة ضخمة من الكتب، ومن هذه المكتبات.

١- مكتبة المدرسة النظامية :

بعد أن استولى السلاجفة على بغداد (وهم سنة) حلوا محل البويهين (الشيعة) وكان نظام الملك وزيرا للسلطان ألب أرسلان، ومواهبه المتعددة ساعدته على إدارة شئون الدولة التي سيطر على أمورها، بالإضافة إلى نجاحه في السياسة وتدبير الملك، فإن بابه مجمع الفضلاء وملجأ العلماء، وكان نافذا بصيرا ينقب عن أحوال كل منهم فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه... ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره وتدريسه [(٤)].

وبني نظام الملك المدارس، والربط، والمساجد في البلاد، وأمدها بما

(١) د/ أحمد شلبي التربية الإسلامية صـ١٨٧، ١٨٨.
(٢) د/ أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامي ج٣ صـ٤١٣.
(٣) هونكه مرجع سبق صـ٣٨٦.
(٤) الأصفهاني – عماد الدين تاريخ السلجوق صـ٥٦ – ٥٧ شلبي صـ٣٦٢ – ٣٦٣.

تحتاج إليه من كتب، وعين لها المدرسين، والطلاب، والخدم وبذل لهم العطايا الكريمة فأحيا بذلك معالم الدين (١).

وكان نظام الملك عالما وفقيها، ولما خرج له الإمام الغزالي وناقش الأئمة، والصلحاء في مجلسه، وظهر كلامه على الجميع، ولاه نظام الملك التدريس بالمدرسة النظامية في بغداد (٢). وزود جميع المدارس بالمكتبات القيمة، وكانت نظامية بغداد أولى المدارس وأشهرها فنالت مكتبتها عناية خاصة، وأصبحت أعظم المكتبات المعاصرة لها وأشهرها (٣).

ثم أوقف على تظامية بغداد أوقافا تدر لها ريعا قدره ١٥,٠٠٠ دينار في العام، وهذا الريع كافيا لمرتبات الشيوخ، وما ينفع للطلبة، وكان يشمل مؤنة طعامهم، وملابسهم، وفرشهم، وغير ذلك من ضرورات معاشهم، حتى نبغ فيها جمع من الفقهاء الأفاضل من لا يحصون كثرة (٤).

وعندما زار ابن جبير بغداد، وجد بها نحوا من ثلاثين مدرسة وقال أنه ما فيها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها، وأعظمها وأشهرها – النظامية التي بناها نظام الملك ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات واسعة، للإنفاق على الفقهاء، والمدرسين بها، وللإجراء على الطلبة (٥).

ومن إصلاحات نظام الملك أنه أبطل ما إبتدعه الشيعة، وأوقف المكوس. والضرائب، وأزال لعن الأشعرية من المنابر، وأحسن للرعية (٦).

---

(١) أحمد شلبي ٣٦٢، ٣٦٣.
(٢) أحمد شلبي المرجع السابق صـ٩٢.
(٣) نفس المرجع صـ١٩١.
(٤) د/ أحمد شلبي – نفس المرجع صـ٣٦٥، ٣٧٣ بتصرف.
(٥) ابن جبير الرحلة صـ٢٢٩.
(٦) ابن الأثير مصدر سبق ج١٠ صـ١٤١.

٢- مكتبات المساجد :

ومن مكتبات المساجد مكتبة (خزانة) الوقف بمسجد الزيدي، وهو أبو الحسن على بن أحمد المتوفي سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، فكان شريف النسب معروف بالزهد، بني مسجدا، ووقف له مكتبة لينتفع الناس بها [(١)].

وتلقت هذه المكتبة منحتين من الكتب:

أحداهما: من عمر بن محمد بن عبد الله الدمشقي، وشهرته أبو الخطاب العليمي، وكان تاجر، ثم زار بغداد، واتصل بالزيدي، وعاهده أن يوقف مكتبته على خزانته ببغداد، فلما توفى عمر أرسل أخوه الكتب إلى بغداد، ووصلت بعد وفاة الزيدي ووضعت في خزانة المسجد، والثانية - هي أن ياقوت الحموي. (صاحب كتاب معجم البلدان) أوقف كتبه على مسجد الزيدي [(٢)].

وعلاوة على مكتبات المساجد الخاصة، كان لكل مستشفى يستقبل زواره، قاعة فسيحة صفت على رفوفها الكتب الطبية الحديثة الصدور، تباع لتكون مادة لدراسة الطلاب، ومرجعا للأطباء [(٣)].

٥- اهتمام الخليفة المستنصر بالعلم :

شهدت فترة الخليفة المستنصر بالله (أبو جعفر المنصور بن الظاهر) (٦٢٣هـ/ ٦٤٠م - ١٢٢٦ - ١٢٤٣م) إزدهار في الحركة العلمية[(٤)] فكان

---

(١) د/ أحمد شلبي نفس المرجع صـ١٨١.
(٢) أحمد شلبي المرجع السابق صـ١٩٨ - ١٩٠.
(٣) هونكه مرجع سبق صـ٣٨٦.
(٤) د/ طه الخطيب السياسة الداخلية والخارجية للدولة العباسية في الفترة ٦٢٢هـ/٦٤٠هـ/ ١٢٢٥ - ١٢٤٠م رسالة ماجستير سنة ١٤٦٣هـ/ ١٩٩٣م صـ١٤٤ - ١٤٥.

يعظم أهل العلم، ورجال الدين والأدب – ويجالسهم ويستمع لهم [١].

ومن حبه للعلم أنشأ خزانة كتب في قصر الخلافة جمع فيها أنواع العلوم المختلفة [٢] وبفضله إتسعت حركة التأليف والتصنيف، حيث ألفت المعاجم والدواوين والكتب في مختلف العلوم – ومنها «الحساب، والفرائض، وأحوال الصوفية، وأنساب الطير والحمام، والتاريخ، والأدب، وكثرت دور الكتب الخاصة والعامة [٣].

وبيعت الكتب في أيامه بأعلى الأثمان لرغبته في اقتنائها، وحسن خطوطها، ووقفها على أهل الفضل، وإنشاء المكتبات في المساجد والمدارس[٤].

فعندما أنشأ مسجد قمرية ببغداد سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م رتب فيه الإمام والمحدث مع ثلاثين صبيا يتلقون القرآن الكريم، والحديث وجعل به خزانة كتب [٥].

كما اهتم كبار رجال دولته بإنشاء المدارس فأنشأ الأمير «إقبال

---

(١) وممن كان يجالسهم الخليفة المستنصر بالله – الشيخ على بن الخطابً بن مقلد أبا الحسن الضرير، والذي أقام في قصر الخلافة خمسة أشهر يعلم الجواري القرآن. الصفدي – صلاح الدين خليل بن أيبك ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م، نكت الهميان في نكت العميان صـ٢١١ المطبعة الجمالية – مصر ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.

(٢) الإربلي – عبد الرحمن سنبط قنينو ت٧١٧هـ/ ١٣١٧م خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك صـ٢١١ مطبعة الروم الأرثوزكسي ١٨٨٥م الأغطبي – على ظريف – الأعظمي، مختصر تاريخ بغداد صـ١١٠.

(٣) ابن الفوطي مصدر سبق صـ١٨، ٣٨، ١٣٥.

(٤) د. ناجي معروف – تاريخ علماء المستنصرية صـ٣٨٠، مطبعة الشعب ط٣ القاهرة.

(٥) ابن الفوطي – المصدر السابق صـ٤، ١٨٨.

الشرابي» «المدرسة الشرابية»، وأنشأ الأمير «باتكين» مدرسة البصرة [١].

ويلاحظ أن المدارس كانت تبني لأبناء طوائفها فقط كما قال ابن الجوزي: «أن المدرسة النظامية بنيت وقف لأصحاب الشافعية، والأملاك الموقوفة لأصحاب الشافعية أصلا وفرعها» [٢].

كما كانت تبني مدارس الطب مستقلة كالمارستان (المستشفى) العضدي بالجانب الغربي من بغداد، ومدرسة الطب التي أنشأها الأمير أبو المظفر باتكين في البصرة سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣٠م [٣].

وبنيت دور القرآن مستقلة أو في داخل المساجد، وكذا بنيت دور القرآن، والحديث معا، أو في المساجد [٤].

ولما كان الخليفة «المستنصر بالله» يهتم بالعلم والعلماء، وأراد النهوض بالحركة العلمية أنشأ المدرسة المستنصرية، وجمع فيها جميع فروع العلم، وبعد افتتاحها شرع الناس في تقليدها في العراق، ومصر، والشام، والحجاز وأنشأوا مدارسهم على صفتها من حيث هندسة البناء.

فقد سبقت بغداد بذلك جميع البلاد العربية والإسلامية [٥].

---

(١) نفس المصدر صـ٢٤، ٢٥، ٣٠٨.

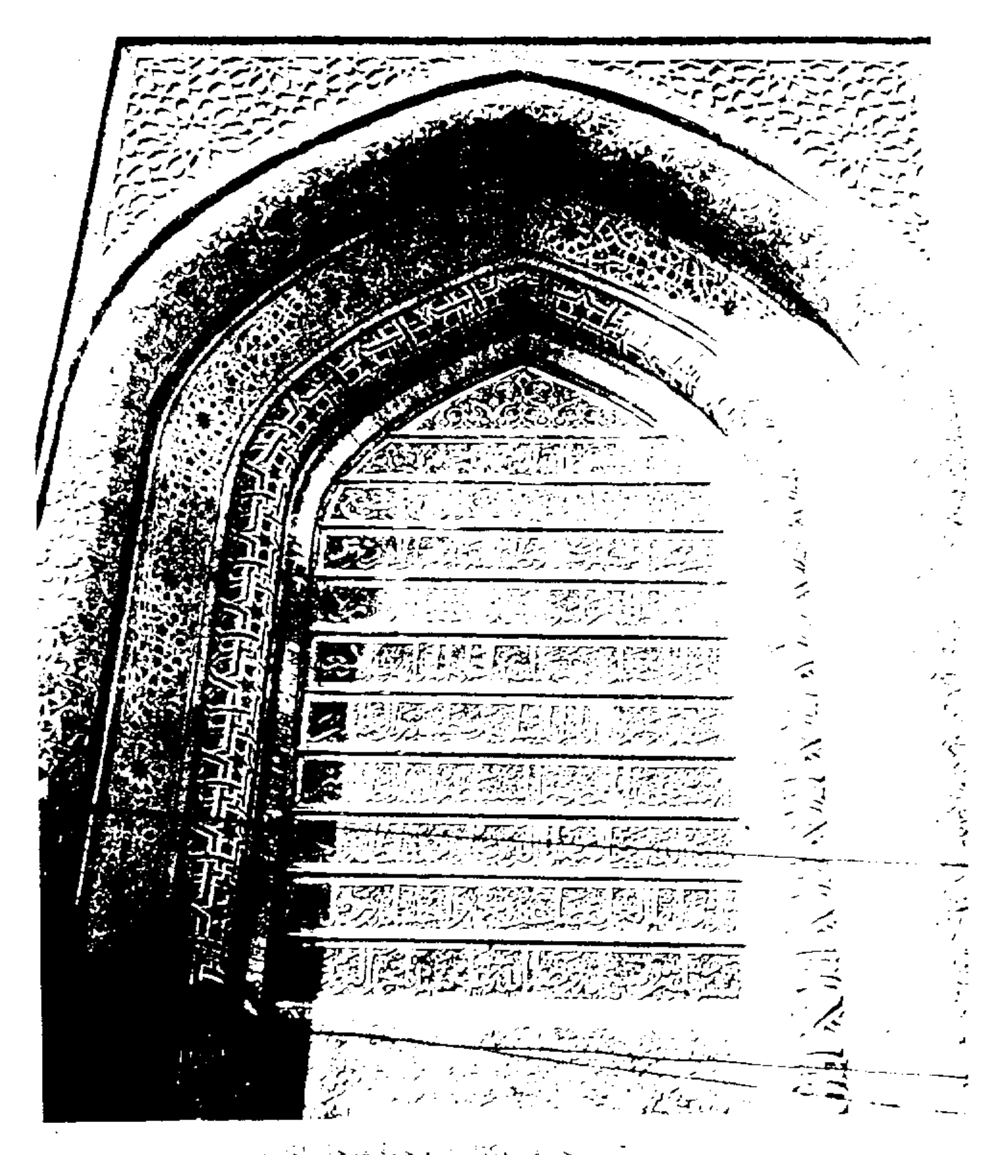
(٢) ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن عليى ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٠ مجلدات) (مطبوع منه من الخامس إلى العاشر) ج٩ صـ٩٠ مطبعة دائرة المعارف العثمكانية حيدأباد – الدكن الهند ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م.

(٣) ابن الفوطي: المصدر السابق صـ٣٣، ١٨١.

(٤) نفس المصدر صـ٤، ١٥٨.

(٥) ناجي معروف – مصدر سبق صـ٣٠.

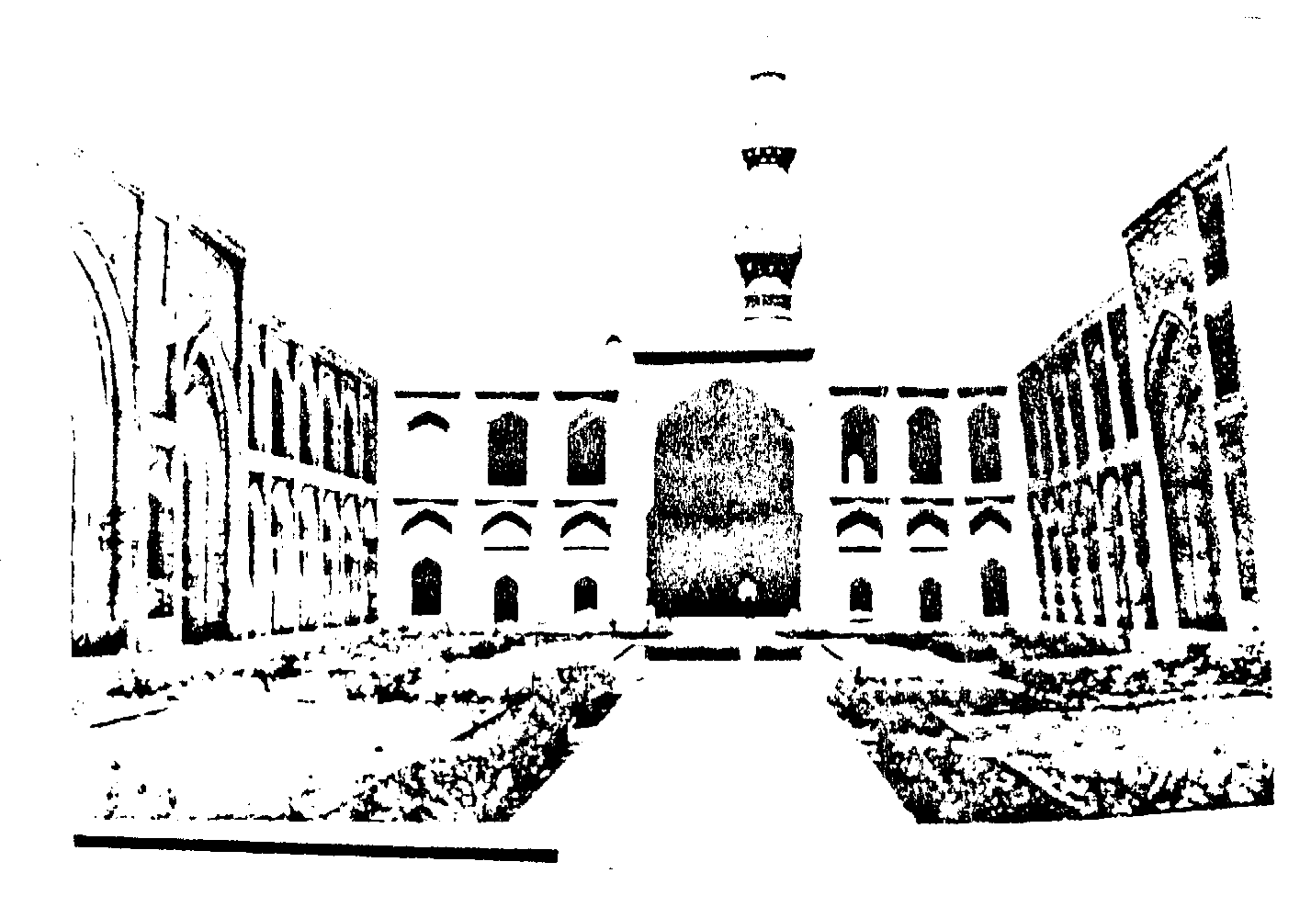
ملحق رقم (١)



زخارف وكتابات واجهة مدخل المدرسة

كتاب : تاريخ علماء المستنصرية

ملحق رقم (٢)



المدرسة المستنصرية في بغداد الضلع الشرقي من بناء المدرسة بعد التعمير

من كتاب : تاريخ المدرسة المستنصرية

المدرسة المستنصرية

من الأبنية العباسية المشهورة التي ما تزال قائمة إلى اليوم في بغداد. «وتعد أول جامعة في العالم الإسلامية فالتقاليد التي أخذت بها قريبة من التقاليد التي تعتمدها الجامعات في أيامنا هذه»..

والخليفة المستنصر بالله أول من ابتكر فكرة تدريس المذاهب الفقهية الأربعة في مدرسة واحدة. كما أشارت بذلك الكتابة الأجرية المثبتة على باب المدرسة [١].

وكانت هذه المدرسة موئلا للعلماء والأدباء، يحضرها الطلاب من جميع البلاد. فأصبح لها أثر في الثقافة الإسلامية.

قال الذهبي: «كانت مجمع مآثر الدين ومذاهب المسلمين فكان يدرس فيها علم الأصول، وعلم القوافي، وأحاديث الرسول، والحلال والحرام وقسمة الفرائض، والتركات، وعلم الحساب والمساحات، وعلم الطب ومنافع الحيوان

---

(١) النقش الموجود على واجهة المدخل الرئيسي يتألف من عشرة اسطر وهي:
١- بسم الله الرحمن الرحيم.
٢- قد أنشأ هذه المدرسة رغبة في أن الله لا يضيع.
٣- أجر من أحسن عملا وطلبا للفوز بجنات الفردوس.
٤- التي أعدها للذين آمنوا وعملوا الصالحات نزلا...
٥- وأمر أن تجعل المدرسة للفقهاء على المذاهب الأربعة.
٦- سيدنا ومولانا أمام المسلمين وخليفة رب العالمين.
٧- أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين..
٨- شيد الله تعالى معالم لدين بخلود سلطانه راجيا.
٩- قلوب أهل العلم يتضاعف نعمه وإحسانه وذلك في.
١٠- نة ثلثين وستمايه وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الأعظمى - خالد خليل حمودي - المدرسة المستنصرية في بغداد. دار الحرية للطباعة ١٩٨١ ص٣٧ - ٣٨.
انظر ملحق رقم (١ ، ٢) .

وحفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان [١].

١- انشاء المدرسة :

شرح الخليفة المستنصر بالله في إنشائها سنة ٦٢٥هـ - ١٢٢٧م على شط نهر دجلة مما يلي دار الخلافة، وكلف استاذ دار الخلافة «مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي» بالإشراف على بنائها، وبلغ تكاليف بنائها ٧٠٠,٠٠٠ دينار (سبع مائة ألف دينار) [٢] وهو مبلغ ضخم إذا عرفنا القوة الشرائية للدينار آنذاك، بحيث كان أعلى موظف في الدولة يتقاضى اثنى عشر دينار فقط.

٢- افتتاح المدرسة :

ولما تكامل بناؤها تم افتتاحها في يوم الخميس الخامس من رجب سنة ٦٣١هـ - ٧ إبرايل سنة ١٩٣٣م - في احتفال عظيم خلع فيه على «محمد ابن العلقمي» وعلى أخيه» أبو جعفر» وهما اللذان أشرفا على بنائها، وحضره نائب الوزارة وسائر الولاة والحجاب، والقضاة، والمدرسين، والفقهاء، ومشايخ الربط والصوفية، والوعاظ، والشعراء، وأعيان التجار. وخلع على الجميع بهذه المناسبة [٣] وذبح من أجل ذلك ألفا رأس من الغنم [٤] وعمل سماط في صحن المدرسة كان عليه من الأطعمة والأشربة، واللحم،

---

(١) الإربلي مصدر سبق صـ٢١٢، ابن الفوطي مصدر سبق صـ٢٩.
(٢) نفس المصدر صـ٥٣.
(٣) نفس المصدر صـ٥٥ السيوطي - جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م تاريخ الخلفاء ط١٤ المطبعة التجارية مصر ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
(٤) البصري - على بن أبي الفتح (عاش في القمر السابع الهجري الثلاث عشر الميلادي) المناقب العباسية والمفاخر المستنصرية ورقة ١٤٨ب مخطوط مصور - معهد المخطوطات العربية رقم ١٢٢٥.

والدجاج، وعملت الحلوى صفوفا بحيث كان لا يرى الواقف المار أمامه... أكل منه الحاضرون، وحمل منه على سائر بيوت بغداد من الخواص والعوام، وحضرها في ذلك اليوم الوزير بن الناقد وقبل عتبتها وطاف أرجائها فراعه ما شاهده من وضعها وترتيبها [١]...

٣- وصف المدرسة – وأقسامها:

أنشئت المدرسة في الجانب الشرقي من بغداد على ضفة نهر دجلة الجنوبي من مدخل جسر الشهداء الآن..

ويمتد أمامها رصيف عرضه ١١,٨٠مترا، وتمتد جهة المدرسة على ضفة النهر مسافة تبلغ ١٠٥مترا، وعرضها من جهة الشمال ٤٤,٢٠مترا وفي الجهة الجنوبية ٤٨,٨٠مترا فتكون المساحة العامة ٤٨٣٦مترا مربعا تقريبا..

أما صحن المدرسة المكشوف بأبعاده ٦٢,٤٠مترا، ٢٧,٤٠مترا تحيط به الحجر والغرف والقاعات والأواوين من الجهات الأربع. وقد خصصت كل منها لغرض من أغراض المدرسة..

فمنها للتدريس، والصلاة ومخازن الطعام، والحمام، ومخزن الأدوية وخزانة الكتب، والمطبخ، وسكن الطلاب..

والطابق الثاني غرف لسكن الطلاب، المجهزة بالحصر والبسط [٢] .

ويوجد في صحن المدرسة بركة يأتيها الماء من دجلة بواسطة دولاب

---

(١) الغساني – الأشراف أبو العباس إسماعيل ت٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م العسجد المسبوك والجوه المحكوك في تاريخ الخلفاء والملوك ورقة ١٦١أ مخطوط (دار الكتب المصرية) ميرفيليم رقم ٣٨٦٢ طبع رسالة ماجستير – في جامعة بغداد، ابن الفوطي مصدر سبق صـــ٥٦.

(٢) نفس المصدر صـــ٢٠٣ يوسف – شريف دكتور تاريخ فن العمارة العراقية في مختلفة العصور دار الرشيد للنشر بغداد ١٩٨٢م.

مركب تحت مسلة المدرسة، ويجهز منها الماء البارد للطلاب [١].

وقد قسمت المدرسة كما يلي:

قسم ربع القبلة الأيمن إلى الشافعية، والربع الثاني يسره القبلة للحنفية، والربع الثالث يمنه الداخل للحنابلة، والربع الرابع يسره الداخل للمالكية [٢].

وكان الخليفة مولعا بهذه المدرسة فلم يكن يمر يوم دون أن يزورها فأمر بعمل بستان خاص به، جعل فيه منظرة تطل عليها، وكان من عادته يأتي إليها ويسلى نفسه فيها، فيجلس في شباك عليه ستار، يشرف على أحد أواوين المدرسة فيشاهد ويراقب ما يجرى فيها ويسمع محاضرات الأساتذة ومناظرة الطلاب [٣].

وزارها الرحالة بن بطوطه سنة ٧٢٧هـ - ١٣٢٦م فقال: «بها المذاهب الأربعة، لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس، وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه بسط. ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا الثياب السود، معتما، وعلى يمينه وعلى يساره معيدان يعيدان كل ما يميله وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة وفي داخلها الحمام للطلبة ودار الوضوء» [٤].

---

(١) ابن الفوطي: مصدر سبق ص٣٦٥، السيوطي: مصدر سبق ص٤٦١.

(٢) ابن الفوطي: نفس المصدر ص٥٨.

(٣) الأعظمي مرجع سبق ص١١٣، لسترنج - غي، بغداد في عهد الخلافة العباسية صـ٢٢٧، ٢٢٨ ترجمة بشير فرنسيس. المطبعة العربية - بغداد ١٣٥٥هـ/١٩٣١م.

(٤) ابن بطوط- أبو عبد الله محمد بن محمد الطنجي ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م مهذب رحلة ابن بطوطه، طبع وزارة المعارف العمومية - المطبعة الأميرية ١٧٥ القاهرة - ١٩٣٩م.

٤- معاهد ملحقة بالمدرسة :

كما أنشئت معاهد ملحقة بالمدرسة، وكذلك بعض المؤسسات لخدمة التعليم وهي :

أ- **دار القرآن** : وذكرت ضمن نظام المدرسة، وكان لها شيخ يلقن الطلاب القرآن الكريم ومعه معيد يحفظهم، وبها ثلاثون طالبا من الأيتام، وخصص للطلاب راتب شهري وارزاق يومية وأجريت للشيخ مخصصاته وأرزاقه وكذلك المعيد، وعزلت دار القرآن عن المدرسة حرصا من أن يعبث الصبيان بمرافقها، وحتى لا تؤثر أصواتهم على الآخرين وحفاظا على القيم التربوية، التي قد تتأثر باختلاط كبار الطلبة بالصبية [(١)].

ب- **دار الحديث** : يدبرها شيخ له دراية بعلم الحديث يساعده قارئان وهم من الشيوخ المعروفين ولهم سند برواية الحديث، وحدد عدد الطلاب بعشرة يشتغلون بعلم الحديث، وأيام الدراسة ثلاثة أيام في الأسبوع. وكانت ملحقة بدار الكتب، ليسهل لهم البحث والإطلاع وخصص للطلاب والأساتذة مخصصات وأرزاق ثابتة [(٢)].

٥- مدرسة الطب «إيوان الطب» :

افتتحت مدرسة الطب بعد أن تكامل بناؤها ٦٣٣هـ وتقع في مقابل المدرسة المستنصرية، ويديرها طبيب يساعده جماعة تشتغل بالطب، ويشرف على علاج المرضى من الطلاب والعاملين بالمدرسة المستنصرية، إلى جانب عمله في التدريس وعدد طلاب مدرسة الطب عشرة يشتغلون بعلوم الطب [(٣)].

---

(١) ابن الفوطي: مصدر سبق ص٥٣، المشهدان د/ محمد جاسم، النقشبندي/ أسامة ناصر المستنصرية في التاريخ بغداد ١٩٨٦ ص١٦٩.

(٢) ابن الفوطي: نفس المصدر ص٥٤ – ٥٨ الأربلي: مصدر سبق ص٢١٢.

(٣) ابن الفوطي: مصدر سبق ص٥٤، ابن العبري: مصدر سبق ٤٣٥.

وكانت هذه المدرسة سببا في تطور علم الطب والصيدلة في بغداد وألفت كتب كثيرة من قبل أطبائها.. وأصبح طبيب المدرسة مسئولا عن تعيين وعزل الأطباء في البلاد، وألحق بها صيدلية يصرف منها الدواء للمرض وبها مخزن كبير للأدوية [١]..

وكان بناء مدرسة الطب هذه أمام مدرسة الفقه ودار الحديث، ودار القرآن جعل الاستفادة منها كبيرة كما يسهل نقل الطعام إليها من مطبخ المدرسة المستنصرية وكذلك يسهل على المشتغلين بها الاطلاع في مكتبة المدرسة..

٦- المكتبة «خزانة الكتب» :

من أهم الأقسام في المدرسة المستنصرية المكتبة، وكانت تسمى «خزانة الكتب» وتعتبر مرجعا للشيوخ والمدرسين والطلاب.. وجاء في الحوادث الجامعة أن الخليفة المستنصر بالله نقل إلى هذه المكتبة يوم افتتاحها. من الربعات الشريفة والكتب النفيسة، المحتوية على العلوم الدينية والأدبية، ما حمله مائة وستون حمالا سوى ما نقل إليها فيما بعد [٢].

وقال السيوطي أن ما نقل إليها مائة وستون حملا من الكتب النفيسة[٣].

وقدر ما نقل إليها من كتب بثمانين ألف مجلد، ورتبت هذه الكتب بحسب الفنون ليسهل تناولها، ولا يتعب مناولها، وجعلت برسم من يطالع ويستنسخ من الفقهاء، ورتب لهم فيها الأقلام والورق [٤].

---

(١) ابن الفوطي: نفس المصدر ٨٢ د/ المشهداني مرجع سبق ص١٦٩.
(٢) ابن الفوطي: نفس المصدر ص٥٤.
(٣) السيوطي: مصدر سبق ص٤٦١.
(٤) بن الفوطي مصدر سبق ص٤٥، تاجي معروف ص٣٣٣.

وكان العاملون بها يطلق عليهم «خازن، ومشرف، ومناول» وخصص لكل منهم راتب وأرزاق، وكان واجب الخازن - المحافظة على الكتب وتقديمها لمن يحتاجها، وواجب المشرف مراقبه قاعة الاطلاع. أما المناول فهو الذي يقوم بتسليم الكتب للمطالعة لقاء إيصالات بذلك (١).

٧- ساعة المستنصرية :

أنشأها الخليفة «المستنصر بالله» لمعرفة أوقات الدراسة بالمدرسة والصلاة ولكنها لم تكن كالساعات المستعملة في زمانها فهي من الساعات العجيبة..

وموجز أمرها : أنه في ثامن جمادى الآخرة ٦٣٣هـ - ١٢٣٦م تكامل بناء الإيوان الذي أنشئ مقابل المدرسة المستنصرية وعمل تحته صفة في حائط هذه الصفة دائرة وصور فيها صورة الفلك، وجعل فيها طاقات لطاف، لها أبواب لطيفة، وفي الدائرة بازان من ذهب. في طاستين من ذهب وراءها بندقتان من شبه، لا يدركهما الناظر، فعند مضى كل ساعة يفتح فما البازان ويقع منهما البندقتان، وإذا وقعت البندقتان، في الطاستين تذهبان إلى موضعها، ثم تطلع شموس من ذهب في سماء لازورديه في ذلك الفلك من طلوع الشمس الحقيقية، وتدور مع دورانها، وتغيب مع غيابها، فإذا غابت الشمس وجاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها . كلما قضت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر، ثم يبتدي في الدائرة الأخرى إلى انقضاء الليل وطلوع الشمس فيعلم بذلك أوقات الصلاة، وتقضي الساعات الزمانية ليلا ونهارا، وتؤخذ المواقيت وحلول الشمس بالبروج الأثنى عشر وكيفية قطعها الفلك والدرج والدقائق (٢).

فهي من الأعمال الفنية الجليلة «للمستنصر بالله» أمير المؤمنين ونظم

---

(١) ابن الفوطي: نفس المصدر ص٥٦، المشهداني: مصدر سبق ص٧٠.

(٢) ابن الفوطي: مصدر سبق ٨٣ - ٨٤ - ٣٢٨ الاربلي: مصدر سبق ٢١٢.

الشعراء فيها شعرا يصف عظمتها ومنها ما قاله «جمال الدين عبد الرحمن ابن الجوزي» الحنبلي [١]:

يا أيها المنصور يا مالكا   برأيه صعب الليالي يهون
شيدت لله ورضوانه   أشرف بنيان يروق العيون
إيوان حسن وصفه مدهش   يحار في منظره الناظرون
تهدى إلى الطاعات ساعاته   الناس وبالنجم هم يهتدون
صور فيه فلك دائر والشمس   تجري مالها من سكون
دائرة من لازورد حكت   نقطة تبر فيه سر مصون
فتلك في الشكل وهذى معا   كمثل هاء ركبت وسط نون
فهي لاحياء العلى والندى   دائرة مركزها العالمون [٢]

٨- نظام الدراسة بالمستنصرية :

وضع الخليفة المستنصر بالله نظاما دقيقا للدراسة بهذه المدرسة حيث تم تحديد عدد المدرسين، والطلاب في المذاهب الفقهية ودار القرآن الكريم ودار الحديث، ومدرسة الطب. وكان الطلاب يتخيرون من الفقهاء، بعد أن تكون لهم شهرة علمية في التأليف أو التدريس، وهذا النظام يشبه الأنظمة المتبعة في الدراسات الجامعية اليوم [٣].

---

(١) هو جمال الدين أبو الفرج بد الرحمن ابن الصاحب محي الدين يوسف بن عبد الرحمن الجوزي، «سمى باسم جده ولقب بلقبه وكنى بكنيته ولد سنة ٦٠٦هـ توفى سنة ٦٥٦ قتل بيد التتار مع أبيه وأخويه.
وهو أحد كبار مدرس الحنابلة بالمستنصرية - السيوطي - تاريخ الخلفاء ص٤٧٧ ناجي معروف ص١٠٦.

(٢) ابن الفوطي ص٨٣ - ٨٤، القزويني مصدر سبق ص٣١٦ - ٣١٧.

(٣) ابن الفوطي : مصدر سبق ص٥٨ - ٥٩ السيوطي: مصدر سبق ص٤٦١، ناجي معروف: مرجع سبق ص٣٨.

ويتخلص ذلك فيما يلي :

عدد الطلاب :

٢٤٨ طالبا (فقيها) موزعين على المذاهب الفقهية الأربعة لكل مذهب ٦٢ طالبا

٣٠ طالب (من الأيتام) بدار القرآن الكريم.

١٠ طلاب بدار الحديث

١٠ طلاب بمدرسة الطب

٢٩٨ مجموع الطلاب..

أعضاء هيئة التدريس :

١ والي (ناظر) بمثابة رئيس الجامعة.

٢٠ عضو هيئة تدريس للمذاهب الفقهية الأربعة توزع مدرس وأربعة معيدين لكل مذهب..

٢ عضو هيئة تدريس بدار القرآن الكريم شيخ يلقن الطلاب ومعه معيد يلقنهم..

٣ عضو هيئة بدار الحديث (شيخ) ومعه معيدان يساعدانه في قراءة الحديث...

١ عضو هيئة نحو

١ عضو هيئة رياضيات

١ عضو هيئة طبيب مسلم

٣٩ عضو هيئة تدريس [(١)]

٩- العاملون بالمدرسة :

ناظر (والي) يختار من بين كبار موظفي الدولة يتولى النظر في

---

(١) ابن الفوطي: مصدر سبق ص٥٦ - ٥٨ - ٥٩، السيوطي: مصدر سبق ص٤٦١، الأربلي: مصدر سبق ص٢١٢، ناجي معروف: مرجع سبق ص٤٠.

مصالحها مشرف (بمثابة المفتش) ويراقب الأعمال المالية. كاتب يساعد الناظر والمشرف وكان بها عشرة فراشين. وثلاثة بوابين، وحمامي، ومزين وطباخ، وغلام يساعده وخازن للآلات، وخزنة الديوان ومزملاني، ومؤذن، ونفاط، ومعمارية وخازن بخزانة الكتب، ومشرف، ومناول للكتب، ومرتب لكل طائفة وإمام وساعاتي [١].

١٠- مستوى المعيشة :

عمل الخليفة «المستنصر بالله» على راحة العلماء والطلاب ليتفرغوا للبحث والدراسة، فخصص أوقافا باسم المدرسة، وكانت الشيء الكثير، إذ بلغت في إحدى السنين ألف ألف دينار (مليون دينار) [٢].

قال السيوطي بلغت وارداتها نيفا وسبعين ألف مثقال [٣]. من الذهب في السنة [٤] أي بما قيمته ٩٠٠ ألف دينار وذكر هذه الأوقاف الدكتور ناجي معروف نقلا عن الذهبي..

وهو عدة رباع وحوانيت ببغداد وعدة قرى كبار وصغار [٥].

وكان العاملون والمدرسين والطلاب يتقاضون رواتب شهرية كل حسب مرتبته، كما خصص لهم جميعا كافة ما يكفلهم من الأطعمة والأشربة،

---

(١) الغساني مصدر سبق صـ١٥٧، ناجي معروف مصدر سبق صـ٥٧.

(٢) الذهبي – شمي الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ص٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م دول الإسلام جزءان ج٢ صـ١٠٣، مطبعة دائرة المعارف العثمانية – حيداباد – الدكن الهند ١٣٢٧هـ/ ١٩١٨م.

(٣) المثقال الشرعي هو ٤,٤٦جرام وهذه القيمة تعادل مليون دينار، ناجية – إبراهيم دكتوره ريف بغداد – أواخر العصر العباسي دار الشئون الثقافية العامة – بغداد ١٩٨٨م.

(٤) السيوطي مصدر سبق ٤٦١.

(٥) د/ ناجي معروف مرجع سبق ٤٠٣.

وكانت الأطعمة توزع مطبوخة بالإضافة إلى الخبز والحلوى والفاكهة والصابون..

وتميزت رجال الإدارة والشيوخ في مخصصاتهم فكان يوزع عليهم كميات كبيرة من اللحم والخبز بحوائجها وخضرواتها وحطيها تكفى لهم ولعيالهم وضيوفهم عدا ما كانوا ينالونه من الخلع والجرايات الأخرى [١].

ورتب لهم ما يشترى به الحصر، والسراج والزيت وجميع المستلزمات من الأدوات الكتابية، وأدوات النظافة وخلاف ذلك [٢].

وكان أرباب هذا الوقف يتقاضون مرتباتهم الشهرية تختلف باختلاف مناصبهم وكانت هذه الأجور والجرايات تضاعف في شهر رمضان. وكان المرضى من العاملين بالوقف يعالجون مجانا ويعطى لهم ما يوصف من الأدوية والأشربة [٣].

قال الغسائي: كل ذلك من اختراع الواقف رحمه الله [٤].

٦- الوارقة والوراقون :

تقدم فن الوراقة في بغداد، ويقصد به نسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها، وكل ما يتعلق بإخراج الكتاب.

وكان الوراقون يبيعون هذه الكتب في دكاكينهم، وقد وصل عدد الوراقين في بغداد نحو ماءة وراق، محالهم أشبه بالمكتبات العامة في يومنا هذا [٥] وأصبحت هذه المحال، مراكز أدبية ومؤسسات للنسخ والخط وفقا

---

(١) ابن الفوطي: مصدر سبق ٥٨ – ٥٩، ناجي معروف مصدر سبق ص٤١.
(٢) الغسائي: مصدر سبق ص١٥٧.
(٣) ابن الفوطي: مصدر سبق ص٥٩.
(٤) الغسائي: مصدر ١٥٧.
(٥) عصام عبد الرؤوف – مرجع سبق صـ١٢٢.

لذوق العصر [١].

فقد كانت علماء العرب تهتم بالكتب، فكل متعلم من أكبر كبراء الدولة إلى بائع الفحم، ومن القاضي إلى مؤذن المسجد. هو زبون دائم عند بائع الكتب.

وإن متوسط ما تحتويه مكتبة خاصة لعربي في هذه الفترة، كان أكثر ما تحتويه مكتبات الغرب مجتمعة، ولم يكن المرء يحسب من الأغنياء ما لم يكن يملك مجموعة من الكتب النادرة [٢].

ويقول الحضرمي: أنه ذهب إلى قرطبة، وتردد على سوق كتبها يبحث عن كتاب يهمه، ولما عثر عليه فرح به أشد الفرح، وعرض هذا الكتاب في المزاد حتى ارتفع سعره، فطلب من الدلال معرفة المنافس له في الكتاب فوجده شخصا ثريا، فسأله إن كان له غرض من الكتاب تركه له لأن الزيادة بلغت أكثر من حده فقال لي لا أدري ما فيه، ولكن أقمت خزانة كتب واردت أن أتجمل بها بين أعيان البلد، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط ، جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه [٣].

وفي سوق الكتب عند بوابة البصرة ببغداد، كان المتعلمون من كل أنحاء العالم الإسلامي يجتمعون، ويفتشون عما صدر حديثا من الكتب، ويناقشون ويتبادلون المعرفة.

ففي عام ٣٩١هـ/١٠٠٠م صدر كتاب بعنوان (تبادل الأفكار) يحوى ١٠٦ مناقشات دارت بين العلماء بعضها في منزل فيلسوف عربي، وبعضها في حوانيت الكتب [٤].

---

(١) ليسلر مرجع سبق صـ٩٩.
(٢) هونكه مرجع سبق صـ٣٨٨.
(٣) نفس المرجع صـ٣٨٩.
(٤) نفس المرجع صـ٣٨٩.

وكان ابن النديم «أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بابن النديم» (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) تاجرا للكتب، واستقبل زبائنه وتعرف بهم وهو عالما فذا له شهرته ألف (الفهرست) الذي يحوي جميع الكتب والترجمات باللغة العربية.

وابن النديم كأغلبية زملائه من تجار الكتب تلقى تربية علمية واسعة وكان صديقا لأئمة العلماء الذين كان يقضى معهم السهرات الطوال في المناقشات العلمية المثمرة [١].

كما كان على بن عيسى المعروف بابن كوجك، وراقا وأديبا، فاضلا وألف عدة كتب [٢].

وكذلك ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله المتوفي سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م كان يتاجر في الكتب ويزور أسواق الوراقين ليعرض تجارته.

ويصف ابن الجوزي (المتوفي سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) سوق الوراقين ببغداد في زمنه بقوله «أنها كبيرة وهي مجالس العلماء» [٣] أما سوق الكتبيين بمصر يقول عنه المقريزي» هذا السوق فيما بين الصاغة، والمدرسة الصالحية، أحدث فيما أظن بعد سنة ٧٠٠هـ، وكان سوق الكتب قبل ذلك بمدينة مصر (الفسطاط) تجاه الجانب الشرقي من جامع عمرو بن العاص بجوار دار عمرو... ما برح هذا السوق مجمعا لأهل العلم يترددون إليه وقد أنشدت قديما لبعضهم.

مجالسة السوق مذمومة ومنها مجالس قد تحتسب

---

(١) هونكه المصدر السابق صـ٣٩٠، ٣٩١.

(٢) د/ أحمد شلبي التربية الإسلامية صـ٦٣، ٦٤.

(٣) نفس المرجع صـ٦٤، ٦٥.

فـلا تقـربن غيـر سـوق الجيـاد وسوق السلاح وسوق الكتب
فهاتيـــك آلـــة الـــوغي وهاتيـك آلـة أهـل الأدب [(١)]

ويرجع الفضل في تقدير الكتب، إلى الجاحظ، فهو الذي وجه الناس إلى الكتاب وقيمته، والنثر وفائدته، وكان الإتجاه العام قبله ينحاز للشعر ودواوين الشعراء، فلما جاء الجاحظ وجه أنظار الناس على الكتابة والكتب مبينا ما فيها من علم، ومعرفة [(٢)].

ويصف الكتاب بقوله «والكتاب صامت ما أسكته، وبليغ ما استنطقته، مسامر لا ينتدبك في حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوبك إلى التجمل له، والتذمم منه، وهو جليس لا يطريط، وصديق لا يغربك، ورفيق لا يملك ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب [(٣)].

وقال الجاحظ أيضا دخلت على محمد بن إسحاق أمير بغداد في أيام ولايته، وهو جالس في الديوان، والناس مثول بين يديه،... ثم دخلت إليه بعد مدة وهو معزول وهو جالس في خزانة كتبه، وحواليه الكتب والدفاتر، والمحابر والمساطر، فما رأيته أهيب منه في تلك الحال [(٤)].

ولكن الكتب التي أبرز الجاحظ قيمتها وأعلى قدرها لم تبربه، بل قست عليه، وكان بها حتفه، فقد روى أن موته كان بوقوع مجلدات عليه، وكان من عادته أن يصفها قائمة كالحائط محيطة به وهو جالس وكان عليلا فسقطت عليه قتلته [(٥)].

---

(١) المقريز مصدر سبق ح٢ صـ١١٢.
(٢) د/ أحمد شلبي التربية مصدر سبق صـ١٤٢.
(٣) الجاحظ – أبي عثمان عمرو بن بحر ت٢٥٥هـ الحيوان ج١ صـ٥٠، ٥١ تحقيق وشرح عبد السلام هارون مكتبة مصطفى البابي الحلبي.
(٤) ابن طباطبا مرجع سبق صـ١٠، ١١.
(٥) أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود الأيوبي صاحب حماه ت٧٣٢هـ/ ١٢٣١م المختصر في أخبار البشر ج٢ صـ٤٧ القسطنطينية – ١٢٨٦هـ/ ١٨١٩م.

ومات الجاحظ سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م. في خلافة المعتز وله من الكتب «كتاب الحيوان». والمشهور أنه سبعة أجزاء وأضاف إليه كتاب آخر سماه «كتاب النساء» وهو الفرق بين الذكر والأنثى.

وقال: ميمون بن هارون «قلت للجاحظ – ألك بالبصرة ضيعة؟ فتبسم وقال: إنما أنا وجاربة وجارية تخدمها، وخادم، وحمار... أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك، فأعطاني خمسة ألاف دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي، فأعطاني خمسة ألاف دينار، فانصرفت إلى البصرة، ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تحديد ، ولا تسميد [١].

٧- تقدير العلماء :

كان الناس ينظرون إلى المؤدب نظرة استخفاف، وأنهم في مستوى اجتماعي مهين، وعلق الخليفة المأمون على ما أثر عن بعض المؤدبين من تخلف وبلاده بقوله: «المعلم يجلوا عقولنا بأدبه، ويصدأ عقله بجهلنا، ويوقرنا برزانته، ونستخفه بطيشنا، ونأخذ منه محمود خصاله، ويستغرق مذموم خصالنا، وإذا برعنا في الإستفادة برع في البلادة، فهو طول عمره يكسبنا عقلا ويكسب منا جهلا، فنحن الدهر ننزع منه آدابه المكتسبة ويثبت فيه أخلاقنا [٢].

وأما الخلفاء والأمراء فإنهم قدروا المعلمين ورفعوا من شأنهم، واحترموهم، واستعانوا بهم في تعليم أولادهم في قصورهم وقدموا لهم الهبات والعطايا.

وارتفع شأن المعلمين بين الناس وعلت مكانته، ونظر إليه على أنه أحد

---

(١) النديم: مصدر سبق صـ٢٩٣.

(٢) ابن الجوزي: أبي الفرج عبد الرحمن بن على ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م أخبار الحمقي والمضعفين صـ١٤٠، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت.

أفراد الأسرة، التي يعلم فيها فردا أو أكثر من أبنائها بل كان ينتسب إليها ويلقب بلقبها، فعندما صحب أبو محمد يحيى بن المغيرة ، يزيد بن منصور خال الخليفة المهدي . ليؤدب ولده فنسب إليه.

كما اهتم الخلفاء بمعلمي أبنائهم ارتفعوا بمستواهم الاجتماعي، فعندنا اختير العالم علي بن حسين الأحمر سنة ١٩٤هـ ليعلم الأمين كان يعيش في حجرة واحدة في حي متواضع من أحياء بغداد، وسرعان ما نقله الخليفة هارون الرشيد إلى مستوى اجتماعي رفيع يصفه محمد بن الجهم بقوله: «كنا إذا أتينا الأحمر تلقانا الخدم فندخل قصرا من قصور الملوك ويخرج علينا الأحمر وعليه ثياب الملوك [(١)].

وكان قد حضر بعض أولاد الخليفة المهدي عند شريك القاضي سنة ١٧٧هـ وهو يلقى الدرس على طلابه، فاستند ابن المهدي إلى الحائط، وسأل عن حديث فلم يلتفت إليه شريك، ثم عاد وسأل، فعاد شريك إلى إهماله فقال ابن الخليفة: «تستخف بأولاد الخلفاء؟ قال: لا، ولكن العلم أزين عند أهله من أن يضيعوه [(٢)].

وقد مر الخليفة الرشيد بحلقة محمد بن الحسن، فقام الناس كلهم إلا محمد بن الحسن، فاستدعاه الخليفة لمقابلته، ولما عاد سأله أصحابه عما كان، فقال سألني الرشيد، مالك لم تقم مع الناس؟ فقلت: كرهت أن أخرج عن طبقة العلماء إلى طبقة العامة، فسر الخليفة بإجابتي [(٣)].

ويقول: «Palmer» أن أبا معاوية الضرير العالم كان يتغذي مره مع الرشيد، فلما انتهى الغداء وأراد العالم أن يغسل يده، قدم له شخص الطصت، والإبريق، وصب عليه، ولما انتهى العالم الأعمى من غسل يديه شكر، ذلك

(١) أحمد شلبي التربية الإسلامية المرجع سبق صـ٢٢٦.
(٢) نفس المرجع ٢٣٠.
(٣) نفس المرجع ٢٣١.

الذي أولاه هذه العناية، وصب عليه الماء، ولكنه اكتشف أن الذي صب عليه الماء هو الخليفة نفسه ، على كثرة خدمه، فقال العالم يا أمير المؤمنين أني أعتقد أنك فعلت هذا تكريما للعلم، فأجاب الرشيد هو كذلك [١].

وكان الخليفة المعتضد يطوف يوما في البستان ووضع ثابت بن قرة يده في يد الخليفة، إذ نزعها الخليفة منه دفعة واحدة، فقال ثابت: «ما بدا يا أمير المؤمنين؟ فقال: المعتضد» كانت يدي. فوق يدك، والعلم يعلوا ولا يعلى عليه [٢].

وتوفى ثابت بن قرة سنة ٢٨٨هـ/ وكان يعمل في جملة المنجمين لدى الخليفة المعتضد، وكان يجالسه وعلت مرتبته، وأصبح من الأثرياء، وله كتب كثيرة في العلوم الآتية : الفلك، والحساب، والهندسة، والطب، والصيدلة، وله رسالة في الجدرى، والحصبة [٣].

هذه أمثلة قليلة من تراث يتحدث عن قدر العلماء ومكانتهم لدى الخلفاء والمجتمع.

وخلاصة القول أن ما يشاهده المرء من القرن «الثالث الهجري – التاسع الميلادي» إلى القرن «الخامس هجري – الثاني عشر ميلادي» لم يكن له مثيل قبل ذلك، ففي كل كلف لاحد له بالكتب وآلاف المساجد تهتز بفصاحة العلماء، ومائة بلاط رائع تدوي مباريات شعرية أو فلسفية، وطرقات خاصة بالعلماء، للبحث والمعرفة، وهذه أهم يقظة فكرية في التاريخ الإسلامي [٤].

---

(١) Hazllme Rushid p٣٢.

(٢) أحمد شلبي المرجع السابق ٢٣٢.

(٣) النديم مصدر سبق صـ٤٣٥، ٤٣٦.

(٤) ليسلر مرجع سبق صـ١٠٠.



قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر :

القرآن الكريم :

المخطــوطات :

١- البصري - على بن أبي الفتح (عاش في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) المناقب العباسية والمفاخر المستنصرية مخطوط - مصور معهد المخطوطات العربية رقم ١٢٢٥.

٢- الغساني - الأشرف أبو العباس إسماعيل ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في تاريخ الخلفاء والملوك مخطوط (دار الكتب المصرية) ميكروفيلم رقم ٣٨٦٢.

المصادر المطبوعة:

١- ابن الأثير - أبو الحسن ابن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزرى ت١٢٣٢/٦٣٠م الكامل في التاريخ دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٨٥م.

٢- الإربلي - عبد الرحمن سنبط قنينو ت٧١٧هـ/ ١٣١٧م خلاصة الذهب المسبوك - مختصر من سير الملوك مطبعة الروم الأرثوزكس ١٨٨٥م.

٣- ابن بطوطه - أبو عبد الله محمد بن محمد الطنجي ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م مهذب رحلة ابن بطوطة طبع وزارة المعارف العمومية - المطبعة الأميرية القاهرة سنة ١٩٣٩م.

٤- الجاحظ - أبي عثمان عمرو بن بحر ت٢٥٥هـ الحيوان تحقيق وشرح - عبد السلام محمد هارون مكتبة مصطفى البابي الحلبي.

٥- ابن جبير - أبو الحسن محمد بم أحمد ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م رحلة

ابن جبير دار التحرير للطباعة والنشر – القاهرة ١٣٥٨هـ/ ١٩٦٨م.

٦- ابن الجوزي – أبو الفرج عبد الرحمن ابن علي ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م:

١- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٠ مجلدات – مطبوع من الخامس إلى العاشر) مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد الدكن – الهندسة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م.

٢- أخبار الحمقى والمغفلين منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت.

٧- ابن خلودن – عبد الرحمن بن محمد ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م مقدمة بن خلدون ط٥ دار العلم بيروت ١٩٨٤م.

٨- الذهبي – شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ت٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م دول الإسلام جزءان مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدأياد – الدكن – الهند س١٣٢٧هـ/ ١٩١٨م.

٩- السيوطي – جلال عبد الرحمن أبي بكر ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م تاريخ الخلفاء المطبعة التجارية – مصر ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.

١٠- الصفدي – صلاح الدين خليل بن أيبك ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م نكت الهميان في نكت العميان، المطبعة الجمالية مصر ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.

١١- ابن طباطبا – محمد بن علي المعروف بابن الطفطقي ت٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م الفخري في الآداب السلطانية مطبعة محمد على صبيح ت١٩٦٣م.

١٢- أبو الفداء – إسماعيل بن على بن محمود الأيوبي صاحب حماة ت/٧٣٢هـ/ ١٢٣١م المختصر في أخبار البشر القسطنطينية ١٢٨٦هـ/ ١٨١٩م.

١٣- ابن الفوطي – كمال الدين أبي الفضل عبد الرازق بن أحمد الشيباني ت٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في الماءة السابعة مطبعة الفرات – بغداد سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

١٤- القزويني – زكريا بن محمد بن محمود ت٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م آثار البلاد وأخبار العباد دار بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٥- المقريزي – تقي الدين أحمد بن علي ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م المواعظ الاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية. ط(٢) القاهرة ١٩٨٧م.

١٦- النديم – أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالنديم ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م الفهرست ضبطه د/يوسف على طويل دار الكتب العلمية – بيروت لبنان ط(١) ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

١٧- النسوي – محمد بن أحمد. انتهى من تأليف كتابه سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م سيرة السلطان جلال الدين تحقيق/ حافظ حمدي دار الفكر العربي – القاهرة ١٩٥٣.

١٨- ياقوت – شهاب الدين أبو عبد الله – الحموي ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م معجم البلدان دار صادر بيروت.

ب- المراجع الحديثة :

إبراهيم العدوي أ. دكتور:

١- تاريخ العالم الإسلامي – مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٣.

أحمد شلبي أ. دكتور:.

٢- ١- موسوعة النظم والحضارة الإسلامية – التربية الإسلامية – (نظمها ، فلسفتها، تاريخها) مكتبة النهضة المصرية ط(٦) سنة ١٩٧٨م.

٢- موسوعة التاريخ الإسلامي – مكتبة النهضة المصرية ط(٨) ١٩٨٥م.

جاك ليسلر
٣- الحضارة العربية – ترجمة غنيم عبدون – مراجعة أحمد فؤاد الأهواني – الدار المصرية للتأليف والترجمة.
حسن إبراهيم حسن أ. دكتور
٤- موسوعة تاريخ الإسلام السياسي والديني مكتبة النهضة المصرية ط٧ ١٩٦٤م.
زيغرد هونكة
٥- شمس العرب تسطع على الغرب – ترجمة:
فاروق بيضون، كمال دسوقي راجعة فاروق عيسى الخوري المكتبة التجارية للتوزيع ط(١) سنة ١٩٦٤م.
شريف يوسف دكتور
٦- تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور دار الرشيد للنشر – بغداد ١٩٨٢م.
عبد الحميد العبادي دكتور د. محمد مصطفى زيادة ود. إبراهيم العدوي
٧- الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها.
دار النهضة مصر – القاهرة.
عصام عبد الرءوف دكتور
٨- الدولة العباسية – مكتبة نهضة الشرق – جامعة القاهرة ١٩٨٥م.
على ظريف الأعظمي دكتور
٩- نمختصر تاريخ بغداد.
مطبعة الفرات – بغداد سنة ١٩٢٦م.
غي لسترنج
١٠- بغداد في عهد الخلافة العباسية ترجمة بشير فرنسيس المطبعة العربية – بغداد ١٣٥٥هـ/ ١٩٣١م.

محمد أحمد حسب الله أ. د

١١- في تاريخ دولة بني العباس - جامعة الأزهر قسم التاريخ والحضارة الإسلامية.

محمد الخضرى بك

١٣- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) تحقيق محمد العثماني - دار القلم - بيروت ط(١) ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ناجية إبراهيم دكتوره

١٤- ريف بغداد - أواخر العصر العباسي دار الشئون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٨م.

ناجي معروف دكتور

١٥- تاريخ علماء المستنصرية - مطبعة الشعب ط(٣) القاهرة.

رسائل علمية

د/ طه عبد العزيز الخطيب

١٦- السياسة الداخلية والخارجية للدولة العباسية في الفترة من ٦٢٢-٦٤٠هـ/ ١٢٢٥ - ١٢٤٠م رسالة ماجستير سنة ١٤٦٣هـ/ ١٩٩٣م.



الفصل الثالث (١)

الفســـــطاط

(١) إعداد : د/ طه عبد العزيز الخطيب .

الفسطاط

اختيار موقع الفسطاط :

لقد يسر الله سبحانه وتعالى لعمرو بن العاص ﷺ فتح مصر، وطارد الروم حتى استولى على الإسكندرية عاصمة الدولة الرومانية بعد القسطنطينية [١].

وقد رفض عمرو بن العاص ﷺ أن تستمر هذه المدينة عاصمة لمصر الإسلامية، لأنها مدينة بحرية تصلح للحكم الروماني، لموقعها على البحر المتوسط وقربها من روما أو «القسطنطينية» فكان لا بد أن يختار مدينة قريبة من الصحراء وفيرة الماء والزرع [٢].

فتحول بفطنته إلى حصن بابليون، وثبت أن هذا الموقع هام بالنسبة لمصر، فقد اختاره الفراعنة من قبل . وأنشأوا فيه مدينة منف[٣] لتكون

---

(١) انظر الإسكندرية .

(٢) عبد الله المصري المسجد الجامع تاج الجوامع (جامع عمرو بن العاص) صـ١٥، ١٦ دار الاعتصام.

(٣) هي أول مدينة عمرت بمصر بعد الطوفان، وصارت عاصمة لمصر في عهد الفراعنة، ومنهم فرعون موسى، وأطلق عليه الناس إبن فرعون وفي ذات مرة ركب فرعون من هليوبلس إلى مدينة منف، وبعد دخوله أغلقت الأبواب ومنع الناس من السير في شوارعها، ولما علم سيدنا موسى لبس وركب ولحق بفرعون ودخل المدينة فهي التي قال الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ القصص: ١٥.

المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ط٢ ح١ صـ١٣٤، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة ١٩٨٧م.

القزويني: زكريا محمد بن محمود ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م آثار البلاد وأخبار العباد صـ٢٦٥ دار بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

عاصمة لهم فهي تشرف على الوجهين البحري والقبلي.

وكانت مدينة «هليوبليس» «عين شمس» عاصمة لمصر أيضا، وتقع مدينة الفسطاط بين هاتين المدينتين، واتخذها البابليون عاصمة لهم في القرن السادس ق.م وبنو فيها حصنا حربيا لهم، كما أتخذها الرومان عاصمة ثانية لمصر بعد الإسكندرية [١].

وقد أثبتت الحفريات بواسطة الهيئة العامة للآثار أن مدينة الفسطاط كانت مستعملة قبل الفتح العربي، وظهر فيها حجرة مبطنة بالرخام، وبها توابيت، وقامت الهيئة بتخلية حول جامع عمرو بن العاص لمسافة ٤٠متر من الجهات الشمالية والجنوبية، والشرقية لعمل حفائر أخرى [٢].

وجاء اختيار عمرو بن العاص لهذا المكان لتوافر الشروط التي اشترطها الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ لقادته عند تأسيس الأمصار وأهمها القرب من الصحراء وسهولة الإتصال بالخلافة [٣].

وكان موضع الفسطاط فضاء ومزارع بين النيل وجبل المقطم، وليس فيه من البناء سوي حصن بابليون، الذي استخدمه ملوك مصر من قبل قياصرة الروم استراحة لهم عند قدومهم من الإسكندرية، وبجوار هذا الحصن من الجهة البحرية والشمالية أشجار وكروم، وبين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة في المنطقة حول جامع عمرو، وتمتد شرقا حتى سفح جبل المقطم، وسور قلعة صلاح الدين، وشمالا حتى السبع سقايات (فم الخليج) وقناطر السباع، وجبل يشكر، وجامع ابن طولون والكبش (قرب مسجد السيدة زينب) كلها كانت ديارات وكنائس للنصارى ومن الجنوب دير الطين، وهي دار

---

(١) صفي الدين على محمد، الحركة العلمية والأدبية في الفسطاط صـ٢٤٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) نفس المصدر صـ٤٨

(٣) المقريزي مصدر سبق ج١ ص٢٨٦.

السلام حاليا، ومن الغرب مجرى النيل مقابل جزيرة الروضة [١].

تسمية الفسطاط :

قيل في تسمية الفسطاط أقوال كثيرة، فقال البعض أن عمرو بن العاص لما أراد المسير إلى الإسكندرية لقتال الروم، أمر برفع فسطاطه، فإذا به يمامة قد باضت فقال لقد تحرمت بجوارنا، أقروا الفسطاط حتى يطير فراخها[٢] فبذلك سميت بالفسطاط وذكر بن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط [٣].

وجاء في لسان العرب «أن الفسطاط مجتمع أهل الكورة حول مسجد جماعتهم، يقال هؤلاء أهل الفسطاط، وفي الحديث الشريف: «عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الفسطاط (والفاء بالضم والكسر) يريد المدينة التي فيها مجتمع الناس، فكل مدينة فسطاط، ومنه قيل لمدينة مصر التي بناها عمرو بن العاص الفسطاط [٤].

ويذهب «بتلر» إلى أن لفظ فسطاط يرجع إلى اللفظ الروماني «Fassatum» وكان يطلق على حصن بيزنطى قديم كانت آثاره قائمة في هذا الموقع وكان الرومانيون إذا ذكروا موضع عسكر العرب سموه الفساطون، فأخذ عنهم العرب هذا اللفظ [٥].

---

(١) نفس المصدر ج١ ص٣٤٣.

(٢) ابن عبد الحكم – أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبدالحكم بن أعين القرشي المصري ت٢٥٧هـ/٨٧١م . فتوح مصر وأخبارها مراجعة وتحقيق محمد صبيح مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر القاهرة ١٩٧٤م.

(٣) المقريزي مصدر سبق ج١ ص٢٩٦.

(٤) ابن منظور – جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على ت٧١١هـ/١٣١١م . لسان العرب صـ٣٤١٣ دار المعارف – مصر.

(٥) د. صفي على محمد مصدر سبق صـ٤٨.

وأصوب الآراء أن لفظ الفسطاط اشتق من اللفظ اللاتيني «Fassatum» الذي كان يطلقه الرومانيون على معسكراتهم الحربية.

وتؤيد أوراق البردي ذلك، ففي إحدى الأوراق المكتوبة باللغتين العربية واليونانية بتاريخ ٩٠هـ، وفي أخرى مشابهة بتاريخ ٩١هـ كان اسم باب اليون. والفسطاط، فإسم فسطاط كان موجودا قبل تأسيس الفسطاط، وقد احتفظ العرب بتلك التسمية بعدما احتلوا المعسكر الحربي، ومما يؤكد صحة هذا الرأى أن المدينة كانت مستعملة قبل دخول العرب من قبل الرومان وغيرهم، ويقول الدكتور مصطفى العبادي «أن كلمة فسطاط كانت شائعة في أرجاء الإمبراطورية الرومانية بالنسبة للمعسكرات أو الحصون وليس في مصر فقط» [(١)].

تخطيط الفسطاط :

عندما شرع عمرو بن العاص ﷺ في تخطيط الفسطاط، اختلفت القبائل في اختيار خططها، وحسما للخلاف بين القبائل أنتدب عمرو بن العاص أربعة من قادة المسلمين للإشراف على توزيع القبائل. وهم «معاوية بن حديج التميمي، وشريك القطيفى، وعمرو بن مخزوم الخولاني، وحيويل بن ناشرة المغافرى». وأتم هؤلاء عملهم في دقة وسرعة، وأنزلوا الناس منازلهم، بعد أن شيد عمرو بن العاص المسجد، ثم شيدت القبائل خططها حول هذا المسجد [(٢)].

والخطة معناها الأرض تنزل من غير أن ينزلها نازل قبل ذلك، وقد

---

(١) نفس المصدر صـ٤٩.

(٢) المقريزي مصدر سبق ح١ صـ٢٩٦، السيوطي جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م . حسن المحاضرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة ح١ صـ١١٥، ١١٦ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي ط(٥) ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

خط لنفسه خطا واختطها، وهو أن يعلم عليها علامة... ليبني دارا فيها، ومنه خطط البصرة والكوفة (١).

ويقول المقريزي «أن الخطط التي كانت بالفسطاط تعني الحارات التي في القاهرة اليوم»(٢).

وبدأ تخطيط الفسطاط بسيطا، حيث إبتدأ عمرو بن العاص داره قرب المسجد وإلى جواره دار إبنه عبد الله، ثم كتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ «أنا قد إختطنا لك دارا عند المسجد الجامع، فكتب إليه الخليفة»: أن لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر؟ وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين (٣).

ثم شيد كبار الصحابة خططا لهم إلى جانب خطة عمرو بن العاص، ومنهم: خارجة بن حذافة العدوي، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومسلمة بن مخلد الأنصاري، والزبير بن العوام وغيرهم الكثير، وإلى جانب منازل قريش والأنصار، ورؤساء الجند شيدت القبائل الأخرى خططا لهم (٤).

ومن أشهر خطط الفسطاط «خطة أهل الراية - وهم جماعة من الأنصار وُخزاعة، وغفار، ودوس، وعبس... وغيرهم» وسمو بأهل الراية لأنهم سجلوا في الديوان بغير نسبهم، فجعل لهم عمرو بن العاص راية تجمعهم، إبتداء من باب الشمع بحصن بابليون، ويليهم خطة «مهرة» وخطة «نجيب» وخطط «بني لخم» وغيرهم باقي القبائل... (٥).

---

(١) ابن منظور مصدر سبق صـ١١٩٨.
(٢) المقريزي - المصدر السابق حـ١ صـ٢٩٧.
(٣) ابن عبد الحكم مصدر سبق صـ١١٦.
(٤) نفس المصدر ١٢٣، ١٢٤، المقريزي مصدر سبق حـ١ ص٢٩٧.
(٥) نفس المصدر حـ١ صـ٢٩٨.

إتساع الفسطاط :

كانت بيوت الصحابة في بادئ الأمر طبقة واحدة، ثم أخذت تعلوا وتتسع شيئا فشيئا، حتى صار ارتفاع أغلبها خمس طبقات فأكثر، وأصبح يسكنها المئات من الناس [١].

كما بنيت فيها القصور، فأول قصر بني فيها، كان لعبد الله بن عمرو ويقول بن عبد الحكم «واختط عبد الله هذه الدار الكبيرة التي عند المسجد الجامع وبنى فيها قصرا على تربيع الكعبة» كما بنى عبد عبد الله بن أبي سرح في ولايته على مصر سنة ٢٥هـ - ٣٥هـ قصر (يقال له قصر الجن) ثم اختط وردان مولى عمرو بن العاص القصر الذي عرف بقصر عمرو بن مروان [٢]، كما بنى ابن ملجم بالراية الدار التي واجهتها بالحجارة، وبذلك تكون الفسطاط قد شقت طريقها للمدنية، والتقدم، حيث يقول بن خلدون، «أن الدول من المدن والأمصار، وأن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة، التي يدعوا إليها الترف، وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها» [٣].

وبذلك صارت الفسطاط عاصمة مصر فمنذ أن اختطها المسلمون انتقل كرس المملكة من مدينة الإسكندرية، بعد ما كانت منزل الملك، ودار الإمارة زيادة على تسعمائة سنة، وصارت من حينئذ الفسطاط دار إمارة ينزل فيها أمراء مصر وسكنوها [٤] ثم تداولت عليها ولاة مصر بعد ذلك فاتخذوها

---

(١) حسن إبراهيم حسن ــ موسوعة تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ج١ صـ٤٢٣ مكتبة النهضة المصرية ط(٧) ١٩٦٤.

(٢) ابن عبد الحكم مصدر سبق صـ١٣٧، ١٣٩ - ١٢٢.

(٣) ابن خلدون/ عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن ت٨٠٤هـ/ ١٤٠٥م المقدمة ط(٥) صـ٣٤٢ دار القلم بيروت.

(٤) المقريزي مصدر سبق ج١ صـ٢٨٥.

سرير السلطة، وقد تضاعفت عمارة الفسطاط، وأقبل الناس من كل جانب عليها [١].

وكان اختيار العرب لموقع الفسطاط يدل على نظرة صائبة فقد أثبتت الحفريات «أنها قامت على كتلة عظيمة من الصخر تشمل هضابا ووهادا، حتى لا يطغى عليها الماء، ومن الناحية الحربية كان وجودها على رأس الدلتا مما جعلها في مأمن من هجمات العدو، فيحمى الفسطاط من جهة الشرق جبل المقطم ضد العدو، وضد فيضان النيل، كما كان لها جانب يمكن أن يطرد إتساعها منه وهو الشمال فلما أريد توسعتها بنيت مدينة العسكر والقطائع[٢].

وزادت أهمية الفسطاط بعد إعادة حفر القناة التي أنشأها الفراعنة لتصل بين بابليون والبحر الأحمر عند مدينة القلزم (السويس) وكانت تمر بمدينة بلبيس وبحيرة التمساح، ولكنها أهملت، فأعاد حفرها عمرو بن العاص، وعادت أهميتها القديمة، وسماها خليج أمير المؤمنين، وبذلك سهلت المواصلات، واستخدمت في نقل الغلال والمؤن إلى الأرض الحجازية [٣].

- **حريق الفسطاط :**

يقول بن خلدون: «أن الأمصار التي تكون كراسى للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها... وكل أمة لا بد لهم من وطن، وهو منشأهم... وإذا ملكوا ملكا آخر صار تبعا للأول... وتهوى أفئدة الناس من أجل الدولة والسلطان، فينتقل إليه العمران، ويختفى من الأول حضارته وتمدنه، كما وقع للعرب في العدول عن المدائن إلى الكوفة، والبصرة، ولبنى العباس في

---

(١) نفس المصدر ح١ ص صـــ٢٨٥.

(٢) د. صفي على محمد مرجع سبق صـــ٥٣.

(٣) المقريزي نفس المصدر ح١ صـــ٧١، ابن عبد الحكم المصدر السابق صـــ١٩١.

العدول عن دمشق إلى بغداد.. [١].

وفي مصر رأينا كيف أنشأ عمرو بن العاص مدينة الفسطاط عقب فتحه لمصر سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م، وظلت حاضرة مصر طوال عصر الخلفاء الراشدين والأمويين، ولما قامت الدولة العباسية أسرع أبو عون عبد الملك بن يزيد – والى مصر من قبل الخليفة العباس السفاح – إلى إنشاء حاضرة جديدة هي مدينة العسكر سنة ١٣٣هـ/ ٧٥١م – وظلت حتى بزغ نجم أحمد بن طولون فأنشأ مدينة القطائع سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٩م. وظلت مركز للحكم حتى جاء جوهر الصقلي مصر وأنشأ مدينة القاهرة عاصمة الفاطميين [٢].

وبتحول كرسي الحكم إلى هذه العواصم الواحدة تلوا الأخرى، أهملت الفسطاط والمرحلة النهائية في دمار الفسطاط كان لها سببان:

الأول : الشدة العظمى التي حدثت أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٥٤هـ عندما تمرد الجند ووقعت الفتنة بينهم، وعم الفساد في البلاد، والقحط، والمجاعة بسبب الغلاء، وانتشر الوباء حتى أن الناس كانت تهلك في الطرقات، واستمر إلى سنة ٤٦٤هـ – وبسبب هذا الغلاء تفرق أهل المستنصر وأقاربه من شدة الجوع فمنهم من سار إلى المغرب ومنهم من سار إلى الشام والعراق، وخربت الفسطاط وخلا موضع العسكر والقطائع، وإضطر الخليفة أن يستنجد بأمير الجيوش بدر الجمالي (حاكم الشام) لتحسين الأحوال، وإخماد الفتن، فلما قدم إلى مصر اهتم بتحسين القاهرة، وأهمل الفسطاط وسمح للجند، والقادرين على البناء في القاهرة، وصار مما يلي القاهرة، حيث كان العسكر والقطائع، فضاء وكيمان، وتراجعت أحوال الفسطاط [٣].

---

(١) ابن خلدون مصدر سبق صـ٣٧٤، ٣٧٥.
(٢) المقريزي مصدر سبق ح١ ص ، عبد الرحمن الرافعي وسعيد عاشور مصر في العصور الوسطى (من الفتح العربي حتى الفتح العثماني) صـ١٩٤ دار النهضة العربية ١٩٩٢م.
(٣) المقريزي مصدر سبق ح١ صـ٣٣٧.

الثاني : وهو حريق الفسطاط أثناء الحروب الصليبية عندما قدم عمورى ملك بيت المقدس لغزو مصر؛ فاستولى على بلبيس، وتقدم نحو القاهرة وعجز شاور (وزير الخليفة المستنصر) عن الدفاع، فخشى من سقوط الفسطاط في أيدي الصليبيين، فأمر بإخلائها وحرقها، ويقول المقريزي «بعث شاور إلى مصر (الفسطاط) بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار، فرقت فيها، فارتفع لهب النار، ودخان الحريق إلى السماء، فصار منظر مهولا واستمرت النار تأتي على المساكن أربعة وخمسين يوما. ومن ثم تحولت مصر (الفسطاط) إلى الأطلال المعروفة الآن بكيمان مصر. فلما حدث الحريق رحل عمورى من بركة الحبش، ونزل بظاهر القاهرة، ولما جاء أسد الدين شيركوه حاكم الشام للدفاع عن مصر، رحل عنها عمورى وعاد إلى بلاده [١].

ولما تولى صلاح الدين أمر مصر، خشى من خطر الشيعة في الداخل وخطر الصليبيين، أمر ببناء سور [٢] يحيط بالقاهرة، والقطائع والعسكر، وما بقى من الفسطاط، فانتقل النشاط التجاري إلى ساحل النيل، حيث كانت ترسوا السفن وتكثر المخازن [٣] وفي عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب عمرت

---

(١) نفس المصدر ج١ صـ٣٣٩.

(٢) أشرف على بناء هذا السور بهاء الدين قراقوش الأسدي ، وهذا السور هو ثالث الأسوار التي أحاطت بالقاهرة وهو مبنى بالحجارة، وطول هذا السور ٢٩٣٠٢ذراع، أما السوران الآخران بنيا بالطوب اللبن، المقريزي نفس المصدر صـ٣٨٩، ٣٨٠ ويرجع الفضل للبحاثة على بك بهجت في الكشف عن جزء من هذا السور ثم واصل بعده الأستاذ حسن الهواري حتى تم كشف جزء من هذا السور طوله ٨٤١ مترا . عبد الرحمن الرافعي، وسعيد عاشور مصدر سبق صـ٤١٨ كما كشفت هيئة الآثار المصرية عن جزء منه، وهو أمام مستشفى الحسين الجامعي وينتهي عند باب النصر، وجاري ترميمه حاليا سنة ٢٠٠٧م .

(٣) المقريزي المصدر السابق صـ٣٣٩.

قلعة الروضة سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٢٧م وأسست العمائر الجميلة، والأسواق ونشطت التجارة، ودبت الحياة فيما بقى من الفسطاط. وفي سنة ٦٩٦هـ انتشرت الأوبئة في المدينة، واشتد الغلاء، فانصرف الناس عنها، وخرب كثير من عمائرها، وازداد الخراب شيئا فشيئا إلى ٧٩٠هـ/ عظم الخراب فيما بقى منها وبيعت أنقاضها حتى صارت على ما هي عليه الآن [١] «زمن المقريزي» وبقيت كما هي إلى يومنا هذا سنة ٢٠٠٨م .

موقع الفسطاط الحالي :

لم يبقى من الفسطاط القديمة سوى جامع عمرو بن العاص، أما باقي المدينة القديمة، أكوام من التراب والرماد ويطلق عليها «كيمان الفسطاط» وهي حقل خصيب لرجال الآثار يكتشفون عن أسرار حفرياتها، ويحيط بالجامع حاليا عدة أحياء صغيرة، وعشوائيات، وتعمل المحافظة على إزالتها وتخطيطها من جديد.

أما الفسطاط الحديثة فهي عبارة عن حي سكني يقع شمال الجامع إتساع شوارعها ثمان أمتار، وتحمل أسماء لأشخاص وقبائل عربية، مثل «بني كعب، أهل الراية، أبو السعود الجارحي، بهاء الدين زهير، عقبة، عمر، المغيرة، دار الإمارة، عمرو بن العاص... وهي موجودة في شياختي أبو السعود وحسن الأنور (الجيارة) ويفصل بينهما شارع صلاح سالم.

وبالقرب من مدينة الفسطاط وجامع عمرو من الناحية الجنوبية توجد عدة أحياء مثل. الخوخة، أثر النبي، اسطبل عنتر، كوم غراب، مصر عتيقة، كما توجد منطقة مجمع الكنائس وحصن بابليون، والمتحف القبطي، وتوجد فيها عدة كنائس منها: كنيسة ماري جرجس، والكنيسة المعلقة، وهي أقدم كنيسة في العالم بنيت منذ ١٥٠٠ سنة فوق دعائم قوية من الطوب الأحمر في مدخل حصن بابليون الذي يعتبر أثرا مسيحيا وإسلاميا [٢].

---

(١) المقريزي مصدر سبق صـ٣٣٩.

(٢) عبد الله المصري مرجع سبق صـ٢٠، ٢١.

جامع عمرو بن العاص :

أسماؤه وصفاته :

يعرف بالجامع العتيق، وتاج الجوامع، أو المسجد الجامع، وجامع عمرو بن العاص [١].

ويصفه ابن دقماق بقوله «إمام المساجد، ومقدم المعابد، قطب سماء الجوامع، ومطلع الأنوار اللوامع، موطن أولياء الله وحزبه ، طوبى لمن حافظ على الصلوات فيه، وواظب على القيام بنواحيه، وتقرب منه إلى صدر المحراب، وخر إليه راكعا وأناب [٢].

كيفية إنشاؤه :

أنشأه عمرو بن العاص سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م بعد فتح الإسكندرية، وتم تشييده على الشاطئ الشرقي للنيل من بحريه، وكان ما حوله حدائق وكروم[٣] وكانت المسافة بينه وبين شاطئ النهر حوالى مائتي متر إلا أن المسافة الآن بين الجامع وشاطئ النهر حوالي خمسمائة متر لانحسار ماء النهر [٤].

وكان هذا الموقع المتميز ملكا لقيسية بن كلثوم النجيبي، أحد قادة المسلمين فقد اختار هذا المكان وأقام له منزلا فيه طوال مدة حصار المسلمين لحصن بابليون. ولما عاد المسلمون بعد فتح الإسكندرية، اجتمعوا وتشاوروا في أن يكون المسجد مكان منزل قيسية.

---

(١) المقريزي مصدر سبق ج٢ ص٢٤٦.

(٢) حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية ط٢ ص٢٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.

(٣) المقريزي المصدر السابق ج٢ ص٢٤٦، السيوطي مصدر سبق ج١ ص١٣٢.

(٤) د/صفي على محمد مرجع سبق ص٦٢.

وبدئ في إنشائه بعد تبرع قيسية للمسلمين بمنزله [١] ووقف على تحرير القبلة ثمانون صحابيا رضوان الله عليهم فيهم «الزبير بن العوان والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، وقد اشترك معهم عمرو بن العاص في تحرير القبلة، ومع ذلك صممت نحو الشرق، وصححها الوالي الأموي «قره بن شريك» سنة ٩٠هـ [٢].

وكانت مساحة المسجد وقت إنشائه ٥٠ ذراعا x ٣٠ ذراعا يحيط به الطريق من كل جهة، ولا صحن له، وكان مبني بالطوب اللبن وسقفه منخفضا محمولا على ساريات من جذوع النخل [٣].

وكانت جدرانه عارية من البياض والزخرفة، وله بابان في بحريه، وبابان في غربيه، وبابان يقابلان دار عمرو [٤] واتخذ له منبرا فكتب إليه الخليفة عمر بن الخطاب يأمره بكسره قائلا له «أما يكفيك أن تقوم قائما، والمسلمون جلوس تحت عقبيك» فكسره عمرو [٥].

ويعتبر جامع عمرو بن العاص أول جامع في مصر وقارة أفريقية وله أهمية كبرى لأنه ثالث مسجد أقيم في الإسلام بعد مسجد البصرة [٦] والكوفة[٧].

ونظرا لأهمية جامع عمرو بن العاص، كانت تقام به صلاة الجمعة

---

(١) المقريزي مصدر سبق ح٢ صـ٢٤٦.
(٢) نفس المصدر صـ٢٤٧، السيوطي مصدر سبق صـ١١٧.
(٣) المقريزي المصدر السابق ح٢ ص٢٤٧.
(٤) عبد الله المصري مرجع سبق ص٢٧، حسن عبد الوهاب مرجع سبق ص٢٣.
(٥) ابن عبد الحكم مصدر سبق ص١١٦، المقريزي المصدر السابق ح٢ صـ٢٤٧.
(٦) حسن إبراهيم حسن مرجع سبق ح١ ص٤٢١.
(٧) نفس المصدر ص٤٢٢.

حتى بعد تأسيس جامعي العسكر، وابن طولون [١].

كما أنه يمثل تاريخ مصر منذ أن دخلها الإسلام، في شتى المجالات «سياسة، واقتصاد، واجتماع، وتعليم، وإدارة وقضاء، ودار عبادة [٢].

وقد زادت مساحته على مر العصور، واهتم به ولاة مصر، في إصلاحه وزخرفته حتى وصلت مساحته اليوم (١٢٩مترا X ١١٠أمتار) أي حوالي ١٣٢٠٠مترا وهو يعتبر أقدم أثر إسلامي في مصر وقارة أفريقيا [٣].

الاحتفال بالصلاة في آخر جمعة من رمضان :

نشأ هذا التقليد منذ الدولة الفاطمية، فقد كان الخليفة الفاطمي يركب للاحتفال برؤيا شهر رمضان ثم يستريح أول جمعة منه، فإذا كانت الجمعة الثانية أداها في جامع الحاكم، فإذا كانت الجمعة الثالثة أداها في الجامع الأزهر، فإذا كانت الجمعة الرابعة صدرت الأوامر بأدائها في جامع عمرو بن العاص، فيقوم أهالي القاهرة بعمل الزينات حتى جامع عمرو، وبعد أداء الفريضة يعود الخليفة إلى القصر فيصدر السجل وهو بمثابة بلاغ ديوان كبير الأمناء الآن [٤].

ولما أتم مراد بك إصلاح المسجد في النصف الثاني من شهر رمضان سنة ١٢١٢هـ/ (١٧٩٧م) أقيمت فيه آخر جمعة من رمضان فاتخذت عادة حتى اليوم إحياءا للعادة القديمة [٥].

---

(١) المقريزي المصدر السابق ج٢ صـ٢٤٨، ٢٥٠.
(٢) عبد الله المصري مرجع سبق ص٢٧.
(٣) المجلس الأعلى للآثار (جامع عمرو بن العاص) أثر رقم (٣١٩).
(٤) حسن عبد الوهاب مرجع سبق صـ٣٢، المجلس الأعلى للآثار المصدر السابق صـ١٣.
(٥) المرجع السابق صـ١٣.

ولإقامة الصلاة في هذا الجامع في نهاية شهر رمضان معنى ساميا حبي الله به هذا القائد العظيم فأحيا ذكرى وفاته سنويا إذ يوافق آخر أسبوع من رمضان، الأسبوع الذي توفى فيه عمرو بن العاص. فقد توفى ليلة عيد الفطر [١].

الحياة الثقافية :

أسس عمرو بن العاص مدينة الفسطاط عاصمة لمصر، ولم تكن منعزله عما حولها من البلاد، وإنما غدت مركزا للتنسيق الإجتماعي بين القبائل العربية وأهالى البلاد، وينابيع لنشر الإسلام وحضارته أيضا بين أولئك السكان، وتمت هذه الرسالة وفق قواعد محددة، هيات للنظام الإجتماعي الإسلامي السمو والإجلال [٢].

وكان عمرو بن العاص مبرزا في عقله ودهائه، إذ أنه اشترط في إتفاقية الصلح التي عقدها مع القبط عند قدومه مصر « للمسلمين على القبط النزل لجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام لكل من نزل منهم وأن لهم أرضهم ومالهم لا يعترضون في شيء منها [٣].

ووفقا لما جاء في الإتفاقية. وضع عمرو بن العاص نظام لتعريب مصر ونشر الثقافة الإسلامية، يعتمد على عنصرين أساسيين:

أولا: نظام الإرتباع :

---

(١) حسن عبد الوهاب المرجع السابق صـ٣١.

(٢) إبراهيم العدوي: تاريخ العالم الإسلامي صـ١٢٤،مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٣.

(٣) ابن عبد الحكم مصدر سبق صـ٩٣، السيوطي مصدر سبق صـ١٠٣، المقريزي مصدر سبق ح١ صـ٢٩٢.

كان خير نموذج لهذا التنظيم الجديد الصورة التي اشتهرت في مصر باسم «نظام الإرتباع» فلم تكن القبائل العربية رهن الفسطاط، وإنما كانت تخرج كل ربيع [(١)]، حيث يطلقون خيولهم ترعى في حقول البرسيم الخضراء، على حين يمارس أفراد القبائل الصيد، ويتناولون اللبن الذي يكثر في الربيع ويقدمه لهم المصريون، ويلتهمون الخراف واللحم الذي يحصلون عليه أيضا [(٢)].

وقد تمت هذه العملية وفق قواعد محددة، بعيدة عن الإرتجال، وجاءت الخطوط الرئيسية لنظام الإرتباع في خطب عمرو بن العاص التي كان يلقيها على جنده في مطلع كل ربيع، يوصيهم فيها بقوله:

«يا معشر الناس أنه قد تدلت الجوزاء [(٣)]، وذكت الشعري [(٤)]،وأقلعت السماء، وارتفع الوباء، وقل الندى، وطاب المرعى، ووضعت الحوامل، ودرجت السخائل [(٥)]، وعلى الراعي يحسن رعيته وحسن النظر، فحي لكم على بركة الله إلى ريفكم، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده، وأربعوا خيولكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم، وبها مغانمكم

---

(١) الربيع جزء من أربعة، والجمع أرباع ورُبوع، فهو جزء من أجزاء السنة، وهو الفصل الذي يدرك فيه الثمار، وما تعتلفه الدواب من الخضر، وقيل أربعوا صاروا إلى الريف والماء وتربع القوم الموضع وارتبعوه أقاموا فيه زمن الربيع، والمرتبع من الدواب الذي رعى الربيع فسمن ونشط.
ابن منظور: لسان العرب صـــ١٥٦٢ – ١٥٦٥ مادة ربع.

(٢) العدوي مرجع سبق صـــ١٢٤.

(٣) نزلت الجوزاء (وهي برج من أبراج النجوم وتظهر في الربيع).

(٤) كوكب مضئ يقال له «المرزم» يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه، في الصيف حيث تجمع الثمار «تقول العرب إذا طلعت الشعري جعل صاحب النخل يرى».

(٥) أكلت الماشية ٢، ٣، ٤ ابن منظور – لسن العرب ص٢٢٧٨، ٩٣٥١.

وأنفالكم.

واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا وإياي والمشمومات والمعسولات فإنهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم، حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لكم فيهم صهرا وذمة، فعفوا أيديكم وفروجكم، وغضوا أبصاركم.

ولا أعلمن حال رجل قد اسمن جسمه وأهزل فرسه من غير علة حططه من فريضته قدر ذلك.

واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، وتشوف قلوبهم إليكم، والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية. وحدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا فتح الله عليكم مصر، فإتخذوا فيها جندا كثيفا، فذلك الجند خير أجناد الأرض، فقال له أبو بكر ولم يا رسول الله؟ قال: «لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة: «فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم، فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم.

فإذا يبس العود وسخن العمود، وكثر الذباب، وحمض اللبن، انقطع الورد من الشجر، فحي على فسطاطكم على بركة الله، ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفه لعياله على ما أطلق من سعته أو عسرته»[١].

ويتبين من الخطاب أن نظام الإرتباع كان كما يلي :

١- أن موسم الإرتباع يبدأ مع نهاية فصل الشتاء، عندما يتوقف المطر ويترعرع النبات وتتفح الأزهار، وعلامته «نزول الجوزاء وظهور نجم

---

(١) ابن عبد الحكم مصدر سبق صـ١٦٥ - ١٦٧، السيوطي مصدر سبق صـ١٣٥، ١٣٦، المقريزي ج٢ مصدر سبق صـ٢٦١.

الشعري» وينتهي بعد ثلاثة شهور مع حلول فصل الصيف، حتى إذا يبس العود وسخن العمود» وهو موسم الحصاد.

٢- الإهتمام بالخيل والعناية بها، وإطلاقها في المرعى لأنهم يعتمدون عليها، في قوة جيوشهم، وأن الوالي سوف يطمئن عليها في نهاية موسم الإرتباع، وستوقع عقوبة على كل من هزل فرسه، تخصم من عطائه.

٣- حسن معاملة المصريين، وحذرهم من الإستغلال والطمع وأوصاهم بغض البصر عن كل ما حرمه الله: وخاصة عدم ارتكاب الفحشاء، لأنها مفسدة للدين والخلق .

٤- بيان أهمية مصر وكثرة خيراتها: وأكد على ضرورة الإستعداد للدفاع عنها لكثرة الأعداء حولها، المتربصين بها.

٥- حمل الهدايا من خيرات ريف مصر عند عودتهم إلى أسرهم المقيمة في الفسطاط، تأكيدا على ربط أواصر المودة بين أفراد القوات وأسرهم ودعما لنظمهم الاجتماعية [١].

وبعد الخطاب تتجه القبائل والجند إلى الريف المحدد لكل منهم. وقد تركزت حركة الإرتباع أولا في الجهات القريبة من الفسطاط، ثم اتسعت حتى شملت أرجاء الدلتا، والصعيد، وكانت القبائل الكبيرة تستأثر بالقرى الخصبة المجاورة للفسطاط، فاختارت قبائل «بلى، ونجيب، وآل عبد الله بن سعد أماكن إرتباعها في منف، ووسيم» حول الجيزة، واشتركت عدة قبائل في إختيار أماكن معينة حسب نفوذها.

وكانت القبائل تخرج إلى الريف مطلع كل ربيع ثم تعود آخره إلى الفسطاط، فضلا عن أن بعض القبائل، اتخذت من الريف وطنا دائما لها.

كما فضلت قبائل أخرى مناطق ذات مناخ يتفق وطبيعة بلادهم،

---

(١) العدوي مرجع سبق صـــ١٢٥، ١٢٦.

ومزاجهم - فأقبل عرب «قريش والحجاز» على الإقامة في أسوان، لأن جوها يشبه جو الحجاز وقربها من البحر الأحمر.

وساعدت المناطق الساحلية على إقامة الجند فيها لحمايتها من الأعداء من العريش على برقة في ليبيا، مرورا بدمياط والبرلس، ورشيد [١].

وغدت الديار المصرية تشهد مجتمعا جديدا نتيجة نظام «الإرتباع» واختلاط القبائل العربية بالمصريين، وزادت سنة هذا النظام الاجتماعي الجديد، خاصة بعد أن اتجهت بعض القبائل العربية إلى الاشتغال بالزراعة[٢].

ومما ساعد على نجاح نظام الارتباع أن المسلمين، التزموا بما جاء في الخطاب من نصائح، وما ورد في أحاديث رسول الله ﷺ بحسن معاملة أهل مصر.

لذلك وجد المصريون فرقا كبيرا بين معاملة العرب، ومعاملة الرومان التي كانت تتسم بالقسوة والشدة، والإضطهاد [٣].

ولا شك أن هذا النظام أتاح الفرصة لمزيد من القبائل العربية، التي نزلت في ريف مصر، واستقرارها بوادي النيل والدلتا، مما أدى إلى أختلاطهم بالأقباط إختلاطا كبيرا ومن ثم إلى انتشار الإسلام واللغة العربية وتعريب البلاد [٤].

ومن ذلك أنه عندما توجه عبد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر إلى الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٩هـ/ ٧٢٧م وسأله أن ينقل إلى مصر

---

(١) ابن عبد الحكم مصدر سبق صـ١٦٨.
(٢) المقريزي الخطط ح١ صـ٨٢، العدوي مرجع سبق صـ١٢٧.
(٣) انظر «حريق مكتبة الإسكندرية».
(٤) د/ صفي على محمد مرجع سبق ص١٠١.

بيوتا من بطون «قيس» فأذن له هشام في نقل ثلاثة آلاف، وتحويل ديوانهم، على ألا ينزلهم الفسطاط، فقدم بهم ابن الحبحاب، وأنزلهم في بلبيس بالشرقية، وأمر لهم بالزراعة، وعندما توفى الخليفة هشام بن عبد املك سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م كان في بلبيس ١٥٠٠ أهل بيت من قيس (١).

كما يذكر أنه في زمن الخليفة مروان بن محمد عندما ولي "الحوثر بن سهل الباهلي" مصر سنة (١٢٨ – ١٣١هـ) فمالت إليه بطون من قيس، فلما مات الخليفة مروان كان بها ثلاثة آلاف أسرة منهم ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية كثير من أقربائهم (٢).

وكانت هذه القبائل تنتشر في الريف وتختلط بالمصريين وتتزوج من بناتهم ويشتغلون بالزراعة، والصناعة، والتجارة، وغير ذلك من الأعمال التي كانوا يترفعون عنها من قبل، وهذا ما أفاد الإسلام، وساعد على انتشاره بين المصريين، كما كان له الأثر في انتشار اللغة العربي (٣).

ويشير المقريزي إلى الأثر الكبير الذي أحدثه هذا التحول في انتشار الإسلام بقوله «... فانظر ما كان عليه الصحابة وتابعوهم عند فتح مصر من قلة السكنى بالريف، ومع ذلك فكانت القرى كلها في جميع الأقليم أعلاه وأسفله مملوءة بالقبط والروم. ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلا بعد الماءة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب «ولي سلول قيسا» بالحوف الشرقي، فلما كان في الماءة الثانية من سنى الهجرة كثير انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها (٤).

---

(١) المقريزي مصدر سبق ج١ صـ٨٠.

(٢) نفس المصدر ص٨٠.

(٣) سيدة إسماعيل كاشف ـ مصر في فجر الإسلام ط(١) ص٢٥٨ القاهرة ١٩٤٧.

(٤) المقريزي مصدر سبق ح٢ صـ٢٦١.

وكان من نتيجة الاختلاط امتزاج العرب بالمصريين الأقباط، ولعل في إباحة الإسلام لمثل هذا الزواج كان المشجع الأول للعرب على الإقدام عليه مما كان له الأثر في الإمتزاج الجنسي، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (١).

هذا فضلا عن أن الإسلام حل في قلوب باقي فئات الشعب المصري وهم، المفكرون الذين وجدوا في الإسلام تطلعهم الفكرى، والذين ثقلت عليهم الجزية ، بعد أن أثقل الرومان عليهم حياتهم فولوا وجوههم شطر حياة أفضل، ودين لا إضطهاد فيه.

وكذلك الأسرى من جند الروم الذين اختلطوا بالمسلمين، وعرفوا الإسلام معرفة عملية عن قرب.

ويقول «بتلر» عن الروم الموجودين في مصر أنه «دخل في الإسلام كثير من الروم بعضهم جنود، وبعضهم ممن حل في مصر بين المدنيين (٢).

ومما يدل على أن المصريين كانوا يدخلون في دين الله أفواجا، تناقص خراج مصر إلى أقل من النصف في سنوات قليلة، بسبب دخول أقباط مصر في الإسلام ولما أحس والى مصر على عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٢٠هـ - ٧١٧ - ٧٢٠م) أيوب بن شرحبيل - أن خراج مصر يتضاءل بصورة خطرة بسبب دخول كثير من الناس في الإسلام، وأثر ذلك على الخراج فبعث للخليفة يستأذنه في فرض الجزية على من اسلم، فرد عليه

---

(١) سورة المائدة آية: ٥، د. صفي على محمد مصدر سبق صـ١٠٢.
(٢) محمود محمود حسن ـ الحياة العلمية في مصر من قيام الطوليين إلى سقوط الإخشيديين في الفترة من ٢٥٤ - ٣٥٨هـ رسالة ماجستير ١٩٩١م.

الخليفة عمر بن عبد العزيز بكلمته الخالدة، قبح الله رأيك، إن الله إنما بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا، فضع الجزية عمن أسلم. ولعمري لعمر أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يديه» [١].

ويقال إن سنة (١٣٨هـ - ٧٥٥م) شهدت إسلام كثير من أهل الذمة في مصر، حتى لقد أسلم في قليوب وحدها أربعمائة وخمسون شخصا في يوم واحد [٢].

ولم يكن انتشار الإسلام كله راجعا إلى تأثير الحكومة المركزية بدار الخلافة بل انتشر منذ أول الفتح بتأثير عوامل أخرى، فلقد اعتنق بعض الأقباط الدين الإسلامي منذ البداية حبا في الانتماء إلى دين الطبقة الحاكمة، والتمتع بما لها من حقوق [٣].

ولا ريب في أن فريقا من القبط قد أقبل على اعتناق الإسلام عن إيمان واقتناع؛ ولعل فريقا آخر قد مل الخلافات الدينية التي كانت تقسم العالم المسيحي في ذلك الوقت، والإضطهاد الذي كان يتعرض له أصحاب المذهب الذي لا تؤيده الحكومة السائدة [٤].

وقد تبع انتشار الدين الإسلامي في مصر انتشار اللغة العربية فيها أيضا - فكان يجب على من يعتنق الإسلام أن يتعلم اللغة العربية حتى يمكنه قراءة القرآن الكريم، وآداء الصلاة، وكان إنتشار اللغة العربية أبطأ من

---

(١) المقريزي مصدر سبق ج١ صـ٧٨ د/ حسن إبراهيم حسن، على إبراهيم حسن، النظم الإسلامية ط١ ١٤٣٨هـ/ ١٩٣٩م صـ٣٠٩ مكتبة النهضة المصرية.

(٢) د/ عبد الرحمن الرافعي، وسعيد عاشور - مرجع سبق صـ٣٣.

(٣) سيدة كاشف مرجع سبق صـ٢٥٨.

(٤) نفس المرجع صـ٢٥٩.

انتشار الدين الإسلامي [١].

ويذكر إسرائيل «ولنتسون» «أن من أهم الأسباب التي أدت إلى تدهور اللغة القبطية، إعتناق كثير من العناصر المصرية للدين الإسلامي فكثرت جموع المسلمين في مصر واشتد تأثير العصبية العربية التي كانت من أهم أغراضها التي تسعى للوصول إليها بهمة ونشاط نشر اللغة العربية في جميع أنحاء البلاد وتعميم استعمالها بين الطبقات [٢].

وكذلك إضطر الأقباط المستخدمين لدى الحكومة إلى تعلم اللغة العربية بعد تعريب الدواوين، فقد نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧هـ/٧٠٥م)[٣].

وبالرغم من أننا لا نعرف بالضبط متى أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب بين المصريين فإن آثار القرن الرابع الهجرى المدونة من الكتب تدل على سيادة اللغة العربية، وانتشارها بين الأقباط، فقد ألف سعيد بن بطريق البطرك الملكاني كتابا في التاريخ باللغة العربية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري [٤] وهو كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ونرى ساويرس أسقف الأشمونيين يؤرخ للبطاركة في أواخر القرن الرابع الهجرى باللغة العربية، ويقوم بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها، مما يدل على أن اللغة العربية أصبحت لغة الكلام ولغة التخاطب

---

(١) د/ صفي على محمد مرجع سبق صـ١٠٤، سيدة كاشف المرجع السابق صـ٢٥٩.

(٢) د/ صفي المرجع السابق صـ١٠٤.

(٣) المقريزي مصدر سبق ح١ صـ٩٨.

(٤) سيدة كاشف مرجع سبق صـ٢٦٠، د/ صفي على مرجع سبق صـ١٠٧.

بين المصريين عامة ولم تعد اللغة القبطية تفهم بين عامة الشعب [١]. ويشير في مقدمة كتابه إلى سيادة اللغة العربية وانتشارها بين المصريين فيقول (... فاستعنت بمن أعلم باستحقاقهم من الإخوة المسيحيين، وسألتهم مساعدتي على نقل ما وجدناه منها بديار مصر بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم العربي الذي هو الآن معروف عند أهل الزمان بإقليم ديار مصر، لعدم اللسان القبطي اليوناني من أكثرهم»[٢].

وبسيادة اللغة العربية أخذت اللغة القبطية في الإضمحلال واستمر تدهور القبطية شيئا فشيئا حتى حصرت في الأديرة والكنائس ثم اضمحلت بمضى الزمن حتى صار الكهنة الذين يستعملونها للصلوات في بعض الكنائس لا يفهمونها جيدا ويستعملون إلى جانبها الترجمة العربية [٣].

وقد ترتب على التقاء اللغات المختلفة التي كانت متداولة في مصر في فترات زمنية معينة مثل اليونانية والسريانية، ثم القبطية على اللغة العربية أن تأثرت اللغة العامية بمصر ببعض الألفاظ والعبارات من تلك اللغات إلى العامية المصرية؛ كما أننا نستعمل في الوقت الحالي بعض الألفاظ والكلمات التي ترجع إلى اللغة المصرية القديمة، وإلى القبطية التي اشتقت منها، ومن هذه الكلمات (طوب) ومعناها بالقبطية حجر، و «ميت» ومعناها ريف وهي اسم لكثير من قرى مصر مثل «ميت رهينه» و «ميت أبو الكوم» و «ميت عساس» وغيرها و «شونة» ومعناها مخزن، و «بولاق» ومعناها شاطئ النهر الخ..[٤].

---

(١) نفس المرجع صـــ٢٦٠.

(٢) د/ صفي نفس المرجع صـــ١٠٧، نقلا عن ساويرس: سير الأباء البطاركة م١ ج١ صـــ١.

(٣) د/ صفي مرجع سبق صـــ١٠٧ وما ذكره من مصادر إسرائيل ونفس – تاريخ اللغات السامية صـــ٢٢١.

(٤) نفس المرجع صـــ٢٢٢.

ولكن العامية المصرية حافظت على اللسان العربي الفصيح أكثر من أخواتها في بلاد العراق والشام والمغرب حيث كثرت العناصر الأعجمية[(١)].

ولم يقف الأمر عند انتشار اللغة العربية، بل إننا نجد أن مصر تشارك في الحياة الأدبية العربية منذ أواخر القرن الثاني الهجري فظهر فيها من له شأن في العلم باللغة العربية، وآدابها فحين قدوم الإمام الشافعي إلى مصر، أنه التقى برجل من أهل مصر يعرف باسم «سرج الغول» وكان هذا الرجل حجة في اللغة، وكان الإمام الشافعي شديد الأنس به، يقول لتلميذه "الربيع" بين حين وآخر: «يا ربيع ادعى لي سرجا» فيأتي به ويذاكره الشافعي ويناظره ويعجب بغزارة علمه حتى يقول بعد انصرافه «يا ربيع محتاج أن نستأنف طلب العلم»[(٢)].

ونبغ في مصر في القرن الثاني الهجري، وبداية الثالث مثل أبي عبد الله أحمد بن يحيى النجيبي ولاء، المصري، الحافظ النحوي، أحد الأئمة الذي كان من أعلم أهل زمانه بالشعر والأدب والتاريخ وعلوم الدين «وفي هذا ما يشهد باشتراك مصر في الحركة الأدبية العربية إشتراكا قويا منذ ذلك العهد»[(٣)].

كما نشأ في القرن الثاني الهجري جيل من العلماء من أقباط مصر كانوا أئمة في القراءات والأدب واللغة، مثل عثمان بن سعيد المعروف بورش المقرى مولى آل الزبير بن العوام ولد سنة ١١٥هـ وأخذ القراءة عن نافع، وهو الذي لقب بورش لشدة بياضه توفى سنة ١٧٩هـ [(٤)].

---

(١) المرجع السابق صـ٢٢٣.

(٢) سيدة كاشف المصدر السابق صـ٢٦١ وماثلته من مصادر السيوطي بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة صـ٢٥٢ والأستاذ/ أمين الخولي مصر في تاريخ البلاغة صـ٨، مجلة تلبة الآداب المجلد الثاني ح١ سنة ١٩٣٤م.

(٣) أمين الخولي نفس المرجع صـ٨.

(٤) السيوطي مصدر سبق صـ٤٢٠.

وكانت مصر إحدى الأمم التي تخلت عن ماضيها الوطني وعن لغتها القديمة، ورمت بنفسها في أحضان الإسلام، والمدنية الإسلامية فلم يقض فتح العرب لإيران والهند على لغتهما القومية، ولم يقض على العقائد الدينية التي وجدت فيها قبل الفتح قضاءا تاما، ولم يمنع اعتناق الأتراك للدين الإسلامي من الاحتفاظ بلغتهم القومية، ونرى الأندلس التي كانت تزدهر فيها حضارة إسلامية بعد أن فتحها العرب، تغلب على أمرها في أواخر العصور الوسطى وتعود ثانية دولة مسيحية الدين بعيدة عن اللغة العربية [١].

أما مصر في الفترة من الفتح العربي إلى الفتح العثماني لا تصبح دولة إسلامية فحسب بل تتزعم العالم الإسلامي كله فبعد أن كانت خاضعة للخلافة نجدها تصبح مركزا للخلافة الفاطمية (٣٦٢ - ٥٦٧هـ) التي نافست الخلافة العباسية في بغداد، ثم نجد مصر تصبح مركزا للخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦هـ، وانتقالها في مصر في عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦١هـ، وظلت بمصر إلى الفتح العثماني سنة ٩٢٣هـ أي أن مصر في هذه الفترة كانت فخورة بزعامتها للعالم الإسلامي [٢]، وما يدل على ذلك قول بن خلدون «ولا أوفر اليوم، في الحضارة من مصر فهي أم ّالعالم، وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع» [٣].

ثانيا : جامعة عمرو :

كانت مدينة الفسطاط إحدى المراكز العلمية في الدولة العربية الإسلامية، وكان مسجد عمرو بن العاص الجامع بالفسطاط، يعد مدرسة علمية ومنارة تشع بنورها على البلاد المجاورة، بالعلوم والمعارف التي تلقى

---

(١) د/ سيدة كاشف مرجع سبق صـ٢٦٢.
(٢) نفس المرجع صـ٢٢٦.
(٣) ابن خلدون مصدر سبق صـ٥٤٥.

باللغة العربية [١]، ويقول ابن خلدون: «اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين بها، ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية» [٢].

وصار جامع عمرو بن العاص يعج بالنشاط والحركة ليلا ونهارا، فلم يعد قاصرا على آداء الصلوات أو الصلاة الجامعة بل تعددت مهامه ووظائفه فكان مقرا للوظائف الآتية:

أ- مجلس القضاء حيث جلس فيه القاضي للفصل في المنازعات بين الناس منذ أن تم تعين القضاة للأمصار في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وكان قاضي القضاة يجلس فيه كل أسبوع يومين [٣].

ب- وجلس فيه المحتسب صاحب الوظيفة الدينية القائمة على ألأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث كان أعوانه يأتون إليه بالمخالفين في المسجد لتأديبهم وكان عمل القاضي مبنيا على التحقيق والأناة في الحكم، وعمل المحتسب مبني على الشدة والسرعة في الفصل، وكان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة [٤].

جـ- وكذلك بني فيه بيت المال وصار المشرف عليه من بين هؤلاء المسئولين وأولى الأمر، وصاحب الخراج، ومتولي توزيع القبالات والأراضي المصرية على متقبليها [٥].

وإلى جانب هذه الوظائف، كان هناك حركة علمية وثقافية نشطة

---

(١) د/ صفي علي مرجع سبق صـــ١٠٩.
(٢) ابن خلدون مصدر سبق صـــ٣٧٩.
(٣) المقريزي ج٢ صـــ٢٥٣.
(٤) حسن إبراهيم ح١ صـــ٣٩٨، السيد طه أبو سديرة مرجع سبق صـــ٣١، ٤٠.
(٥) نفس المرجع صـــ٢٣.

لتثقيف الناس، وتفقهم في دينهم.

وكانت هذه الحركة في بداية عهدها دينية، لأن القرآن الكريم هو محور الحياة الدينية والدنيوية، فلا بد من فهم القرآن وتفسيره، إقتداء برسول الله ﷺ. فقد جاء في الآية الكريمة ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[١] وجاء في الأثر (خياركم من تعلم القرآن وعلمه)[٢] ومن ذلك بدأت النهضة العلمية دينية في بدايتها، تشتمل على القرآن وتفسيره، والحديث، والفقه المستنبط من القرآن، وعلم القرآن[٣].

فنجد أن الصحابة الذين جاءوا مع عمرو بن العاص، وبعده هم نواة الحركة العلمية في مدينة الفسطاط، وأشهرهم: «الزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، وخارجة بن حزانة العدوي، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وقيس بن أبي العاص السهمي، والمقداد بن الأسود، وعبد الله بن أبي سعد بن أبي سرح العامري، ونافع بن عبد قيس الفهري، وقيل بل هو عقبة بن نافع، ومسلمة بن مخلد، وأبو رافع مولى رسول الله ﷺ، وغيرهم الكثير.[٤].

ويقول الإمام السيوطي قد ألف الإمام محمد بن ربيع الجيزي في ذلك كتابا في مجلد ذكر فيه مائة ونيفا وأربعين صحابيا، وقد فاته مثل ذلك وأكثر، وقد ألفت في ذلك تأليفا لطيفا، استوعبت فيه ما ذكره، وزدت عليه ما فاته... فزاد في العدة على ثلاثمائة في كتاب سميته «در السحابة فيمن دخل مصر

---

(١) القرآن الكريم سورة البقرة آية ١٢٩.
(٢) د/ صفي على مرجع سبق صـ١١٠، ١١١.
(٣) نفس المرجع صـ١١١.
(٤) ابن عبد الحكم مصدر سبق صـ١١٢ – ١٤٥، المقريزي مصدر سبق ج١ ص٢٩٥.

من الصحابة»[(١)].

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء بل أخذ الصحابة يفدون إلى مصر بعد الفتح، وشجعهم على ذلك ما رأوه من وفير الخيرات، وسهولة العيش، فكان العالمون منهم بأمور الدين يقومون بمهمة تعليم الشعب المصري أصول الدين الإسلامي، وهؤلاء الصحابة كانوا أساس مدرسة مصر الدينية [(٢)].

وهذا العدد الكبير من الصحابة الذين نزلوا مصر سواء كانوا فاتحين أو ولاة حاكمين كانوا معلمين، فقد جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال «ألا أني إنما أبعث عمالي ليعلموكم دينكم ويعلموكم سننكم، ولا أبعثهم ليضربوا ظهورهم ولا يأخذوا أموالكم إلا فمن أتى إليه شيء من ذلك فليرفعه إلي فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه»[(٣)].

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يحث الصحابة على نشر العلم، ويحث الناس على الأخذ عنهم، فكتب إلى أهل الكوفة (... إني بعثت إليكم بعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا، وآثرتكم على نفسي، فخذوا عنه، فقدم بن مسعود الكوفة ونزلها وابتنى بها دارا إلى جانب المسجد [(٤)].

كما كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أمير مصر يأمره بأن يقرب دار ابن ملجم من المسجد ليعلم الناس القرآن والفقه ففعل عمرو [(٥)].

وكانت العلوم السائدة في ذلك الوقت دينية (نواتها القرآن الكريم،

---

(١) السيوطي مصدر سبق ح١ صـ١٤٨.
(٢) سيدة كاشف مرجع سبق صـ٣١٤، ٣١٥.
(٣) ابن عبد الحكم مصدر سبق صـ١٩٤، ١٩٥.
(٤) د/ صفي علي مرجع سبق صـ١١٢.
(٥) نفس المرجع صـ١١٢.

وعلومه» من تفسير، وقراءات، وحديث، وفقه، «فكان لا بد من النظر بالكتاب لبيان ألفاظه أولا، وهذا هو علم التفسير، ثم بإسناد نقله روايته إلى النبي ﷺ الذي جاء به من عند الله، واختلاف روايات القراء، في قراءته، وهذا هو علم القراءات، ثم بإسناد السنة إلى صاحبها، والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة...» عدالتهم... وهذا هو علم الحديث، ثم لا بد من استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بهذا الاستنباط، وهذا هو علم الفقه»(١).

وكان لكل علم من هذه العلوم حلقة خاصة به، فكان هؤلاء الصحابة العلماء أساس مدرسة مصر الدينية، كما كان غيرهم أساس المدارس الدينية في مختلف الأمصار (٢).

على أن أشهر من علم بمصر من الصحابة بعد الفتح هو عبد الله بن عمرو بن العاص، حيث يذكر المقريزي: «إن أهل المدينة كانوا يتبعون على الأكثر فتاوى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وأن أهل الكوفة كانوا يتبعون في الأكثر فتاوى عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، وأن أهل مصر كانوا يتبعون فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنها (٣).

وقد ذاعت شهرة عبد الله بن عمرو يومئذ برخصة الرسول ﷺ لكتابة عنه في صحيفته التي أسماها «الصادقة» والتي نقلها معه إلى مصر واشتملت الصحيفة على ألف حديث، كان يحدث منها في حلقته (٤)، وتلقى عنه منها العديد من التابعين ومنهم «سويد بن قيس النجيبي، وهشام بن هدية الصدفي، وعمرو بن الوليد وعبد الرحمن بن عبد الله القافقي، وعبد الرحمن

---

(١) ابن خلدون الفصل الرابع في أصناف العلوم/ ص٤٣٥، ٤٣٦.
(٢) سيدة كاشف صـ٣١٥.
(٣) المقريزي ج٢ صـ٣٣٢.
(٤) السيد طه أبو مرجع سبق صـ٤٠٧.

بن وعلة السبئي المصري وغيرهم [١].

ويعتبر عبد الله بن عمرو بن العاص بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية إذ أخذ عنه كثير من أهلها، وكانوا يكتبون عنه ما يحدث [٢] وظل عبد الله ابن عمرو في رواية الحديث حتى وفاته سنة ٦٥هـ [٣].

ومن حفاظ الحديث الصحابي جابر بن عبد الله قدم إلى مصر في ولاية مسلمة بن مخلد ٤٤ – ٦٢هـ وقيل أن سبب قدومه أنه جاء لمعرفة صحة حديث عن القصاص عن رسول الله ﷺ من عقبة بن عامر الفهري [٤] والصحابي عبد الله بن أنيس الجهني، أقام بالفسطاط، وأخذ عنه أهل مصر الحديث، وأصبح صاحب حلقة بالمسجد الجامع، كما كانت له حلقة في المسجد النبوي بالمدينة المنورة [٥].

ولما كان عبد الله بن عمرو بن العاص هو المعلم الأول ومؤسس مدرسة مصر الدينية، وأخذ عنه كثير من أهلها، وسمعت أحاديث نبوية من مختلف الصحابة الذين وفدوا إليها في أعقاب الفتح، وأصبحت مصر مركزا علميا دينيا في الدولة الإسلامية [٦].

وكان الخلفاء يوفدون علماء الدين ليفقهوا أهلها، فنجد أن الخليفة عمر بن الخطاب يبعث حبان بن أبي جبلة ليفقهم في الدين [٧].

---

(١) السيوطي مصدر سبق ح١ ثـ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧.
(٢) سيدة كاشف مرجع سبق صـ٣١٦.
(٣) السيوطي مصدر سبق ح١ صـ١٨٧.
(٤) ابن عبد الحكم مصدر سبق صـ٣٠٤، ٣٠٥.
(٥) السيوطس مصدر سبق صـ١٨١.
(٦) سيدة كاشف مرجع سبق صـ٣١٦.
(٧) السيوطي مصدر سبق ح١ صـ١٦٦.

كما بعث الخليفة عمر بن العزيز نافعا مولى بن عمر فقيه أهل المدينة إلى مصر يعلمهم السنن فأقام بها مدة [١].

وقد تتلمذ على أيدي الصحابة التابعون وكانوا لا يتعدون فتاويهم [٢] ومنهم إياس بن عامر الغافقي المصري عن علي وعقبة بن عامر، وحسان بن كريب الرعيني الحميري بن كريب المصري عن عمر وعلي، عبد الله بن زرير الغافقي المصري عن عمرو تابعي مات سنة ٨٠هـ وغيرهم وذكر السيوطي منهم سبعون فقيها [٣].

وقد كثر تعليم الصحابة في الأمصار المفتوحة اشترك العرب وغيرهم في تلقي العلم، ولما انتشر العلم أصبح أكثر المتعلمين من العجم، يقول بن خلدون «وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم... وكان علماء الفقه كلهم عجما... ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم»[٤].

ودلنا على ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز جعل الفتيا بمصر إلى ثلاث رجال رجلان من الموالى ورجل من العرب، فأما العربي فهو جعفر بن ربيعة، وأما المولَيان يزيد بن أبي حبيب، وعبد الله بن أبي جعفر فكان العرب قد أنكروا ذلك، فقال عمر بن عبد العزيز ما ذنبي إن كانت الموالي تسموا بأنفسهم صعدا، وأنتم لا تسمون [٥].

ومن أشهر الأئمة والمجتهدين بمصر:

١- الخليفة عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين الصالح، ولد بمصر،

---

(١) نفس المصدر صـ٢٥٧.
(٢) المقريزي مصدر سبق ج٢ صـ٣٣٢.
(٣) السيوطي مصدر سبق ج١ صـ٢٢١.
(٤) ابن خلدون مصدر سبق صـ٥٤٤.
(٥) المقريزي مصدر سبق ج٢ ص٣٣٢.

وأبوه أمير عليها سنة إحدى – أو ثلاث ستين، وتفقه حتى بلغ رتبة الاجتهاد ومات في رجب سنة ١٠١هـ [١].

٢- سليم بن عتر النجيبي المصري أبو سلمة قاضي مصر وقاضيها وناسكها من الطبقة الأولى من التابعين شهد خطبة عمر بالجابية، وكان يسمى الناسك لكثرة فضله وشدة عبادته، وهو أول قصصي بمصر سنة ثلاثين، وولاه معاوية القضاء بها فأقام قاضيا عشرين سنة وهو أول من سجل في مصر سجلا بالمواريث ومات بدمياط سنة ٧٥هـ [٢].

٣- يزيد بن أبي حبيب واسمه سويد الأزدي، أبو رجاء المصري، فقيه مصر، وشيخها، ومفتيها، روى عن سالم، ونافع، وعكرمة، وعطاء، وعنه ابن لهيعة، والليث، وآخرون، كان ثقة كثير الحديث، وكان مفتي أهل مصر، وهو أول من أظهر العلم بمصر والمسائل في الحلال والحرام، وهو أحد ثلاثة جعل لهم عمر بن عبد العزيز الفتيا بمصر، وقال الليث هو سيدنا وعالمنا مات سنة ١٢٨هـ [٣].

٤- الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي أبو الحارث المصري، أحد الأعلام، ولد بقلقشندة سنة ٩٤هـ، وروى عن الزهري، وعطاء، ونافع، وعنه ابن شعيب وابن المبارك وآخرون، قال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث صحيحه، وكان قد اشتغل بالفتوى في زمانه بمصر، وكان سريا من الرجال سخيا نبيلا له ضيافة، وقال يحيى بن بكير: ما رأيت أحد أكمل من الليث، كان فقيه النفس، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة، وقال الشافعي: كان الليث أفقه من مالك إلا أنه

---

(١) السيوطي المصدر السابق ج١ صـ٢٥٦.
(٢) السيوطي صـ٢٥٥.
(٣) نفس المصدر صـ٢٥٨.

ضيعه أصحابه [١].

قال ابن كثير، وقد حكى بعضهم أنه ولي القضاء بمصر وهو غريب، وقال الذهبي في العبر، كان نائب مصر وقاضيها من تحت أوامر الليث، وإذا رأبه من أحد شيء كاتب فيه فيعزل، وقد أراده المنصور أن يلي إمرة مصر فامتنع.

مات يوم الجمعة رابع عشر شعبان سنة ١ صـ١٧٥، وقال بن سعد ١٦٥ وحكي ابن خلكان أنه سمع قائل يقول يوم مات الليث:

ذهب الليث فلا ليث لكم ومضى العلم غريبا وقبْر

٥- الإمام الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع بن السائب بن عبيد الله بن عبد يزيد بن هشام بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، جد رسول الله ﷺ، والسائب جده صحابي أسلم يوم بدر، وكذا ابنه شافع، ولد الشافعي سنة ١٥٠هـ بغزة أو بعسقلان واليمن أو منى – ونشأ بمكة، وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، والموطأ وهو ابن عشر، وتفقه على مسلم بن خالد الزنجي مفتى مكة، وأذن له في الإفتاء وعمره خمس عشر سنة، ثم لازم مالكا بالمدينة، وقدم بغداد سنة خمس وتسعين، فاجتمع عليه علماؤها، وأخذوا عنه، وصنف بها كتابه القديم ثم عاد إلى مكة، ثم خرج إلي بغداد سنة خمس وتسعين فأقام بها شهرا، ثم خرج إلى مصر، وصنف بها كتبه الجديدة، كالأم والأمالي الكبرى، والإملاء الصغير، ومختصر البويطي ومختصر الربيع، والرسالة، والسنن، قال ابن زولاق – صنف الشافعي نحو مائتي جزء، ولم يزل بها ناشرا للعلم، ملازما للإشغال بجامع عمرو إلى أن أصابته ضربة شديدة فمرض بسببها أياما، ثم مات يوم الجمعة سلخ رجب سنة ٢٠٤هـ [٢].

---

(١) نفس المصدر صـ٢٦٠.

(٢) السيوطي ح١ صـ٢٦٢.

وكان مركز الحركة العلمية الدينية في مصر هو جامع عمرو بن العاص مثله في هذا مثل الأزهر الشريف اليوم، فكان ملتقى العلماء، والفقهاء، والأئمة وصلحاء الناس للإستفتاء وإليه يفد الطلاب لتلقي العلوم التي كانت تدرس في ذلك الوقت، ومنه يتخرج خيرة العلماء، والفقهاء [١].

وأصبحت مصر مركزا علميا هاما يفد إليها الطلبة لتلقي العلم وخاصة من أفريقية، والمغرب، والأندلس، وبذلك أثرت مصر على المغرب والأندلس في المذاهب وفي العلوم الدينية التي كانت تدرس حينذاك [٢].

ومن علماء الأندلس الذين تلقوا العلم في مصر عيسى بن دينار إذ سمع من أبي القاسم، وصحبه، وأدرك عيسى أيضا ابن وهب، إلا أنه سمع من ابن أبي القاسم ثم انصرف إلى الأندلس، فكان لا يتقدمه أحد من قرطبة في الفتيا وبه انتشر مذهب مالك في الأندلس وتوفي في سنة ٢١٢هـ في طليطلة [٣].

ومن أساتذة ذلك العهد زكريا أبو يحيى الوقار المصري كان من موالي قريش وقيل من موالى عبد الدار، وروى عن ابن القاسم، وابن وهب، وأشهب وكان مختصا بابن وهب، وذهب إلى أفريقية سنة ٢٠٥هـ علم فيها ثم عاد إلى مصر وتوفى بها سنة ٢٥٤ وقيل سنة ٢٦٣هـ [٤].

وظلت حلقات الدروس بعد قدوم الإمام الشافعي، في ازدياد حتى أنها بلغت ٣٣ حلقة سنة ٣٢٦هـ (٩٣٧م) منها ١٥ حلقة للشافعية ، و ١٥

---

(١) سيدة كاشف صـ٣٢٨.
(٢) نفس المرجع صـ٣٢٩.
(٣) نفس المصدر صـ٣٣٠.
(٤) سيدة كاشف صـ٢٢٩، ٢٣٠.

للمالكية ، ٣ حلقات للحنفية [١].

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (نهاية العاشر الميلادي) بلغت حلقات الدروس بالجامع ١١٠، فإذا قدرنا أن كل حلقة بها ٢٠ مستمعا يكون مجموع الطلبة ٢٢٠٠ طالب يتزعمها أئمة الفقهاء والقراء وأهل الأدب والحكمة [٢].

وقد أطلق على أماكن حلقات دروس كبار العلماء بالجامع اسم زوايا، فعرف درس الشافعي بزاوية الإمام الشافعي، لأنه كان يدرس فيها الفقه، وقد حرص على التدريس بها أعيان الفقهاء وأجلة العلماء، ولها أوقاف وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب.

ومنها الزاوية المجدية بصدر الجامع بجوار المحراب الكبير، رتبها مجد الدين أبي الأشبال الحارث بن مهذب الدين المتوفي سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م واختص بالتدريس فيها قاضي القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنسي وأوف لها أوقاف بالفسطاط والقاهرة. وبعد تدريسها من المناصب الجليلة الصاحبية حول مئذنة عرفة، رتبها الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين وجعل لها مدرسين أحدهما مالكي والآخر شافعي وأوقف عليها وقفا بالقاهرة.

ومنها الزاوية الكمالية بالمنصورة المجاورة لباب الجامع الذي يدخل إليه من سوق الغزل، رتبها كمال الدين السمنودي، وأوقف عليها فندق بالفسطاط ومنها الزاوية التاجية أمام المحراب الخشب رتبها تاج الدين

---

(١) حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد الأثرية صـــ٣٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب ج٢ ١٩٩٤.

(٢) نفس المرجع صـــ٣٠.

السطحي وجعل عليها دور بالفسطاط [١].

وقد بلغت حلقات التدريس بالجامع سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م بضعا وأربعين حلقة لا تكاد تنقص منه [٢].

وكان يقام بالجامع حلقات دروس ووعظ للسيدات تصدرتها في الدولة الفاطمية حوالى سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م واعظة زمانها أم الخير الحجازية[٣].

ولم تنقطع أخبار التدريس بهذا الجامع إلا في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي [٤].

---

(١) المقريزي مصدر سبق ح٢ صـ٢٥٥، ٢٥٦.
(٢) نفس المصدر صـ٢٥٦.
(٣) حسين عبد الوهاب مصدر سبق صـ٣٠.
(٤) نفس المصدر صـ٣٠.

قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر :

١- القرآن الكريم

ابن خلدون – عبد الرحمن بن محمد بن الحسن ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م.

٢- المقدمة

دار القلم – بيوت ط(٥١) سنة ١٩٨١م.

السيوطي – جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر ت٩١١هـ/١٥٠٥م

٣- حسن المحاضرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم

دار الفكر العربي ط(٥) سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

ابن عبد الحكم – أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري ت٢٥٧هـ/٨٧١م.

٤- فتوح مصر وأخبارها – مراجعة وتحقيق محمد صبيح

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر القاهرة ١٩٧٤م

القزويني – زكريا بن محمد بن محمود ت٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م.

٥- آثار البلاد وأخبار العباد

دار بيروت للطباعة بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

المقريزي – تقى الدين أحمد بن علي ت٨٤٥هـ/١٤٤١م.

٦- المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار

المعروف (بالخطط المقريزية) ط(٢)

مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة.

ابن منظور – جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي ت٧١١هـ/١٣١١م.

٧- لسان العرب

دار المعارف – مصر.

إبراهيم العدوي: دكتور.

١- تاريخ العالم الإسلامي

مكتبة الأنجلو المصرية – ١٩٨٣م

حسن إبراهيم حسن
٢- موسوعة التاريخ الإسلامي السياسي والديني
حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن.
٣- النظم الإسلامية ط(١)
مكتبة النهضة المصرية ١٤٣٨هـ/١٩٣٩م
حسن عبد الوهاب.
٤- تاريخ المساجد الأثرية.
الهيئة المصرية العامة للكتاب صـ٢ ١٩٩٤م
سيدة إسماعيل كاشف.
٥- مصر في فجر الإسلام ط(١) القاهرة
صفي الدين على محمد
٦- الحركة العلمية والأدبية في الفسطاط
الهيئة المصرية العامة للكتاب
عبد الرحمن الرافعي، وسعيد عاشور.
٧- مصر في العصور الوسطى
عبد الله المصرى.
٨- المسجد الجامع تاج الجوامع (جامع عمرو بن العاص)
دار الاعتصام.
٩- محمود محمود حسن
الحياة العلمية في مصر من قيام السطولوتين إلى سقوط الإخشيديين في الفترة من ٢٥٤ - ٣٥٨هـ - ١٩٩١ رسالة ماجستير.
١٠- جامع عمرو بن العاص
المجلس الأعلى للآثار
أثر رقم ٣١٩

الفصل الرابع (١)

الإسكــــندريـة

(١) إعداد : د / محمود محمود حسن نصار ــ مدرس التاريخ والحضارة بقسم التاريخ والحضارة ــ كلية اللغة العربية بالقاهرة جامعة الأزهر .

الإسكندرية :

يكتسب الموقع الجغرافي للإسكندرية أهمية كبرى حيث تطل على البحر المتوسط وتتميز بالمناخ المتميز عن باقي أقطار مصر .

وهي أعظم مدن الدنيا وأقدمها فقد بنيت أكثر من مرة ، وكانت تسمى "ركودة " (١) .

ولما استولى عليها الإسكندر المقدوني سنة ٣٣١ ق . م جددها ، ونسبت إليه ، وجعلها عاصمة ملكه (٢) .

وتعتبر الإسكندرية مفتاح مصر وبوابتها للغزاة والفاتحين ، ولها علاقات وثيقة بجميع دول حوض البحر المتوسط (سياسيا ، وثقافيا ، وتجاريا) منذ نشأتها (٣) .

فكانت تجارتها ومصنوعاتها من المنسوجات من نوع الكتان تباع زنة كل درهم منه بدرهم فضة والمطرز منه يباع بنظير وزنه مرات عديدة ، وكانت تحمل إلى بلاد كثيرة (٤) .

واستمدت الإسكندرية روعتها من إمبراطوريتي رومه وبيزنطة (٥) . فكان بها الفنار الشهير الذي يلمع بأشعة الشمس نهارا وينار هو ليلا (٦) ويتضمن المسلتين المصنوعتين من الجرانيت " ويقومان الآن واحدة في سنترال بارك بنيويورك والثانية على نهر التيمس في لندن (٧) .

---

(١) المقريزى : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية مكتبة الثقافة الدينية القاهرة الطبعة الثانية ١٩٤٦م ح ١ ص ١٤٤ .
(٢) المقريزى : نفس المصدر ح ١ ص ١٤٤ .
(٣) انظر مكتبة الإسكندرية ص ٢٦٧ .
(٤) المقريزى : المواعظ والإعتبار ح ١ ص ١٦٣ .
(٥) آنتونى تنج ص ٧٨ . العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام ، ترجمة د/راشد البراوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٤م .
(٦) المقريزى : المواعظ والإعتبار ح ١ ص ١٥٧ .
(٧) آنتونى تنج المصدر السابق ص ٧٩ .

وكانت عند استيلاء العرب على مصر سنة ٢١هـ حاضرة الإمبراطورية الرومانية . بعد القسطنطينية ، ولم يخططها العرب كما إختطوا البصرة ، والكوفة ، والفسطاط ليحافظوا على جمالها ورونقها .

فنزلها كثير من الصحابة وأعيان العرب إما للإستقرار الدائم أو المؤقت .

فقد نزل عمرو بن العاص قصرا في مكان مرتفع وفعل كذلك كثير من العرب الذين حضروا فتح الإسكندرية . وفي ذلك يقول المقريزى : " فأما الإسكندرية فلم يكن بها خطط وإنما كانت أخائذ ، من بنى منزلا نزل فيه هو وبنوأ بيه ، وأن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية أقبل هو وعبادة بن الصامت حتى علو الكوم الذي فيه مسجد عمرو بن العاص ، فقال: معاوية بن حديج " نزل عمرو القصر ونزل أبو ذر الغفارى منزلا كان غربي المصلى الذي عند مسجد عمرو مما يلي البحر ، ونزل معاوية بن حديج فوق التل ..." (١) . على أن عمرو بن العاص عندما أحل العرب الفاتحين النزول ببيوت المدينة حرم عليهم استغلالها أو بيعها أو توريثها . وقال المقريزى " لا يحل من كرئها شيء ولا بيعها ولا يورث منها شيء إنما كانت لهم يسكنونها في رباطهم (أي مدة اقامتهم) وأنشأ العربُ مصلى تصلى فيها الصلوات الجامعة في الأعياد والمواسم ، كذلك بنى عمرو بن العاص بالإسكندرية مسجدا عرف بمسجد الرحمة (٢) .

وتعتبر الإسكندرية أكثر مدن البحر المتوسط إرتباطا بالأندلس بجذور تاريخية وثقافية ، كما كانت ملجا وملاذا للأندلسيين ففي سنة ١٩٨هـ وصل الإسكندرية أكثر من خمسة عشر ألف عدا النساء والأولاد ، طردهم " الحكم ابن هشام الأموي " (١٨٠ – ٢٠٦هـ) عقابا لهم لثورتهم ضده ، فلم يجدوا

---

(١) المقريزى نفس المصدر، ح ١ ص ١٦٧ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر ح ١ ص ١٦٧ .

بلدا يلجأون إليه إلا الإسكندرية ، وأثناء إقامتهم أثاروا كثيرا من الشغب والقلاقل ، واستطاعوا أن يتمكنوا من السيطرة على الإسكندرية والإستقلال بها عن دولة الخلافة العباسية سنة ٢٠٠هـ / ٨١٥ م .

وظلت الإسكندرية ولاية مستقلة للأندلسيين حتى أرسل الخليفة المقتدر وزيره عبد الله بن طاهر بن الحسين سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥ م ، ليقضى على الاضطراب والفوضى في مصر ، واستطاع عبد الله بن طاهر أن يعيد الإسكندرية إلى حظيرة الدولة العباسية سنة ٢١٢هـ / ٨٣٧ م ، وأجلاهم منها وصالحهم على أن يقيموا في جزيرة كريت [١] .

الحياة الثقافية :

كانت مدينة " منف " عاصمة لمصر ودار العلم والمعرفة ولما جاء الإسكندر المقدوني نقل إلى الإسكندرية العلم والعلماء [٢] وشهدت حركة علمية واسعة ، وأصبحت قاعدة لمدرسة فلسفية علمية شهيرة ، يفد إليها طلاب العلم والثقافة من شتى دول البحر المتوسط [٣] .

وبعد أن استولى أوغسطس عليها سنة ٣٠ ق . م وقتل كليوباترا جعل التعليم بالإسكندرية وروما [٤] .

ولما جاء دقلديانوس سنة ٥٩٥ م الذي ظهر في أيامه أهل الكهف نقل التعليم من رومة وجعله بالإسكندرية [٥] ، وأعاد الوثنية إلى البلاد [٦] .

---

(١) المقريزى المواعظ والإعتبار خ ١ ص ١٧٢ . ــ أبو المحاسن ــ النجوم الزاهرة ح٢ ص ١٥٨ ، ١٩٢ .

(٢) ابن العبرى ــ تاريخ مختصر الدول ص ٢٠ . المطبعة الكاثولوكية بيروت ١٨٩٠م .

(٣) عبد الرحمن الرافعى ، وسعيد عاشور ــ مصرف العصور الوسطي ص ٧٤.

(٤) ماكس مابرهون ــ التراث اليوناني ص ٦٤ ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ، دار النهضة العربية ط ٣ ١٩٦٥ .

(٥) نفس المصدر ص ٦٤ .

(٦) المقريزى المواعظ والإعتبار ج ١ ص ١٧٢ .

ولما بطلت الوثنية على يد جماعة محي الإجتهاد التى قام أعضاؤها بحرق معابد الوثنية ، واجتمعت الأساقفة وتشاوروا فيما يبطل ، وأن أطلقوا تعليمه ما يستعان به على نصرة دينهم [١] .

ويقول ابن القفطى : " والإسكندرانيون هم الذين رتبوا الإسكندرية دار العلم ومجالس الدرس الطبى وكانوا يقرأون كتب جالينوس ويرتبونها وعملوا لها تفاسير وجوامع تختصر معانيها ويسهل على القارىء حفظها وحملها في الأسفار فأولهم اسحق بن حنين اصطفن الإسكندرانى ، ثم جاسيوس ، وانقلاؤس ، ومارينوس ، فهؤلاء الأربعة عمدة الأطباء الإسكندرانيين وهم الذين عملوا الجوامع والتفاسير . وانقلاؤس هو المرتب للكتب [٢] . وكانت حركة الدرس بالإسكندرية يقتصر قراءتها في موضع تعليم الطب وكانوا يجتمعون كل يوم على قراءة إمام منها وتفهمه [٣] .

ومع أن الدراسة في الإسكندرية قد توقفت بعض الوقت بسبب الإضطهاد الديني ، وحرقت المكتبات [٤] إلا أن النشاط العلمي في القرن السابع الميلادي كان استمرارا لحركة العصر السكندرى الذهبى ، ولو أنه صبغ بصبغة المدرسة شيئا فشيئا ، وظلت تقاومه المنازعات الدينية [٥] .

ولما كانت الإسكندرية بيد الرومان هذه الحقبة الطويلة إلا أن لغة العلم والمعلمين والمتعلمين فيها هي اللغة اليونانية حتى أن اللغة اليونانية أثرت في اللغة المصرية تأثيرا قويا ظهر في كثير من الألفاظ اليونانية المستخدمة في اللغة القبطية ، وهكذا وجدت الحضارة اليونانية ، والتراث الفكري

---

(١) مابرهون ــ التراث اليوناني ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) ابن إصبعيه ح ١ ص ١٠٤ . ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء .

(٣) القفطي ص ٧١ .

(٤) انظر مكتبة الإسكندرية ص ٢٦٧ .

(٥) مابرهون : مصدر سبق ص ٥٢ ، ٥٣ .

اليوناني في مصر مركزا قويا يأوي إليه قبل الفتح العربي .

وفي عهد الدولة الأموية ، كان خالد بن يزيد بن معاوية يهتم بالعلم فهو أول من عنى بنقل الطب ، والكيمياء إلى العربية ، فقد دعا جماعة من اليونانيين من مدرسة الإسكندرية، وطلب إليهم أن ينقلوا له كثير من الكتب اليونانية والقبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية،وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء، كما طلب منهم أن يترجموا له كتب جالينوس فوضع بذلك أساس التعاليم الطبية .

ولقد نبغ في الطب طبيب نصراني اسمه بليطان السكندرى المتوفي ١٨٦هـ / ٨٠٢ م ثم بعد ذلك تم نقل التعليم من الإسكندرية إلى إنطاكية وحران .

قال ابن أصبعيه : " عبد الملك بن أبحر الكتاني ، كان طبيبا عالما ماهرا وكان في أول أمره مقيما بالإسكندرية لأنه كان المتولي في التدريس بها من بعد الإسكندرانيين الذين تقدم ذكرهم ، وذلك عندما كانت البلاد بين ملوك النصاري ، ثم أن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الإسكندرية اسلم ابن أبحر على يد عمر بن عبد العزيز وكان حينئذ أمير قبل أن تصل إليه الخلافة ولما أفضت الخلافة إلى عمر في صفر ٩٩هـ نقل التدريس إلى إنطاكية وحران وتفرق في البلاد ، وكان عمر بن عبد العزيز يستطب بن أبحر [١] .

وظلت الإسكندرية محافظة على مكانتها العلمية ، هذا ما كان بالنسبة للعلوم العقلية ، أما العلوم الدينية مثل الفقه والحديث فقد اختصت بها الفسطاط إذ لم تزدهر هذه في الإسكندرية ازدهارها في الفسطاط حتى أواخر أيام الدولة الفاطمية [٢] ورغم هذا فإذا كانت الإسكندرية لم تكن قد قامت

---

(١) ابن أصيبعه ح ١ ص ١١٦ .

(٢) د / السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها ص ١٧٧ .

بنفس الدور الذي قامت به الفسطاط إلا أننا وجدنا ما يعطينا الضوء على أنها كانت موطنا مهما من مواطن الحياة العلمية .

ودليلنا على هذا ما ذكره بعض المؤرخين عن بعض علماء الإسكندرية الذين اشتهروا في بعض العلوم الدينية والذين كان منهم أبو عبدالله محمد إبراهيم المواز المتوفى سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤ م فقد انتهت إليه رياسة المذهب المالكي في عصره [١] وقد يسأل سائل فيقول : أنه لا خلاف على كون ابن المواز من علماء الإسكندرية وإنما الخلاف في قولك بأنه كان من الفقهاء الذين درسوا علومهم في الإسكندرية لأنه إذا كان كذلك فلما لم يذكر المؤرخون الذين تحدثوا عنه صراحة بأنه درس بالإسكندرية ؟ وتأتي الإجابة على هذا السؤال بما يلي :

أنه إذا كان بعض المؤرخين الذين تحدثوا عن ابن المواز لم يذكروا صراحة أنه ألقى دروسه على طلابه في الإسكندرية إلا أن بعضهم ألمح إلى ذلك حين قال "وطلب في المحنة ــ محنة خلق القرآن الكريم ــ فخرج من الإسكندرية هاربا إلى الشام[٢] فهذه إشارة وإن كانت بعيدة إلا أنها توحي بأن ابن المواز كان يقيم بالإسكندرية وبالتالي كان يدرس بها ، ومن فقهاء المالكية كذلك علي بن أبى مطر الإسكندرانى المتوفى سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م والذي تولى قضاء الإسكندرية[٣] ولقد استمرت الإسكندرية مركزا ثقافيا هاما في عصور الإسلام المختلفة تؤدى رسالتها العلمية والثقافية في مختلف ميادين العلم والمعرفة واشتهر فيها عدد من العلماء في مختلف العلوم والفنون سنتناولهم في الصفحات التالية مراكز العلم التي قامت بدور كبير في

---

(١) الذهبي : العبر ح ١ ص ٤٠٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ح ١ ص ٣١٠، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ح ٢ ص ١٧٧ .

(٢) الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ١٣١ .

(٣) الذهبي : العبر ح ٢ ص ٥٧ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ح ٢ ص ١٢٣.

الإسكندرية خلال الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر المملوكي .

مراكز الحياة العلمية في الإسكندرية :

تعددت مراكز الحياة العلمية في الإسكندرية خلال العصر الفاطمي بين المساجد والمدارس ومنازل العلماء ، ولقد اهتم الفاطميون ببناء المنشآت الدينية والعلمية وأولوها عناية خاصة لقيامها بدور رائد في الحياة العلمية من ناحية ، ولأنها تساعد على تحديد معالم المدينة وطبوغرافيتها من ناحية أخرى (١) وهذه هي مراكز الحياة العلمية التي قامت بنشر العلوم النظرية والتطبيقية في الإسكندرية خلال العصر الفاطمي .

١ ـ المساجد (٢) أو الجوامع :

فكانت المساجد من بين المراكز التي أسهمت بدور كبير في الحياة

---

(١) د / السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ص ٢٢٠ ، د / جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي ص ٤١ .

(٢) المسجد دار أو بناء للعبادة فإذا أضيفت إليه مهمات أخرى مثل القضاء والحسبة وما إلى ذلك فهو جامع . والمسجد بالكسر اسم لمكان السجود ، والمسجد بالفتح جبهة الرجل حيث يصيبه السجود ، والمسجد بكسر الميم الجمرة : وهي الحصير الصغير هذا من ناحية اللغة .

أما شرعا : فهو الموضع الذي يسجد فيه قال الزجاج : كل موضع يُتعبد فيه فهو مسجد : قال النبي ﷺ " جُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا " وقال عز وجل " ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه " والمعنى على هذا المذهب : ومن أظلم ممن خالف الإسلام ، والجامع نعت للمسجد ، ونعت بذلك لأنه علامة الاجتماع ، وما كانوا يفردون في الصدر الأول كلمة : " الجامع " وإنما كانوا تارة يقتصرون على كلمة المسجد وتارة يصفونها فيقولون مسجد الجامع ثم تجوز الناس بعد ذلك واقتصروا على الصفة فقالوا للمسجد الكبير والذي تصلى فيه الجمعة وإن كان صغيرا " الجامع " لأنه يجمع الناس لوقت معلوم ، المقريزى: الخطط ج ٢ ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، د / سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ج ١ ص ١٧ ، ٢٩ مطابع الأهرام التجارية القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ١١ دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٦م .

العلمية فاتخذها العلماء مكانا لإلقاء دروسهم فتدفقت منها ألوان المعرفة الإسلامية وكانت ثقافة العلماء الذين يحاضرون فيها مختلفة ومتنوعة فمنهم قراء ومفسرون ، ومنهم فقهاء ولغويون ومتصوفون وعلماء فلك وأطباء ... وغيرُهم من العلماء الآخرين ، وكان هؤلاء وأولئك يبذلون لجمهور المسلمين في سخاء لا تُعرف له حدود مما آتاهم الله من العلم النافع الذي يشمل علوم الدين والدنيا ، فضلا عما كانوا يُلقونه من المواعظ الحسنة التي كانت تنزل بردا وسلاما على قلوب المؤمنين ، وتشرح صدور الذين تنكبوا الطريق السوي فيرجعون إلى الله وقد سطع نور الإيمان في قلوبهم ، ومشى برد اليقين في أفئدتهم ونفوسهم [١] ، وكانت المساجد مراكز الإشعاع الأول في ديار الإسلام ، وهي المعاهد العلمية في البلاد التي تخضع له ، وتظلها ألويته وراياته ، إذ أن للمسجد دورا عظيما في حياة الأمة الإسلامية ، ويبدوا أن العلماء لم يجدوا أمنا ولا طمأنينة في تفهمهم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلا في ظلال المساجد [٢] ، التي كانت هي الأماكن الرئيسية لنشر العلم وفروعه المختلفة ، وبما أن العلم في الإسلام أساسه ديني لأن عماده القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وبما أن أغلب العلوم قد كان الهدف من قيامها خدمة القرآن والسنة فإن " حلقاتها " [٣] قد بدأت واستمرت تؤدي رسالتها على مر السنين والقرون ، وفي مختلف البلاد الإسلامية ، وإذا كان الأمر كذلك أمكننا بيسر وسهولة أن ندرك أن المسجد هو مبعث العلم ومصدر البحث والتحقيق في المجتمع الإسلامي ، واستمرت المساجد تؤدي

---

(١) د / محمد جبر أبو سعده : الحركة العلمية في جامع عمرو بن العاص في القرنين الأول والثاني الهجريين ص ٢٠ رسالة دكتوراه لم تنشر بكلية اللغة العربية القاهرة ١٩٧٤م تحت رقم ٦١٠ / ٦١٦ .

(٢) علي محمد الشاذلي : دور المساجد التاريخي في التثقيف العلمي ص ٧ مقدمة الكتاب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد العاشر ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .

(٣) سمي الدرس حلقة لتحلق الطلاب وانتظامهم في شبه عقد أو حلقة شيخهم وكانت الحلقة تضيق وتتسع أو تتضاعف تبعا لعدد الطلاب د / أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ج ٢ ص ١٤٤ دار المعارف القاهرة ١٩٦٩م .

دورها حتى مع ظهور المدارس التي لم يقلل من قيامها وانتشارها من شأن المسجد الذي استمر أفضل أماكن التدريس عند البعض نظرا لكثرة المنتفعين بالعلم في المساجد من ناحية ، وعدم اختصاصها بفئة معينة دون أخرى من ناحية ثانية [١] ، فكان يحضر حلقات المساجد كل من أراد [٢] ، فهي بمثابة سوق للآخرة والدنيا [٣] ، لذا فقد زخرت مساجد الإسكندرية بحركة دينية واسعة حيث كانت العلوم الدينية أبرز مظاهر الحياة العلمية فيها ، فحركة بناء المساجد التي بدأت منذ الفتح الإسلامي وفي عهد الفاطميين في الإسكندرية لم تكن مظهرا للإهتمام بدور العبادة وحسب ، وإنما كانت لذلك ولنشر العلوم والمعارف المختلفة على السواء ويتحدث ابن جبير [٤] عن كثرة مساجد الإسكندرية فيقول : " وهي أكثر بلاد الله مساجد حتى إن تقدير الناس لها ليختلف فمنهم المقل والمكثر فالمكثر ينتهي في تقديره إلى إثنى عشر ألف مسجد والمقل ما دون ذلك " ، ونقل القلقشندى [٥] في صبح

---

(١) د / محمد محمد عبد القادر الخطيب : تاريخ التربية الإسلامية ص ١٨ مطبعة الوفاء القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، د / خضر أحمد عطا الله: الحياة الفكرية في مصرفي العصر الفاطمي ص ١٨٠ ، ١٨١ دار الفكر العربي القاهرة الطبعة الأولى د . ت .

(٢) ابن زولاق (أبو محمد الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م) : أخبار سيبويه المصري ص ٥ نشر محمد إبراهيم سعيد وحسن الديب القاهرة الطبعة الأولى ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م .

(٣) أبو حيان التوحيدي (علي بن محمد بن العباس المتوفى سنة ٣٨٠هـ ٩٩٠م): البصائر والذخائر المجلد الثاني ص ٧٠٠ تحقيق وتعليق د/ إبراهيم الكيلاني مطبعة الانشا دمشق د . ت .

(٤) ابن جبير (أبو الحسن محمد بن جبير الكنانى الأندلس المتوفى سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م) : الرحلة ص ٤٧ .

(٥) القلقشندى (أحمد بن علي بن أحمد الغزارى المتوفي سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج ٣ ص ٤٠٤. (٥) ابن زولاق (أبو محمد الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م) : أخبار سيبويه المصري ص ٥ نشر محمد إبراهيم سعيد وحسن الديب القاهرة الطبعة الأولى ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م .

الأعشى عن ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" قوله : " ويقال إن مساجدها ــ الإسكندرية ــ أحصيت في وقت من الأوقات فكانت عشرين ألف مسجد ، وبها الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والربطة والزوايا ... " ويبدو أن هذا العدد مبالغ فيه أو أن معظم هذه المساجد كانت مصليات صغيرة ، وأن بعضها لم يخل من مدارسة العلم حيث يتحلق الناس فيها حول العلماء ، ولقد تميزت المساجد بعدة مميزات من أهمها الحرية المطلقة بالنسبة للدارسين في إختيار العلم الذي يدرسونه والأستاذ الذي يتلقون عنه ، والوقت الذي يمكنه التلقى فيه ، فكانت بذلك هي المعاهد العلمية التي أفسحت صدرها للدارسين ، وكان يدخلها الناس علي إختلاف أعمارهم ، وكان كل واحد يجد فيها غايته وقصده [١] ، وكان العلماء يقصدون المساجد ليعلموا الطلاب ولا يتلقون رواتب من الحكومة على أدائهم للتدريس في هذه المساجد ، وكانوا يعتمدون في أرزاقهم على موارد أخرى كثيرة لا مجال للحديث عنها الآن ، وما دام العالم لا يتقاض من الدولة على عمله أجرا فقد تُرك له أن يدرس وقتما شاء من العلوم [٢] ، وعلى الطالب أن ينظم وقته تبعا للعالم أو العلماء الذين يريد أن يتلقى عنهم ، وهذا النظام يشبه إلي حد كبير النظم المعمول بها الآن في أمريكا ، والبلاد التي تقتفي آثارها العلمية مثل السعودية وغيرها من بعض البلاد الخليجية ، وكان من أشهر رجال التفسير والحديث والفقه الذين قاموا بدور رائد في مساجد الإسكندرية خلال عصر الدراسة أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الأندلسي الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م [٣] ، والحافظ العلامة شيخ الإسلام أبو طاهر عماد

---

(١) د / محمد محمد الخطيب : تاريخ التربية الإسلامية ص ١٩ ، ٢٠ ، د / أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ج ٢ ص ١٤٨، د / علي حسني الخربوطلى : العرب والحضارة ص ١٨٧ الأنجلو المصرية ١٩٦٦م .

(٢) د / أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص ٢١٣ دار الكشاف القاهرة ١٩٥٤م ، د / حسن عبد العال : التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري ص ١٠٤ ، ١١٣ دار الفكر العربي القاهرة د . ت .

(٣) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر المتوفى =

الدين أحمد بن محمد أبو طاهر السلفى المتوفى سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م [١] وغيرها ممن أسهموا بنصيب وافر في الحياة العلمية في الإسكندرية خلال عصر الدراسة .

وفي الصفحات التالية سأتناول المساجد التي قامت بإثراء الحياة العلمية في الأسكندرية خلال العصر الفاطمي .

الجامع الغربي :

ويأتي في مقدمة مساجد الإسكندرية فهو أوسعها وأقدمها عمرا ويرجع تاريخ إنشائه إلى السنوات الأولى من الفتح العربي للمدينة حيث أقامه عمرو ابن العاص فوق كوم غربي المدينة غير بعيد عن البحر [٢] ، وقد وصف القلقشندى [٣] : هذا الجامع وصفا نتبين منه أهميته فيقول عنه : " والجامع الغربي فهو أجل جوامع الثغر الإسكندرى قدرا وأعظم في الأقطار صيتا وأسيرها في الآفاق ذكرا ، يحضر الجمعة فيه أهل الشرق والغرب ويلم

=سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج ٣ ص ٣٩٣، ص ٣٩٥ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية القاهرة الطبعة الأولى ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ، ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد ابن محمد المتوفى سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م) : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ج ٢ ص ٢٤٤ تحقيق وتعليق د / محمد الأحمدى أبو النور دار التراث مطبعة دار النصر القاهرة .

(١) الذهبي (شمس الدين أبى عبد الله محمد ابن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) : تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٢٩٨ ، ص ١٣٠٣ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ابن الجزري (شمس الدين أبى الخير محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م) : غاية النهاية في طبقات القراء ح ١ ص ١٠٢ ، ١٠٣ عنى بنشره برجستراسر دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م .

(٢) ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المتوفى ٢٥٧هـ / ٨٧٠م : فتوح مصر وأخبارها ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى في صناعة الانشا ج ١١ ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

بخطبته سكانُ الوهاد والهضاب .... " وقد شارك في عمارة هذا المسجد الجامع عدد من الصحابة الذين شاركوا في فتح مصر [١] ، وعن موقع هذا الجامع يذكر علي باشا [٢] مبارك أن الداخل إلى المدينة من بابها الغربي كان يشاهد الجامع عن يمينه وكان هذا الجامع في الأصل كنيسة تعرف بكنيسة ثيوناس وقد شيدت في الفترة ما بين ٢٨٢ إلى ٣٠٠م وكانت مقرا للبطريركية في القرن الثالث والرابع للميلاد ، ومع الفتح العربي هُدمت هذه الكنيسة وأقيم المسجد على أنقاضها [٣] ، وأطلق على هذا الجامع عدة أسماء من أشهرها الجامع العتيق [٤] ، لكونه أول المساجد الجامعة التي أقيمت بالإسكندرية عقب الفتح العربي له ، كما عرف بجامع عمرو بن العاص نسبة إلى مؤسسة [٥] وسمى كذلك بالجامع الغربي لوقوعه في غرب المدينة، ونعته الأوربيون باسم جامع الألف عمود إشارة إلى العدد الكبير من الأعمدة

---

(١) الهروى (أبو الحسن علي بن أبى بكر المتوفى سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م) : كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات ص ٤٧ نشرو تحقيق جانين سورديل طومين دمشق ١٩٥٣م .

(٢) الخطط التوفيقية الجديدة ج ٧ ص ١١٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة الطبعة الثانية ١٣٠٥هـ / ١٩٨٧م.

(٣) د / جمال الشيال : الإسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ص ٢١٢ الجمعية التاريخية المصرية العدد الثاني ١٩٤٩م، د/ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ص ١٠٤ وقد أشار الهروى إلى هذه الكنيسة بقوله : " ومظاهرها ـ الإسكندرية ـ كنيسة أسفل الأرض " الهروى : كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات ص ٥٠ .

(٤) د / السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ص ١٠٤ .

(٥) د / السيد عبد العزيز سالم : تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي ص ٦٠ دار المعارف لبنان . وقد ذكر ابن عبد الحكم : " أن عمرا لما فتح الإسكندرية أقبل هو وعبادة الصامت حتى علوا الكوم الذي فيه مسجد عمرو بن العاص " فتوح مصر وأخبارها ص ٩٢ .

المقامة في تناسق ونظام حول الصحن الداخلي للمسجد ، وداخل مسطح بيت الصلاة الفسيح مما يشير إلى أن العرب الفاتحين استخدموا أعمدة الكنيسة القديمة في بناء هذا المسجد ، وأطلق عليه علماء الحملة الفرنسية أيضا اسم " جامع السبعين " [١] ، وعرف كذلك " بالجامع الأخضر "[٢] .

الجامع الشرقي : (جامع العطارين) :

وقد عرف هذا المسجد الجامع في المصادر بجامع العطارين لوقوعه بالقرب من سوق العطارين ، وبالجامع الجيوشي نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالي الذي أعاد تجديده وعمارته وإعادة بنائه والصرف عليه " من أموال أخذها من أهل البلد " [٣] وأطلق عليه أيضا الجامع الشرقي تمييزا له عن الجامع العتيق وهو الغربي من ناحية ولوقوعه في شرق المدينة من ناحية أخرى ، كما عرف بالجامع الجديد نظرا لحداثة بنائه بالقياس إلى الجامع الغربي ودلالة على أنه لم يصبح مسجدا جامعا إلا في العصر الفاطمي [٤] يؤكد ما ذكرنا النص الذي تحمله اللوحة الرخامية التذكارية التي ثبتها بدر

---

(١) سمى بجامع السبعين : لأن الأثنين والسبعين حبرا الذين ترجموا التوراة من العبرية إلى الرومية في زمن بطليموس فليدانوس كانوا مقيمين به مدة الترجمة. علي مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ج ٧ ص ١١٧ .

(٢) سمى بالجامع الأخضر بسبب قربه من الباب الأخضر . د / السيد عبد العزيز سالم : تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي ص ٨٠ .

(٣) المقريزى (تقى الدين أبى العباس أحمد بن علي المتوفى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ج ٢ ص ٣٢١ تحقيق د/ محمد حلمي محمد أحمد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٣٩٠هـ/١٩٧١م ، د/ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ص٢٢٠== == ، ٢٢١ ، د / جمال الدين الشيال : الإسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العثور إلى الوقت الحاضر ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٤) الباحث .

الجمالي في الجامع لتأريخ هذا الحادث ، والتي لا تزال موجودة في الجامع إلى اليوم، وتعتبر هي الأثر الوحيد المتبقي من منشآت المسجد الجامع القديمة وكل ماعدا ذلك فهو بناء مستحدث ونص ما عليها:بسم الله الرحمن الرحيم :﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ التوبة: ١٨ ، مما أمر بإنشائه السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو النجم بدر المستنصرى عند حلول ركابه بثغر الإسكندرية ومشاهدته هذا الجامع خرابا فرأي بحسن ولائه ودينه تجديده زلفا إلى الله تعالى ، وذلك في ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربعمائة [١] " وسبب ذلك أن بدر الجمالي كان قد ولى الإسكندرية إبنه الأكبر المسمى بالأوحد ، وكان مع الأوحد رجل يعرف بجمال الدولة وهو الذي حسّن للأوحد أن يعصى أباه وذلك في سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤ م فالتف حوله جماعة من الأعراب وتحصنوا بالإسكندرية فأرسل إليه أبوه أبا الفرج المغربي ليردعه فلم يلتفت الأوحد إليه ، ثم صار إليه أخوه الأفضل وخاطبه ولاطفه فلم ينجح فاضطر بدر الجمالي إلى الخروج إليه ونزل الإسكندرية وحاصرها شهرا إلى أن أخذها عنوة ، كما فرض على جميع أهل الإسكندرية مئة وعشرين ألف دينار حملت إليه وجدد بهذا المبلغ جامع العطارين بالإسكندرية [٢] ، وهو لا يزال موجودا حتى الآن ، وهو واقع في الميدان الذي يتقابل فيه شارع الملك

---

(١) د / جمال الشيال : تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي ص ٦٢ ، د/ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ص ٢٢٠ ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ٦٧ ، د/جمال الشيال: الإسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم المصور إلى الوقت الحاضر ص ٢١٧ .

(٢) ابن تغرى بردي (جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردي الأتابكى المتوفى سنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٥ ص ١١٩ .

فؤاد بشارعي مسجد العطارين وسيدي المتولي بمدينة الإسكندرية [١] .

وكانت عوامل الوهن والشيخوخة قد ظهر على هذا المسجد في بداية العصر الفاطمي فتهدمت أجزاء منه ، وتهاوت بعض سقفه وأصيب بأضرار جسيمه[٢] فلما قدم أمير الجيوش بدر الجمالي إلى الإسكندرية أمر بتجديد بنائه وأنفق على بنيانه الأموال التي أخذها من أهل الإسكندرية وأقام فيه صلاة الجمع ، واستمر مسجدا جامعا إلى أن زالت الدولة على يد صلاح الدين الذي أبطل الخطبة في جامع العطارين ، وذلك جريا على سياسته في محاربة التشيع والقضاء على مراكز الشيعة فاقتصرت الخطبة نتيجة لذلك على الجامع الغربي [٣] ، وبتجديد عمارة هذا الجامع أصبحت الإسكندرية تضم مسجدين جامعين هما الجامع الغربي ، والجامع الشرقي ، وتوجد حاليا لوحة أعلى الباب الشمالي الشرقي من الخارج تنسب هذا المسجد إلى محمد بن سليمان بن خالد ابن الوليد ـ الصحابي الكبير ـ كما يوجد في داخل المسجد ضريح ينسب إلى محمد ابن سليمان هذا ويذكر الدكتور الشيال أن نسبة الجامع إلى محمد بن سليمان الصحابي ليست صحيحة بل يؤكد أن صاحب هذا الضريح عالم مغربي متأخر هو محمد بن سليمان ابن أحمد بن يوسف الملقب بزين الدين ، وأصله من المغرب الأقصى قدم به والده إلى الإسكندرية وهو صغير واستوطنها إلى أن مات بها وبعد وفاته أقبل الابن على العلم وأخذ عن تلاميذ الحافظ السلفي ، وعن المحدث المشهور والعلامة الكبير عبد الوهاب ابن فتوح السكندري المتوفى سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م

---

(١) الباحث .

(٢) د / السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ص ١٩٠ ، د / جمال الشيال : تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي ص ٤٢ .

(٣) د / السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، د / جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي ص ٤٣ .

ولهذا نبغ في علم الحديث وكان يلقى دروسه في هذا المسجد ، واتخذه مسكنا له إلى أن توفى في ١٤ ذي الحجة من سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧م [(١)] .

مسجد الطرطوشى [(٢)] :

بنى هذا المسجد في خلافة الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله ووزارة المأمون البطائحى والسبب في بنائه أن الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى أثناء توديعه الوزير المأمون بن البطائحى بعد انتهاء زيارته له والتي أهداه فيها مصنفه " سراج الملوك " سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م [(٣)] قد

---

(١) د / جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي ص ٤٢ ، ٤٣ ويبدو أن الدكتور الشيال قد جانبه الصواب في عدم نسبة الجامع إلى محمد بن سليمان بن خالد بن الوليد أو حتى على الأقل نسبة صاحب الضريح إلى محمد سالف الذكر وبناء على هذا أرى أن نسبة الجامع والضريح إلى محمد بن سليمان بن خالد بن الوليد صحيحة لأسباب :
أولا : أن الدكتور الشيال لم يذكر لنا المصدر الذي رجع إليه ودعاه إلى تقرير هذه الحقيقة .
ثانيا : أن أحداً من المؤرخين القدامي أو المحدثين لم يشر إلى هذا فيما أعلم .
ثالثا : ثبوت اللوحة على الباب الشمالي الشرقي للجامع من الخارج دليل كاف على صحة هذه النسبة لأن وجودها في هذا المكان البارز يحفز العلماء الذين زاروا هذا المسجد على معارضتها إذا لم تكن هذه النسبة صحيحة وهو ما لا وجود له فيما قرأت .

(٢) ينسب هذا المسجد إلى الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشى المعروف بابن أبى رندقة المتوفى سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م . ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٥٧٥ وهذا العالم وغيره سأتحدث عنه بالتفصيل في معرض الحديث عن العلماء الذين أسهموا بدور كبير في الحياة العلمية في الإسكندرية خلال عصر الدراسة .

(٣) ذكر بعض الكتاب المحدثين أن بناء هذا المسجد كان في سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م ، وليس سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م منهم الدكتور / جمال الدين الشيال في كتابه " تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي " الذي صدر سنة =

أقضى إليه بما عزم عليه من إنشاء مسجد بظاهر الثغر على البحر فلقي هذا الإقتراح إهتماما خاصا عند الوزير وكتب إلى ابن حديد قاضي الإسكـندرية "بموافقة الفقيه الطرطوشى على موضع يتخيره ، وأن يبالغ في إتقانه وسرعة إنجازه وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة " (١) وعندما حضر الطرطوشى للقاهرة لتقديم كتاب " سراج الملوك " للمأمون البطائحى دار بينهما نقاش طويل حول طريقة الإرث ، وكان الطرطوشى يعارض رأي الشيعة في الميراث ويرى مخالفته للشرع وانتهى إلى أن صدر الأمر بأن يتبع في الميراث مذهب الميت ، كما أمر الوزير بأن لا يصرف لإمناء الحكم الذين كانوا يشرفون على شئون الميراث من أموال الورثة ، وقرر لهم راتبا من خزانة الدولة ، وصدر سجل رسمي موقع عليه من الخليفة الآمر والوزير المأمون بهذه الأوضاع الجديدة وأرسل إلى القضاة في كل أنحاء الدولة للعمل به (٢) ، وغادر الطرطوشى القاهرة إلى الإسكندرية

= ١٩٦٧م ص ٤٣ ، وكذلك في بحث " الإسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها " بالمجلة التاريخية المصرية ص ٢١٧العدد الثاني سنة ١٩٤٩م ولقد صحح هذا الخطأ الدكتور/ السيد عبد العزيز سالم في كتابه " تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي هامش ص ٢٢٤ وذكر في تصحيحه هذا أن الدكتور الشيال ذكر أن هذا المسجد أقيم في خلافة الآمر بأحكام الله سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م من مال الديوان السكندري والواقع كما يقول الدكتور/السيد عبد العزيز سالم :أن هذا المسجد بنى في سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م وفقا لمخطوطة إتعاظ الحنفا التى إستند عليها الدكتور الشيال نفسه ،وبالبحث تبين لي أن أحد الكتاب المحدثين وقع في نفس هذا الخطأ فذكر أن بناء هذا المسجد كان في سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م وليس سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م . إيتبن دريوتون : مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي ص ٢١٧ ترجمة أحمد حلمي على المجلة التاريخية المصرية المجلد الثاني العدد الثاني ١٩٤٩م .

(١) المقريزى : إتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١٣٥ ، د / السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ص ٢٢٤ .

(٢) د / جمال الدين الشيال : أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي ص ٨٠ .

فبنى المسجد المذكور على " باب البحر " [١] من خارج السور ، وقد ضاعت وتهدمت معالم هذا المسجد ولا وجود له في الوقت الحاضر [٢] ، وإن كان علي مبارك قد أثبت أنه كان متخربا في أيامه وأنه أصلح في سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م على يدي السيد إبراهيم مورو ، وأن والدة الخديوي إسماعيل أتمت تجديده [٣] ، ومن المساجد التي وجدت كذلك في العصر الفاطمي مسجدا المؤتمن الذي بناه المؤتمن سلطان الملوك نظام الدين أبا تراب حيدرة الذي تولي أعمال الإسكندرية في غرة سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م[٤] ، وهذا المسجد ـ أعنى مسجد المؤتمن ـ إن لم يكن أحدا من المؤرخين القدامي أو المحدثين قد أشار إلى أنه كان له دور واضح في الحياة العلمية في الإسكندرية خلال عصر الدراسة إلا أنه كان يشكل مظهرا من مظاهر الإهتمام بدور العبادة بجانب وظيفته كمؤسسة تقوم بنشر الوعي الديني وذلك لإرشاد الناس إلى ما ينفعهم ويفقههم في أمور دينهم ودنياهم [٥].

وإذا كانت الحياة العلمية في الإسكندرية قد إزدهرت ونشطت في

---

(١) باب البحر كان قريبا من ميدان المنشية الحديث د / جمال الدين الشيال : أعلام الإسكندر في العصر الإسلامي ص ٨٠ .

(٢) د / السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية في العصر الإسلامي ص ٢٢٤ ، د / جمال الدين الشيال : أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) علي مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ج ٧ ص ١٩٤ .

(٤) د / السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ص ٢٢٤ ، ص ٢٢٩ ، ولقد قام الدكتور / السيد عبد العزيز سالم في كتابة سالف الذكر ص ٢٢٤ ، ص ٢٢٩ بتصحيح ما ذكره بعض الكتاب المحدثين من أن هذا المسجد بني في سنة ٥١١هـ / ١١١٧م أو ما بعدها ومن هؤلاء الكتاب د / جمال الدين الشيال في كتابه : تاريخ الإسكندرية في العصر الإسلامي ص ٤٤ ، إيتين دريوتون ص ٢١٨ ترجمة أحمد حلمي علي .

(٥) الباحث .

المساجد ومنازل العلماء إلا أنها إزدادت نشاطا وإزدهارا وبلغت عظمتها بنشأة المدارس في الإسكندرية خلال عصر الدراسة فتأسست بها أقدم مدرستين للسنة في مصر ، مدرسة بناها الوزير رضوان بن ولخشي سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م في عهد الخليفة الحافظ وأسند التدريس بها إلى أبى الطاهر بن عوف ، وأما الأخرى فبناها الوزير علي بن السلار سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م وأسند التدريس بها للحافظ السلفي [١] .

نشأة المدارس في مصر :

في الفصل الذي خصصه المقريزى في " الخطط " لذكر مدارس مصر أورد فقرة هامة أبان فيها عن نشأة المدارس وتطورها . فقال : " والمدارس مما حدث في الإسلام ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة ، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور ، فبنيت بها المدرسة البيهقية ، وبنى فيها أيضا الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة ، وبنى فيها أخوه السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة وبنى بها أيضا المدرسة السعدية ، وبنى فيها أيضا مدرسة رابعة ، وأشهر ما بني في القديم المدرسة النظامية ببغداد ، لأنها أول مدرسة قرر بها الفقهاء وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبى علي الحسين ابن علي ابن إسحاق بن العباس الطوسى وزير ملك شاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق في مدينة بغداد ، وشرع في بنائها سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، وفرغت في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة ودرس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي الفيروز ابادى صاحب كتاب " التنبيه في الفقه " على مذهب الإمام الشافعي ﷺ ورحمه فاقتدى الناس به من حينئذ في بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر ، وفي بلاد الجزيرة وديار

(١) سيأتي الحديث عنهما في معرض تناولنا للمدارس التي عرفتها الإسكندرية خلال عصر الدراسة .

بكر ، وأما في مصر فإنها كانت حينئذ بيد الخلفاء الفاطميين ومذهبهم مخالف لهذه الطريقة فهم شيعة إسماعيلية [١] وهذا ما جعل البعض [٢] يؤمن بأن مصر لم تأخذ بفكرة إنشاء المدارس إلا في عهد صلاح الدين تأثرا بعبارة المقريزى ورأى المقريزى هذا وما ترتب عليه من كلام السيوطى غير مسلم لأن الفاطميين في بداية عصرهم في مصر قد أنشأوا دار الحكمة وهي مدرسة ما في هذا شك وتاريخها سابق على تاريخ المدرسة النظامية ، وعلة ثانية وهي : أن رضوان بن ولخشى قد أنشأ مدرسة في الإسكندرية في القرن السادس الهجري ومصر آنئذ كانت تحت الحكم الفاطمي أيضا وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقرر أن أول نشأة المدارس قد كانت على ضفاف النيل وأن الفاطميين قد سبقوا السلاجقة إلى إقامة هذه المؤسسات العلمية البالغة الخطر ويمكن الدفع عما رآه المقريزى من أن المدرسة النظامية هي أول مدرسة نشأة في الإسلام أي على طريقة أهل السنة فإن قيام دار الحكمة قد كان من أجل حماية المذهب الشيعى والتعمق في دراسته ، وعليه فإن تعقيب السيوطى لا يكون في محله لأن مدرسة الإسكندرية التي قامت في القرن السادس الهجري قد كانت على طريقة أهل السنة ومن ثم فإن ما جاء في كلامه وهو : أن مصر لم تأخذ بفكرة المدارس إلا في عهد صلاح الدين يعتبر في غير محله ، وإذا كان البعض يؤكد أن فكرة المدرسة إرتبطت بالمذهب السني فإن علينا أن نضع موضع الإعتبار أن عامة أهل مصر ظلوا طوال العصر الفاطمي متمسكين بمذهب أهل السنة ، وأنه على الرغم من جهود الفاطميين في الدعوة لمذهبهم فإن هذه الدعوة لم تلق إستجابة من أهل مصر . وظل المذهب الإسماعيلي في العصر الفاطمي قاصرا على فئة الحكام من الخلفاء ، ومن أحاط بهم وهؤلاء اتخذوا من القاهرة مركزا رئيسيا للدعوة الفاطمية ، أما خارج القاهرة ، فإن الدعوة الفاطمية إتصفت بالضعف

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥٦ .

خاصة في العصر الفاطمي الثاني حتى كادت تخبوا في الأقاليم البعيدة عن العاصمة ، ولعل في هذا بعض السر في أن أُولى المدارس السنية التى عرفتها مصر في العصر الفاطمي كانت خارج القاهرة وفي مدينة الإسكندرية بالذات [١] ، وهذا بالإضافة إلى الظروف السياسية والدينية والإجتماعية التي كانت تعيشها مصر في ذلك الوقت ، فقد كان لإنشاء المدارس في مصر الفاطمية مغزى كبير في سبيل تدعيم الإسلام ضد تحدى أو استفزاز أهل الذمة ــ فضلا عن مقاومة المذهب الإسماعيلى ــ الذين تزايد إستخدامهم في السياسة المصرية منذ قدم بدر الجمالي إلى مصر سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م ، وبلغ مداه في وزارة بهرام الأرمنى الذي استوزره الخليفة الحافظ ونعته " بسيف الله تاج الملوك " [٢] رغم كونه نصرانيا في سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م ولما استقر بهرام في الوزارة طلب من الحافظ أن يسمح له بإحضار إخوته وأهله فأذن له في ذلك وأحضرهم من بلاد الأرمن حتى صار منهم بالديار المصرية كما يذكر ابن ميسر : نحو ثلاثين ألف إنسان فاستطالوا على المسلمين وأصاب المسلمين من النصارى جور عظيم، كما بنيت في أيامه كنائس وأديرة كثيرة حتى صار كل رئيس من أهله يبنى كنيسة ، كما أن أخاه المعروف بالباساك كان وقد ولاه مدينة قوص ، وجار على أهلها جورا عظيما واستباح أموال الناس وظلمهم فخاف أهل مصر منهم أن يغيروا ملة الإسلام ، وكثرة الشكايات فيه وفي أهله [٣] ، وقد أثار هذا الموقف رؤساء المصريين فبعثوا إلى رضوان بن ولخشى والي الغربية

---

(١) د / سعيد عبد الفتاح عاشور : العلم بين المسجد والمدرسة بحث منشور في سلسلة تاريخ المصريين ص ٢٣ العدد ٥١ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٣م .

(٢) ابن ميسر (تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلَب راغب المتوفى سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م : المنتقى من أخبار مصر ص ١٢٢ تحقيق أيمن فؤاد سيد المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية القاهرة .

(٣) ابن ميسر : المنتقي من أخبار مصر ص ١٢٤ .

وكان سني المذهب يستحثونه على السير إليهم وإنقاذهم مما هم فيه ، فلما وصله إستدعاء أمراء المسلمين له خطب في الناس خطبة بليغة حرضهم فيها على الجهاد ، وحشد نحو ثلاثين ألفا من العربان وغيرهم وسار بهم قاصدا القاهرة لمحاربة بهرام ، فلما قرب منها خرج إليه بهرام بعساكر مصر فلما تقاربا رفع رضوان المصاحف على الرماح فترك عسكر المسلمين بهرام والتجأوا بأجمعهم إلى رضوان بإتفاق منهم مع رضوان قبل قدومه [١] ، وهذا ما أجبر الحافظ على تعيين رضوان وزيرا خلفا لبهرام في سنة ٥٣١هـ / ١١٣٧م [٢] ، وكان وصول رضوان الوزارة كأول وزير سني للفاطميين بداية تحول سني بطيء قاد إلى إنتصار السنة النهائي في مصر بعد ذلك بنحو ثلاثين عاما وكانت أولى ثمار هذا التحول السني هي بناء المدارس في الإسكندرية [٣] ، لأن القاهرة كانت في هذا الوقت عاصمة الفاطميين ومركز النشاط الشيعي في العالم الإسلامي ، والمدرسة إبتكار سني وظاهرة جديدة في مصر ، ولا شك أن إقامة مؤسسة سنية هامة كالمدرسة في العاصمة الشيعية كان من شأنه قلب التوازن بين الخليفة ووزيره ، وبما أن الإسكندرية غالبية سكانها من أهل السنة كان طبيعيا أن يبنى رضوان مدرسته بها ليقاوم بها مذهب الدولة وليعلي كلمة الإسلام السني في مواجهة إتساع نفوذ أهل الذمة الذي تزايد في العقود الأولى للقرن السادس الهجري [٤] ، وما كان ذلك ليتم لولا ضعف الخلفاء وانحسار نفوذهم خاصة في العصر الفاطمي الثاني هذا .

---

(١) ابن ميسر : المنتقي من أخبار مصر ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) ابن ميسر : المنتقي من أخبار مصر ص ١٢٤ .

(٣) د / أيمن فؤاد سيد / الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد ص ٢٠٠ الدار المصرية اللبنانية القاهرة الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

(٤) د / أيمن فؤاد سيد : المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي ص ١١٨ بحث منشور في سلسلة تاريخ المصريين العدد ٥١ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٣م .

مدارس الإسكندرية :

وأن أهم ما يميز الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر الفاطمي خلال عصر الدراسة هو نشأة " المدرسة " التي تعد إحدى وأهم مؤسسات ومراكز الحضارة الإسلامية .

ويقتضينا المقام أن نوضح نقطة هامة وهي الفرق بين المسجد والمدرسة : فإذا كان المسجد في اللغة بأنه موضع السجود ومكان الصلاة(١)، فإن المدرسة تفسر بأنها " موضع الدرس " ويقال درس الكتاب درسا ودراسة أي قرأه وأقبل عليه ليحفظه ويفهمه (٢) ، والمدرس هو " الذي يتصدى لتدريس العلوم من التفسير والحديث والفقه والنحو والصرف ونحو ذلك "(٣) ومن هذا يبدو أن فكرة المدرسة ارتبطت بالعلوم الدينية أو العلوم الشرعية ، والتمييز العلمي بين المسجد والمدرسة يكتنفه الغموض وذلك أننا نرى بداية أن بعض المساجد يعين بها مدرسون (٤) ، كما نجد بعض المدارس يعين بها مؤذنون وتقام منابر للخطابة (٥) ، ولكن النظرة المدققة ترينا أن هناك خواصا للمدرسة تتمثل في الإيوان وهو الإسم الذي يراد به قاعة المحاضرات في التعبير الحديث وما كانت المدرسة تخلو منه فهو أبرز

---

(١) للتعريف بالمسجد لغة أنظر الرسالة ص ١٩٨ هامش (٢) .

(٢) ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المتوفى سنة ٧١١هـ / ١٣١١م : لسان العرب ج٣ ص ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، (مادة سجد) ، ج ٦ ص ٧٩ ، ٨١ (مادة درس) دار صادر بيروت (١٣٧٤ ـ ١٣٧٥هـ) (١٩٥٥ ـ ١٩٥٦م) .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٤ .

(٤) أبو شامة : (شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المتوفى سنة ٦٥٥هـ / ١٢٦٧م : الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ١٨٩ .

(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٧٤ ، ٤٠٠ .

مرافق المدرسة وأهمها [١] ، وكذلك بيت الصلاة حيث كان للمدرسة الإسلامية وظيفتان متلازمتان الدراسة والصلاة فلا تخلو مدرسة إسلامية من بيت للصلاة [٢] كما كان يراعى تزويد المدرسة بمئذنة بالرغم من تعدد المآذن إلا أن البناه في القاهرة كانوا يشعرون أن المئذنة توكيد لصفة الجماعة بالمدارس [٣] كما أن أهم خواص المدرسة : المساكن التي تبنى فيها ليعيش فيها الطلاب والمدرسون الذين ينتسبون إليها [٤] ، وقد حفلت مدارس الإسكندرية في العصر الفاطمي بهذه المساكن وما يتبعها من المرافق فقد جاء في سجل إنشاء المدرسة الحافظية النص على أن تكون المدرسة " مستقرا لهم ومقاما ومثوى لجميعهم ووطنا ومحلا لكافتهم وسكنا ... " [٥] ولعل هذه الخاصية تعتبر من مفاخر التعليم في المدارس في الإسكندرية في العصر الفاطمي حيث يتاح للطلاب فرصة الإنقطاع للعلم والتفرغ للتحصيل والدرس ، كما توفر الوقت والجهد للعلماء والأساتذة كما أن من خواص المدرسة أيضا : أن المدرس كان يعين من قبل صاحبها ليعلّم بها بموجب سجل يقرأ على الكافة بالمسجد الجامع وقد جاء في سجل المدرسة الحافظية

---

(١) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص ١١٤ ، محمد عطية الإبراشى : التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ٩١ مطبعة عيسى الحلبي القاهرة الطبعة الثالثة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ، د / عفاف سيد محمد صبره : المدارس في العصر الأيوبي ص ١٦٥ بحث منشور في سلسلة تاريخ المصريين العدد ٥١ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٣ م .

(٢) د / أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ج ٢ ص ٧٢ ، د / عفاف محمد صبره : المدارس في العصر الأيوبي ص ٦٥ .

(٣) د / أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ج ٢ ص ١١٨ ، د / عفاف صبره : المدارس في العصر الأيوبي ص ١٦٦ بحث منشور في سلسلة تاريخ المصريين العدد ٥١ .

(٤) د / أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص ١١٤ ، د / عطية الإبراشى التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ٩١ .

(٥) القلقشندى صبيح الأعشى ج ١٠ ص ٤٥٨ .

النص على مدرسها " واستقرت التقدمة في هذه المدرسة لك أيها الفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبو الطاهر : لنفاذك واطلاعك وقوتك في الفقه واستضلاعك ولأنك الصدر في علوم الشريعة ..... " (١) وهذا بخلاف المسجد الذي طالما جلس به المدرسون دون أن يُعينوا للتعليم فيه ، وعلى ذلك فالمدرسة : هي المكان الذي يتخذ لتلقى العلم على أيدي شيوخ موقوفين عليها وذلك لتمييزه عن حلقة المسجد ، وأن يكون ملحقا به مكان لسكن المدرسين والطلاب مع وجود معاليم أي " مرتبات وجرايات دارة عليهم ولمن يقوم بالتدريس فيها " وبذلك يكون وظيفتها الرئيسية مستمدة من كونها أعدت لسكنى الطلاب والشيوخ والفقهاء ، لا من قاعات التدريس والمدرسين(٢) .

المدرسة الحافظية : أو العوفية :

هي المدرسة التي أنشأها الوزير رضوان بن ولخشي في مدينة الإسكندرية في سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨ م في خلافة الحافظ لدين الله الفاطمي، وجعل على رأسها الفقيه أبا الطاهر بن عوف " إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسي بن عوف الزهري المتوفى سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م " شيخ المالكية (٣) ، وقد صدرَ سجل عن الخليفة بإنشائها وجعل اسمها المدرسة الحافظية نسبة للخليفة الحافظ وإن غلب عليها اسم " المدرسة العوفية " نسبة للفقيه الكبير ، وكان موقع المدرسة كما يقول السجل " شارع

---

(١) القلقشندى : صبيح الأعشى ج ١٠ ص ٤٥٩ .
(٢) د / أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ج ٢ ص ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦٣ .
(٣) راجع ترجمته في : الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٣٣٦ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٠٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٥٢ ، ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي المتوفى ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨م : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ح ٤ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ دار الفكر العربي القاهرة د . ت . وسأتناوله بالتفصيل في حديثي عن العلماء .

المحجةّ [١] كما نص فيه على أن تكون المدرسة مأوي للطلاب وسكن لهم وأن يطلق لها من ديوان الخليفة مؤنتهم ، وما يقوم بأودهم ويعينهم على التفرغ للبحث والدراسة وأن يتولى مقدم المدرسة الإشراف التام على شئون الطلبة والعمال والمستخدمين [٢] .

ولكن لماذا أنشأ رضوان مدرسته في الإسكندرية ولم ينشئها في القاهرة مقر إقامته ؟ والجواب : إن القاهرة هي مركز النشاط الشيعي في العالم الإسلامي ، والمدرسة ظاهرة جديدة في مصر فكان من شأن إقامة مؤسسة سنية هامة كالمدرسة في العاصمة الشيعية أن ينقلب التوازن بين الخليفة ووزيره ، وبما أن الإسكندرية معظم سكانها من أهل السنة فكان طبيعيا أن يبنى رضوان مدرسته بها ليقاوم بها مذهب الدولة ولإعلاء كلمة الإسلام في مواجهة اتساع نفوذ أهل الذمة الذي حدث في العقود الأولى للقرن السادس ولعل في إطلاق هذه التسمية عليها لونا من الاسترضاء للخليفة حتى لا يقف منها موقف العدو ، وحتى تدفعه هذه التسمية إلى الوقوف بجانبها وعدم سماع قالة السوء فيها حتى تستغلظ وتستوى على عودها ولذلك فقد استصدر رضوان سجلا من الخليفة ببناء المدرسة في الإسكندرية نسبت فيه المدرسة إلى الخليفة حيث أطلق عليها " المدرسة الحافظية " ولم تنسب إلى الوزير الذي بناها ، وذلك لأن الخليفة وليس الوزير هو الذي كان يصدر الأمر بتعيين مدرسيها بناء على إقتراح الوزير[٣] هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الوزراء السنيين وجدوا في

---

(١) يرجع أنه الشارع الكبير الذي كان ممتدا من باب رشيد إلى باب البحر وموضعه الحالي طريق الحرية د / خضر أحمد عطا الله : الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي هامش ص ١٨٨ .

(٢) انظر : سجل المدرسة في صبح الأعشى للقلقشندى ج ١٠ ص ٤٥٨ ، ٤٥٩.

(٣) د/ أيمن فؤاد سيد / لدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد ص ٢٠١ ، د/جمال الدين الشيال : أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية المجلد ١١ ص ٢، ٢٩ مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ١٩٥٧ م .

الإسكندرية ميدانا بعيدا عن مركز الخلافة الشيعية في القاهرة وما يجرى بها من منافسات بين الأمراء والوزراء حول السلطة فعملوا على نشر مذهبهم السني في الإسكندرية ، وساعدهم على ذلك كثرة العلماء المغاربة السنيين الوافدين على الإسكندرية سواء للإقامة بها أو المارين عليها في طريقهم إلى الأراضي المقدسة ، ومن ناحية ثالثة وضع الإسكندرية كميناء تجاري هام يسيطر على التجارة بين الشرق والغرب فوفد عليها الكثير من التجار من مختلف الجنسيات والأديان وكل ذلك سببا في غرس فضيلة التسامح الديني في نفوس أهل الإسكندرية ، هذه العوامل السابقة شجعت الوزراء الفاطميين السنيين على نشر المذهب السني بالإسكندرية فبنوا المدارس ، وعملوا على تشجيع العلماء السنيين وإكرامهم ، ووجد هؤلاء العلماء بدورهم في الإسكندرية ملجأ لهم للهروب من إضطهاد الخلفاء الفاطميين .

نتج عن هذا الوضع الفريد بمدينة الإسكندرية أن بدأت تظهر بها ملامح علمية وتعليمية اختلفت اختلافا كليا عن نظام التعليم الذي تبناه الخلفاء الفاطميون .

هذا ولقد ضنت علينا المصادر بوصف دقيق لنظام التعليم في المدرسة الحافظية ومدرسة العادل بن السلار ، إلا أننا يمكن أن نقيسها على ما عرف من نظام المدارس في هذه الحقبة ، كما أننا من خلال الإشارات المتناثرة في ثنايا الكتب يمكن أن نلم بشيء من نظام هاتين المدرستين فللمدرسة (أستاذ) معيد مرتب وُكَل إليه التدريس بها وكان لهذا الأستاذ معيدون من طلبته النابهين ونجد في معجم السلفي ما يشير إلى ذلك فإنه يقول في ترجمته لرافع بن يوسف بن زيدون : " وكان يعيد الدرس على أربعين من الصبيان " (١) ، ويقول أيضا في حديثه عن أبى محمد عبد الله الزناتي : " ويحفظ الدرس

---

(١) السلفي (أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن سلفة المتوفى سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠ م معجم السفر ص ٩١ تحقيق عبد الله عمر البارودي . دار الفكر القاهرة ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

الأوسط حفظا مُرضيا ويعيده إعادة جيدة " (١) .

فيفهم من هذا أن من المعيدين من كان يختص بعدد من الطلاب ومنهم من كان يختص بإعادة درس من الدروس . وكان للطلبة سكن مخصص بالمدرسة ، ويصرف لهم ما يحتاجون إليه من طعام ونفقات ونفهم ذلك من سجل المرسوم الذي صدر من الخليفة الحافظ بتأسيس المدرسة الحافظية فقد ورد فيه " وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس بشارع المحجة منا عليهم وإنعاما ، ومستقرا لهم ومقاما ومثوى لجميعهم ووطنا ، ومحلا لكافتهم وسكنا ، فجدد السيد الأجل الأفضل أدام الله قدرته الرغبة إلى أمير المؤمنين في أن تكون ما ينصرف إلى مؤنة كل منهم والقيام بأوده وإعانته على ما هو بسبيله وبصدده : من عين وغلة مطلقا من ديوانه " (٢) .

وكان الطلبة يحضرون إلى المدرسة يوميا ، وهؤلاء هم الطلبة المنتظمون إلا أن السلفي يحدثنا عن مواعيد الجمعية (٣) ، وهذه المواعيد لم تكن لطلبة المدرسة فقط بل لكل من أراد الحضور من أبناء الثغر ورواده وهذه المواعيد كانت أشبه بما نسميه الآن " الندوات " فتبدأ بإلقاء درس من الدروس يلقيه أستاذ المدرسة ولا بأس ــ بعد ذلك ــ من أن يفتح المجال لكل من له رغبة في الحديث أو الوعظ فيروى السلفي : أن عبد القوى البرقى الواعظ كان يحضر عنده ويعظ في مواعيده الجمعية كثيرا (٤) .

---

(١) السلفي : معجم السفر ص ١٤٧ .
(٢) القلقشندى : صبيح الأعشى ج ١٠ ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .
(٣) السلفي : معجم السفر ص ٢١٠ .
(٤) السلفي : معجم السفر ص ٢١٠ .

مدرسة العادل بن السلار [١]:

" أو المـــدرسة السلفيـــة " :

وكان بالإسكندرية كذلك المدرسة التي أنشأها الوزير السني العادل بن السلار في الإسكندرية بعد أربعة عشر عاما من إنشاء المدرسة الحافظية زمن الخليفة الظافر لدين الله الفاطمي : ٥٤٤ ــ ٥٤٩هــ / ١١٤٩ ــ ١١٥٤م " لتدريس المذهب الشافعي وقرر في تدريسها الحافظ الشهير أبى الطاهر السلفي [٢] .

وفي هذا الشأن يقول ابن خلكان في ترجمة العادل بن السلار المتوفي سنة ٥٤٨هــ / ١١٥٣م أنه : " كان ظاهر التسنن ، شافعي المذهب " ومع

---

(١) يذكر السبكي أن ابن السلار بنا هذه المدرسة وهو وال على الإسكندرية قبل أن يلي الوزارة . طبقات الشافعية ج٦ ص ٣٧ بينما يذكر ابن خلكان تاريخ بناءها سنة ٥٤٦هــ / ١١٥٠م . وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٧ أي في الوقت الذي تولى فيها ابن السلار الوزارة إلا أنه عاد في موضع آخر ليؤكد أن ابن السلار بناها وهو ما يزال وال على الإسكندرية . وفيات الأعيان ج ٣ ص ٩٣ متابعا في ذلك نص السبكى د / أيمن فؤاد سيد / الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ولكني أرجح عدم الإختلاف بين حديث السبكى وابن خلكان في ذكرهما لبناء المدرسة ــ أي في الوقت الذي كان فيه ابن السلار وال على الإسكندرية لا وزيرا للدولة الفاطمية ــ أما كون ابن خلكان قد حدد في موضع آخر ج ١ ص ٨٧ تاريخ بناء المدرسة سنة ٥٤٦هــ / ١١٥٠م فلعله كان يقصد بتحديده هذه السنة بالذات تولية ابن السلار للوزارة لا بناءه للمدرسة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن ابن خلكان أكد أن ابن السلار بنا المدرسة وقت أن كان وال على الإسكندرية حيث قال : " ولما وصل الحافظ أبو طاهر أحمد السلفي رحمه الله تعالى إلى ثغر الإسكندرية المحروس وأقام به ثم صار العادل المذكور واليا به وفيات الأعيان ج٣ ص ٩٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٩١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٧ ، ابن العماد : شذارت الذهب ج ٤ ص ٢٥٥ .

ذلك فقد صار العادل واليا على الإسكندرية ، وفي أثناء ولايته على الثغر " وصل الحافظ أبو طاهر السلفي ــ رحمه الله تعالى ــ إلى ثغر الإسكندرية المحروس وأقام به فاختص العادل به وزاد في إكرامه ، وعمَّر له هناك مدرسة سنة ٥٤٦هـ / ١١٥٦م ، وفوض تدريسها إليه وهي معروفة به إلى الآن [١] يقول ابن خلكان [٢] : " ولم أرى بالإسكندرية للشافعيين سواها " وعندما ترجم ابن خلكان للحافظ السلفي ذكر وجود المدرسة التي أنشأها ابن السلار [٣] ، والتي كان السلفي مُدرِّسها الوحيد عشرين عاما قبل أن يُصبح صلاح الدين وزيرا للفاطميين ، ولهذا نستطيع القول أن مصر عرفت المدارس في العصر الفاطمي خلافا لما يراه أغلب الباحثين من أن المدرسة جاءت إلى مصر مع الأيوبيين عن طريق الشام ، وقد أخذ بهذا الرأي المقريزى كما أسلفنا [٤] .

ولكننا نستطيع القول أن المدرسة كمؤسسة سنية رسمية لم تعرف على مستوى واسع في مصر إلا مع تولي صلاح الدين الوزارة للعاضد آخر خلفاء الفاطميين [٥] ، ذلك أن صلاح الدين إقتدى بسيده نور الدين محمود الذي بنى بدمشق وحلب وأعمالها عدة مدارس ، وكانت كلها تُعلِّم المذهب الشافعي ، ومذهب أبى حنيفة في الفقه ومذهب الأشعري في أصول الدين ، وكان صلاح الدين بهذه الخطة السلمية الحكيمة يقاوم سلطان المذهب الشيعي وينزعه من النفوذ عن طريق الفهم والإقناع [٦] ولقد سميت المدرسة في أول

---

(١) أي إلى أيام ابن خلكان المتوفى ٦٨١هـ / ١٢٨٢م .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٩٣ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص ٩٣ .

(٤) القلقشندى : صبيح الأعشى ج ٣ ص ٣٤٦ ، المقريزى : إتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣١٩ المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٣ ، د / خضر أحمد عطا الله : الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي ص ١٩٠ .

(٥) د / أيمن فؤاد سيد / الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد ص ٣٨٨ .

(٦) د / أيمن فؤاد سيد المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي ص ١٢٠ ، ١٢٢ ــ سلسلة تاريخ المصريين العدد ٥١.

الأمر بالعادلية نسبة إلى ابن السلار الذي تلقب بالعادل عند تولية الوزارة ثم نسبت بعد ذلك إلى مُدرِّسها العلامة الكبير الحافظ أبو الطاهر السلفي [١] ، ولقد تركت هذه المدرسة وغيرها أثرا في أهل الإسكندرية حيث جذب نشاطها العلمي وكثرة المشتغلين بها بالعلم من أهل السنة العلماء من الشرق والغرب على السواء فكما كانت المكتبات والمجامع العلمية ودور العلم والحكمة وغيرها جزءا من الخطة التي دبرها الفاطميون لتشييع مصر ، أصبحت المدارس الأيوبية جزءا هاما من الخطة التي وضعها صلاح الدين وقصد بها تعليم المذهب السني ، ومحاربة العقائد الفاطمية [٢] .

فقد بدأ صلاح الدين خطوات الإصلاح السني في مصر ابتداء من عام ٥٦٥هـ / ١١٦٩م حيث أبطل الآذان بحي على خير العمل ، وأمر أن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون الأربعة [٣] ، وعزل قضاة مصر من الشيعة وولي قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الهدباني الشافعي فعزل من كان فيها من القضاة واستناب عنه قضاة شافعية في العام التالي ٥٦٦هـ / ١١٧٠م [٤] ، كما قام صلاح الدين كذلك بإبطال " مجالس الدعوة " بالجامع الأزهر وغيره ، وللأسف الشديد فقد زالت كل آثار هذه المدارس الأولى التي أقيمت في الإسكندرية .

---

(١) د / جمال الدين الشيال : أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي ص ١٤٠ ، ١٤٢، ١٤٤، د/ أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ج ٢ ص ٥٠ ، إيبتن دريوتون : مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي الأول والفاطمي ص ٢١٨، د / جمال الشيال : تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي ص ٤٤ .

(٢) عقيدة الفاطميين تجعل دعائم الإسلام سبع : الولاية ، والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد . القاضي النعمان بن محمد بن حيُّون المغربي المتوفى سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤م : دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام المجلد الأول ص ٢ تحقيق آصف بن علي أصغر فيظي دار المعارف القاهرة الطبعة الثالثة ١٩٨٥م .

(٣) المقريزى : إتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣١٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ح ٢ ص ٥ .

(٤) المقريزى : إتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣١٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٠٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص٥ .

منازل العلماء :

ولقد إمتازت الحياة العلمية عند المسلمين بالسهولة والمرونة لعدم تقيدها بمكان معين في نشر العلم ، فكان هناك المسجد والمدرسة وغيرهما من الأماكن التي قامت بدور كبير في الحياة العلمية في الإسكندرية خلال عصر الدراسة ، وكان هناك بجانب ذلك مجالس أخرى تمثلت في منازل العلماء ، وكانت مثل ما يطلق عليه الآن اسم " الصالونات الأدبية " ووُجد من العلماء من اتخذ بيته مكان لإلقاء دروسه (١) ، فكان أهل الإسكندرية إذا رأوا أحد علمائهم المشهورين بالطريق تتبعوه والتفوا حوله فيدرسهم طول الطريق إلى أن يصل إلى منزله (٢) ، ويذكر الضبي (٣) : أن الحافظ السلفي كان يحضر في محفل عظيم بالإسكندرية عند بعض أهلها ، وكان المجلس يغص بالحاضرين ، والذي لا شك فيه أن هذه الصالونات الأدبية خدمت التطور العلمي وعملت علي نشر العلوم (٤) ، وامتدت هذه الحلقات إلى الأماكن والبساتين فكان الطرطوشي يخرج مع طلبته في أكثر الأوقات إلى البستان ، فيقيمون الأيام المتوالية في فرجة ومذاكرة ومداعبة معا ، لا يقدح في حق الطلبة ، بل يدل على فضلهم وسلامة صدورهم ، وبلغ عدد من خرج معه في إحدى نزهاته ثلاثمائة وستين رجلا لكثرة الآخذين عنه المحبينَ لصحبته (٥) .

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٢ ص ٢٢٥ النهضة المصرية القاهرة الطبعة الخامسة ، د / محمد محمد الخطيب : تاريخ التربية الإسلامية ص٣٠ .

(٢) ابن رشيد (محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن رشيد أبى عبد الله الفهري) : ملء الغيبة بما جمع في طول الغيبة في الوجهه الوجيهه ومكة وطيبة القسم الخاص بالقاهرة والإسكندرية المعروف بالرحلة ورقة ٦١ مخطوط رقم ١٧٣٩ ج بمكتبة البلدية بالإسكندرية .

(٣) الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة المتوفى سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م): بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس ص ٢٠٧ بيروت .

(٤) د / أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص ٧٢ .

(٥) ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ص ٢٤٦ ، د / جمال الدين الشيال : أعلام الإسكندر في العصر الإسلامي ص ٧٣ .

والحقيقة أن أهل الإسكندرية أحبوا العلماء وتأثروا بهم ، وحرصوا على الاستفادة منهم أينما سنحت الفرصة لهم ، وليس أدل على ذلك من قول سبط ابن الجوزي عندما أراد تركها ، وسأله أهلها الجلوس فقال : " .... فجلست بها مجلسين فناب فيها نحوا من ألفين ، فلما عزمت العودة إلى القاهرة قام بعض أفاضلها فأنشد فيّ بعض أبيات من الشعر فكانت الباعث لي أن عززت لهم بمجلس ثالث ، ولم أقدر أن أسافر عنهم إلا ليلا .... "[١].

ولقد ظهر أثر علماء الأندلس على أهلها فظهر من بين الحكماء وأصحاب الحرف من أبناء الإسكندرية من اشتهر وتبحر في العلم ، فنجد مثلا الحكيم الفاضل أبو محمد عبد العزيز بن فارس بن ميمون بن كلدة الشيبانى الربعي الإسكندراني الذي كان طبيبا بالإسكندرية وحدث بها [٢] ، ومنهم التاجر المحدث المقرىء بمصر والإسكندرية عبد الرحمن الرومي عتيق المتوفى ٦٠٨هـ / ١٢١١م [٣] .

الرحلة العلمية :

ولقد كانت الرحلة العلمية بجانب العوامل السابقة عاملا هاما ساعد بلا شك على إزدهار الحياة العلمية في الإسكندرية خلال عصر الدراسة .

فقد عرف العرب الرحلة منذ القدم ، فساحوا في البلاد بهدف التجارة

---

(١) سبط ابن الجوزي (أبو محمد يوسف بن فزغلو) المتوفى سنة ٦٥٤هـ مرآه الزمان في تاريخ الأعيان ج ٨ ص ٤٩١ دار الكتب المصرية القاهرة . وهذا دليل على شدة حسبهم وتعلقهم بالعلماء وهذا واحد منهم .

(٢) ولد الحكيم الشيباني في سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م وتوفى سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م . المنذرى (زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى المتوفى سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) : التكملة لوفيات النقلة المجلد الأول ص ٢٤٦ تحقيق بشارة عواد معروف مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الرابعة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٣٧٦ .

في المقام الأول ، كما أن الذين إعتنقوا الإسلام في بداية الدعوة الإسلامية هاجروا إلى الحبشة فعرفوها ، وعندما انتصر الإسلام وتعززت دولته وكبرت ساح المسلمون في أرض الإسلام .... كما أن توسع الخلافة والظروف الجديدة التي نشأت كجباية الخراج مثلا جعل من الضروري معرفة البلاد والأقاليم ، فعرف العالم الإسلامي الكثير من الرحالين كالمسعودي واليعقوبي وغيرهما .... وقد أدت هذه الرحلات إلى إثراء العلوم في المشرق والمغرب على السواء . ولا شك أن النهضة العلمية الكبيرة التي عرفها المشرق العربي إبان العصور الأموية والعباسية كان لها إمتدادها وثمارها في المغرب العربي الذي عرف نهضة كبيرة في ميدان العلوم [١] ، ومنذ القرن الثالث الهجري إمتزجت الثقافات اليونانية والفارسية والهندية مع الثقافة العربية إمتزاجا قويا ساعد فيما بعد على إبداع حضارة إسلامية جديدة إتخذت اللغة العربية أداتها ، وجعلت الإسلام أساسها [٢] ، فقد ظلت العروبة والإسلام أشبه بجواز سفر يمكن بفضله التنقل بين المشرق والمغرب ــ حتى بعد استقلال المغرب عن الفاطميين ــ دون إعتبار للاختلافات المذهبية أو النزاعات الحكومية [٣] ولقد كان للرحلات العلمية في الفترة موضوع الدراسة أكبر المؤثرات التي ساعدت على إنتشار الثقافة

---

(١) ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المتوفى سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المقدمة ص ٥ شرحه وكتب هوامشه طلال حرب دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

(٢) أحمد أمين : ضحي الإسلام ج ١ ص ٣٧٩ النهضة المصرية القاهرة الطبعة العاشرة ، د / محمد أحمد محمود حسب الله : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد الخليفة المعتمد على الله ص ٣٢٨ رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية بالقاهرة تحت رقم ١٣٥٣/١٣٥١ ، ١٩٧٨م .

(٣) د / سعد زغلول عبد الحميد : الأثر المغربي والأندلس في المجتمع السكندري في العصور الإسلامية الوسطي ص ٢٢٨ بحث في كتاب (مجمع الإسكندرية عبر العصور ــ كلية الآداب ــ جامعة الإسكندرية ١٩٧٣م .

الإسلامية ، وبالتالي كثرت المؤلفات الدينية والأدبية والثقافات الأخرى المختلفة [١] ولم تنقطع الرحلة العلمية فكان يرد على الإسكندرية كثير من علماء الدين من المشرق والمغرب ينشرون علمهم ويدرسون الكتب التي لم تكن في متناول أيديهم في بلادهم كما كان طلاب العلم من البلاد الإسلامية يأتون إلى الإسكندرية إما طلبا للعلم أو أثناء مرورهم وعودتهم من الحج ، وكان من أثر ذلك إزدهار الحركة العلمية التي تناولت مختلف النواحي الدينية واللغوية ....الخ .

فبعد أن كانت الإسكندرية معبرا لطلاب العلم الوافدين من المغرب والأندلس في طريقهم إلى الفسطاط والمشرق صارت من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي بفضل بعض العلماء الذين استقروا فيها بتشجيع من كبار رجال الدولة الفاطمية ، ولم تشتهر الإسكندرية كمركز للتشيع بل ذاع صيتها كمركز لعلوم الحديث والفقه على المذهبين الشافعي والمالكي ، وذلك بفضل السياسة المتزنة التي سار عليها الخلفاء الفاطميون الذين أكتفوا بجعل التشيع مذهبا رسميا للدولة دون فرضه على سائر أبناء الشعب من غير الموظفين الرسميين [٢] ، وبحكم وقوع الإسكندرية في أقصى الغرب من البلاد المصرية أقرب بلاد مصر إلى المغرب والأندلس كانت محط رحال الأندلسيين القادمين إلى الشرق من تجار وطلاب علم ومهاجرين بل ومحاربين مهاجمين ، وقد كان لوفود الأندلسيين والمغربيين إليها وكثرة هجرتهم لها أثره الذي لا يزال باقيا في كثرة الأسر السكندرية ذات الأصول المغربية والأندلسية ، بل إنه قد ترك أثره في لهجة القوم هنا وبعض ما يتخذونه من أسماء لمعالم مدينتهم فاستعمال أندلس وتسمية أحد الأسواق "

---

(١) د / محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٢٢٦ دار الفكر العربي القاهرة .

(٢) د / سعد زغلول عبد الحميد : الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندري في العصور الإسلامية الوسطي ص ٢٢٩ .

سوق المغاربة " دليل حسي على قيام هذه الرحلات وتلك الصلات ، بل إن أهل الإسكندرية يعيشون حتى هذه اللحظة ومنذ مئات السنين في جو روحي أندلس فمشايخ المدينة وأولياء الله الصالحون فيها من العرب الأسبان كالطرطوشى وأبو العباس المرسى وغيرهما [١] ، والظاهر أن خلفاء الفاطميين كانوا مضطرين أمام تمسك أبناء شعبهم بمذاهبهم السنية إلى قبول الأمر الواقع فعدلوا عن نشر التشيع ــ في بعض الأحيان ــ وساعدوا علماء السنة بل وبنوا لهم المدارس ، وكذلك فعل وزراؤهم فالحاكم بأمر الله عندما أراد إكتساب العامة إلى جانبه " أمر بعمارة دار العلم وفرشها ونقل إليها الكتب العظيمة وأسكنها من شيوخ السنة .... وجمع الفقهاء والمحدثين إليها وأظهر الميل إلى مذهب الإمام مالك والقول به ولو أنه قتل العالمين بعد ذلك وأغلق دار العلم كما تقول الرواية [٢] ولقد أمدت مكتبة دار العلم الإسكندرية بالكثير من كتبها التي سُيِّرت في النيل سنة ٤٦١هـ / ١٠٦٨م عندما اضطربت أحوال القاهرة المالية واستولى بعض كبار رجال الدولة على كتب المكتبة وفاء لبعض ديونهم فقد صارت هذه المكتبة من نصيب عماد الدولة ابن أبى الأفضل بن المحترق الذى حملها معه إلى الإسكندرية حيث أقام [٣]، ثم إن الكتب نقلت بعد وفاته إلى بلاد المغرب [٤] ، مما يعنى أن علماء المغاربة والأندلسيين كان لهم بالإسكندرية شأن عظيم من ناحية ومن ناحية أخرى أن الثغر أصبح ينافس العاصمة كمركز علمي [٥] .

---

(١) د / السعيد مصطفي السعيد : اروابط الثقافية بين أسبانيا ومصر ص ١٢ ، ١٣ مجلة كلية الآداب ــ جامعة الإسكندرية المجلد الثاني عشر ــ مطبعة جامعة الإسكندرية ١٩٥٨م .

(٢) ابن تغريدي بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٣) المقريزى : إتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٢٩٥ .

(٤) المقريزى : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٩٥ .

(٥) د / سعد زغلول عبد الحميد : الأثر المغربي والأندلسى في المجتمع السكندري ص ٢٣١ .

فالمسلمون الأول كانوا يعتقدون أن الإقامة في الرباطات والحياة في الثغور نوع من الجهاد ، ومن يموت أثناء مقامه بها فهو شهيد ولهذا جذبت الإسكندرية إليها في العصور الإسلامية عددا كبيرا من المسلمين ومن العلماء بوجه خاص ، ومن علماء المغرب والأندلس بوجه أخص ، وقد زادت صلة الإسكندرية بالمغرب منذ آتي الفاطميون من المغرب وفتحوا مصر واتخذوها مقر الخلافة فقد أصبح المغرب كله ومصر والشام دولة واحدة ونتيجة لهذا كثرت رحلة المغاربة والأندلسيين إلى مصر وإلى الإسكندرية بوجه خاص [١] ، وأصبح من واجبات طالب العلم الأولية أن يرحل إلى الأمصار المختلفة ويأخذ عن علمائها وزالت الحدود والفواصل التي تميز كل طائفة عن الأخرى ، وعملت الرحلات في تطعيم كل شجرة من أشجار العلم ، كما عملت في تقريب ألوانها وطعومها [٢] ولقد ساعدت هذه الرحلات على أن تجعل من الدولة الفاطمية وحدة واحدة فالعلماء والأدباء لا يعترفون بالحدود الإقليمية ، ولا يعبأون بالحواجز السياسية ، ويرون أن اللغة والدين تكسر كل القيود ، وساعدت الرحلة أيضا على تقارب مناهج العلوم بين الأقاليم المختلفة فعلم مصر وأدبها لا يتميز عن علم العراق وأدبها ولا عن علم الشام أو ما وراء النهر فجميعها متقاربة لأن الرحلة والاتصال جعلت الإتجاه واحد أو متقاربا في كل الأقاليم[٣] فكانت الإسكندرية هي القنطرة التي عبرت عليها الثقافة الإسلامية من المشرق إلى المغرب وبالعكس ، وحدث نوع من التبادل والإندماج الفكري ، ولكي تتضح صورة الحياة العلمية في الإسكندرية في الفترة موضوع الدراسة نتناول بالبحث

---

(١) د / جمال الدين الشيال : الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ مجلة كلية الآداب ــ جامعة الإسكندرية المجلد الخامس عشر ــ مطبعة جامعة الإسكندرية ١٩٦١م .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٢ ص ١٦٥ .

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ ص ٣١٧ ، ٣١٨ ، النهضة المصرية القاهرة الطبعة الرابعة ١٩٦٦م .

بعض العلماء الذين رحلوا إلى الإسكندرية من خارج القطر المصري ومن داخله فمن العلماء الذين رحلوا إلى الإسكندرية من خارج مصر .

١ ــ الرحلة الخارجية :

أبو القاسم الهزلي المتوفى سنة ٤٦٥هــ / ١٠٧٢م [١] :

يوسف بن علي بن جبارة بن محمد بن عقيل بن سواد ، المغربي أبو القاسم الهزلي ولد في حدود التسعين والثلثمائة تقريبا [٢] ، وكان أبو القاسم الهزلي من العلماء الذين تجولوا وارتحلوا كثيرا فطاف البلاد في طلب القراءات وكانت رحلته في سنة خمس وعشرين وأربعمائة وبعدها [٣] ، فأخذ القراءات عن كثير من العلماء في مختلف البلدان حتى قيل : أن عدد الشيوخ الذين قرأ عليهم بلغ ما بين مائة واثنتان وعشرون شيخا [٤] وقيل : ثلاثمائة وخمس وستون شيخا كما أورد في كتابه الكامل حيث قال : " فجملة من لقيت في هذا العلم ثلاثمائة وخمسة وستين شيخا من آخر المغرب إلى باب فرغانة يمينا وشمالا وجبلا وبحرا ولو علمت أحدا تقدم عليَّ في هذه الطبقة في جميع بلاد الإسلام لقصدته .... " كان من بينهم أحمد بن علي بن هاشم بمصر وأحمد بن علي بالإسكندرية [٥] وعبد الواحد بن عبد القادر بدمياط[٦]، وغيرهم من الشيوخ الذين قرأ عليهم وسمع منهم ، وهذا ما جعل بعض العلماء يصفونه ويبالغون في رحلاته وطوافه في طلب القراءات فقال عنه ابن الجوزي [٧] : " لا أعلم أحدا في هذه الأمة رحل في القراءات رحلته ولا

---

(١) الذهبي : معرفة القراء ج ١ ص ٣٤٩ ، ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ج ٢ ص ٤٠١ .

(٢) ابن الجزري : غاية النهاية ج ٢ ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

(٣) الذهبي : معرفة القراءج ١ص٣٤٦، ابن الجزري: غاية النهايةج٢ص ٣٩٨ .

(٤) الذهبي : معرفة القراء ج ١ ص ٣٤٦ .

(٥) الذهبي : معرفة القراء ج ١ ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ابن الجزري : غاية النهاية ج ٢ ص ٣٩٨ .

(٦) الذهبي : معرفة القراء ج ١ ص ٣٤٧ .

(٧) ابن الجزري : غاية النهاية ج ٢ ص ٣٩٨ .

لقي من لقي من الشيوخ " وكان أبو القاسم الهزلي مقدما في النحو والصرف عارفا بالعلل وكان القشيرى يراجعه في مسائل النحو ويستفيد منه ، وكان حضوره إلى الإسكندرية سنة ثمان وخمسين وأربعمائة [1] .

" والإمام " [2] الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م [3] :

" حجة الإسلام " [4] أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الفقيه الشافعي ولد سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ببلدة طوس في أسرة فقيرة " فكان والده يغزل الصوف ويبيعه في حانوته فلما احتضر أوصي به وبأخيه أحمد إلى صديق له صوفي صالح فعلّمهما الخط وأدبهما ثم نفد منه

---

(١) الذهبي : معرفة القراء ج ١ ص ٣٤٩ .

(٢) " الإمام " من ألقاب الخلفاء أنفسهم ، ويقع أيضا في ألقاب أكابر العلماء ، وأصل الإمام في اللغة الذي يقتدي به ولذلك وقع علي المجتهدين كالأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة وهم : الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٩ ، ١٠ ، محمد قنديل البقلى: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٤٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة إلا أنه قد جرى العرف على تلقيب أئمة العلم والدين " بالإمام الأعظم " لا سيما وأن أقدم نقش معروف ورد فيه هذا اللقب كان باسم " الإمام الرباني الأعظم محي الدين حجة الإسلام محمد الغزالي . د / حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ص ١٧٥ دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٨م .

(٣) ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي المتوفى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ٩ ص ١٦٨ مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن الهند ١٣٥٨هـ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٢٩٤ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٠٣ وسأقتصر في حديثي عن هذا العالم على رحلته العلمية التي زار فيها مدنية الإسكندرية وذلك بما يفدنا عن تلك الرحلة .

(٤) " حجة الإسلام " الحجة في اللغة بمعنى البرهان وهو الدليل القاطع وبه تتقرر قواعد الإسلام ومبانيه ، وهذا اللقب من ألقاب القضاة والعلماء وقد أطلق المجتمع الإسلامي هذا اللقب إصطلاحا على الإمام أبو حامد الغزالي . القلقشندى : صبيح الأعشى ج ٦ ص ١٠٤ ، ١٥٦ ، محمد قنديل البلقي : التعريف بمصطلحات صبيح الأعشى ص ١٠٢ ، د / حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

ما خلفه أبوهما وتعذر عليهما القوت فقال : أري لكما أن تلجآ إلى المدرسة قال الغزالي :" فصرنا إلى المدرسة نطلب الفقه لتحصيل القوت " [١] فاشتغل في مبدأ أمره بطوس علي أحمد الرازكاني ، ثم انتقل بعد ذلك بين بعض البلدان الإسلامية لأخذ العلم على أيدي أساتذتها فدرس بالحرمين علي أبى المعالي الجويني ، وجدّ في الاشتغال حتى تخرّج في مدة قريبة ، وصار من العلماء الأعيان المشار إليهم في زمن أستاذه الذي صار ملازما له إلى حين وفاته وخرج بعد ذلك إلى المعسكر الذي ألتقي فيها بوزيرها نظام الملك الذي أكرمه وعظمه وبالغ في الإقبال عليه ، وكان له منزلة رفيعة بين أقرانه من أصحاب العلم والفضل ، وكان يتفوق عليهم في أوقات المجادلة والمناظرة في المسائل العلمية يقول ابن خلكان [٢] وغيره : " وكان بحضرة الوزير نظام الملك جماعة من الأفاضل فجرى بينهم الجدال والمناظرة في عدة مجالس وظهر عليهم واشتهر اسمه وسارت به الركبان " فكان من أزكياء العالم في كل ما يتكلم فيه وساد في شبيبته حتى أنه درّس بالمدرسة النظامية ببغداد سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وله أربع وثلاثون سنة ، وأعجب به أهل العراق ، وارتفعت عندهم منزلته ، وحضر عنده من كبار العلماء أبو الخطاب وابن عقيل وهما من رؤوس الحنابلة فتعجبوا من فصاحته واطلاعه[٣] قال ابن الجوزي [٤] : " وكتبوا كلامه في مصنفاتهم وبذلك يكون قد قصده كبار العلماء من كل مكان لشهرته وعلو صيته ، لكنه بعد ذلك سلك

---

(١) ابن الجوزي المنظم ج ٩ ص ١٦٨ ، الاسنوى (جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن المتوفى سنة ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م) : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٤٢ تحقيق عبد الله الجبورى مطبعة الإرشاد ببغداد الطبعة الأولى ١٣٩١هـ / ١٩٧١م ، ابن هداية (أبو بكر بن هداية الله الحسيني المتوفى سنة ١٠١٤م) : طبقات الشافعية ص ٦٩ مطبعة بغداد ١٣٥٦هـ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٣ ، الاسنوى طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٤٣ ابن هداية : طبقات الشافعية ص ٧٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ هامش ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٣ .

(٤) المنتظم ج ٩ ص ١٦٩ .

طريق الزهد والانقطاع ، وكان يرتزق من النسخ ، ورحل إلى الشام فأقام بها بدمشق وبيت المقدس مدة [(١)] واجتهد في العبادة وزيارة المشاهد والمواضع المعظمة ثم (قصد مصر وأقام بالإسكندرية مدة) [(٢)] وكان الغزالي يحب الملوك والحكام الذين يحبون أهل العلم والإقبال عليهم فيقال أنه بعد أن

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٢٦٥ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٣٥٣ ، الصفدى : الوافي بالوفيات ج ١ ص ٢٢٥ ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج ٢ ص ٥٣٤ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٣ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج ١ ص ٢٧٥ الاسنوى : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٤٤ ، ابن كثير طبقات الفقهاء الشافعيين ج ٢ ص ٥٣٤ ، ابن هداية طبقات الشافعية ص ٧٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ١٢ ولعل ما يلفت نظر الباحث في هذه العبارة ويستوقفه هو إختلاف المؤرخين في حقيقة المدة التي أقامها الغزالي في الإسكندرية فهل أعتبره من علماء الإسكندرية الذين مكثوا فيها مدة طويلة واشتغلوا ودرسوا وألفوا لطلابهم العلوم والفنون ؟ أم هل أعتبره من العلماء الذين رحلوا إلي الإسكندرية وأقاموا بها مدة قصيرة وبذلك يكون نتاجه وتأثيره العلمي فيها قليل ؟ هذه التساؤلات دعاني إلى طرحها موقف المؤرخين في ذكرهم تجاه ذهاب الغزالي إلى الإسكندرية وعدم تحديد المدة التي أقامها هذا العالم الجليل وانقسموا في ذلك إلى ثلاث فرق :

فريق لم يشر من قريب أو بعيد إلى ذهاب الغزالي إلى الإسكندرية منهم ابن الجوزي في كتابه : المنتظم ج ٩ ص ١٦٨ ، ١٧٠ وابن الأثير في كتابه : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ وابن تغري بردى في كتابه : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٠٣.

والفريق الثاني ذكر أن الغزالي " قصد مصر وأقام بالإسكندرية مدة " منهم ابن خلكان في كتابه : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٣ الصفدى في كتابه : الوافي بالوفيات ج ١ ص ٢٧٥ .

والفريق الثالث : ذكر أنه " صار إلى مصر والإسكندرية بدون إشارة إلى المدة التي أقامها فيها منهم الاسنوى في كتابه : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٤٤، ابن كثير في كتابه : طبقات الفقهاء الشافعيين ج ٢ ص ٥٣٤ وابن هداية في كتابه طبقات الشافعية ص ٧٠ وابن العماد في كتابه : شذرات الذهب ج ٤ ص ١٢ .

لكني في النهاية ولكل هذه الأسباب التي منها تفاوت المؤرخين في تحديد المدة التي أقامها الغزالي بالإسكندرية آثرت أن أتناوله ضمن العلماء الذين رحلوا إلى الإسكندرية .

وصل إلى الإسكندرية : " قصد منها الركوب في البحر إلى بلاد المغرب على عزم الاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراكش لما بلغه منه من محبة أهل العلم والإقبال عليهم ، وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه فبلغه خبر وفاته فعاد إلى وطنه بطوس " [١] فأقام بها واشتغل بنفسه ، وصنف الكتب المفيدة في عدة فنون كلها نافعة ومفيدة ، ثم ألزم بالعود إلى نيسابور والتدريس بالمدرسة النظامية فأجاب إلى ذلك بعد تكرار المعاودات ، ثم ترك ذلك وعاد إلى بيته في وطنه واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره ووزع أوقاته على وظائف الخير : من ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس إلى أن توفى رحمه الله سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م[٢].

وابن القيسراني [٣] المتوفى سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م [٤] :

أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن أحمد المقدسي الحافظ المعروف بابن القيسراني [٥] كانت ولادته في السادس من شوال سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ببيت المقدس ، وأول سماعه سنة ستين وأربعمائة [٦] ، رحل في طلب العلم لبلدان كثيرة فسمع بالحجاز والشام وبمصر من أبى

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٣ ، ج ٦ ص ١٢٤ ، الصفدى : الوافي بالوفيات ج ١ ص ٢٧٥ ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج ٢ ص ٥٣٤ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٣ ، ج ٦ ص ١٢٤ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج ١ ص ٢٧٥ ، الاسنوى : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٤٤ ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج ٢ ص ٥٣٥،ابن هداية : طبقات الشافعية ص ٧٠ ، ابن العماد : شذارت الذهب ج ٤ ص ١٢ .

(٣) قيسارية : بالفتح ثم السكون وسين مهملة وبعد اللف راء ثم مشددة : بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين . ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٤٢١ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤١٦ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤١٥ ، الصفدى : الوافي بالوفيات ج ٣ ص ١٦٧ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤١٥ ، الصفدى : الوافي بالوفيات ج ٣ ص ١٦٦

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤١٥ .

إسحاق الحبال ، وبالإسكندرية من الحسين بن عبد الرحمن الصفراوي وبغيرها من البلدان التي طوّف فيها [١] ، حتى أصبح من المشهورين بالحفظ والمعرفة بعلوم الحديث وله في ذلك مصنفات ومجموعات تدل على غزارة علمه وجودة معرفته ، ولم يقتصر على ذلك ، بل كان له معرفة بعلم التصوف وأنواعه متفننا فيه [٢] وله شعر حسن [٣] ، توفى عند قدومه من الحج آخر حجّاته يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسمائة ببغداد ودفن في المقبرة العتيقة بالجانب الغربي وقيل : توفى يوم الخميس العشرين من الشهر المذكور [٤] .

والحسن الهوزني المتوفى سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م :

الحسن بن عمر بن الحسن الهوزني المكني بأبى القاسم من أهل إشبيليه [٥] ولد سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م [٦] ، فنشأ وتربى في بيئة علمية صالحة فوالده كان عالما وهو من أسرة ذات ثروة وحسب [٧] ، وكان من العلماء الذين ارتحلوا إلى بعض البلدان الإسلامية بعد أن أخذ عن أبيه وأبى محمد عبد الله بن علي الباجي وأبى عبد الله بن منظور وغيرهم من علماء اشبيليه ، ثم رحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية من أبى عبد الله محمد بن منصور الحضري وأبى القاسم مهدى بن يوسف الوراق وبمصر من أبى عبد الله محمد بن بركات ، وأصبح بذلك من العلماء الذين ذاع صيتهم وكان مشارا إليه في بلده عاليا في روايته [٨] ، وصار من العلماء المشهورين

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤١٥ ، الصفدى : الوافي بالوفيات ج ٣ ص ١٦٦
(٢) بن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤١٥ .
(٣) الصفدى : الوافي بالوفيات ج ٣ ص ١٦٧ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤١٥ .
(٥) ابن فرحون : الديباج المذهب ج ١ ص ٣٢٩ .
(٦) ابن بشكوال : (القاسم خلف بن عبد الملك المتوفى سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م) : كتاب الصلة ق ١ ج ٣ ص ١٣٩ مطابع سجل العرب القاهرة ١٩٦٦م .
(٧) ابن فرحون : الديباج المذهب ج ١ ص ٣٢٩ .
(٨) ابن بشكوال : الصلة ق١ ج٣ ص ١٣٩ .

الذين حصلوا على الإجازه للتدريس والفتيا فأجازه أبو محمد بن الوليد وأبو عمر بن عبد البر [١] وشهرته العلمية هذه دفعت بعض الطلاب للرحلة إليه والسماع منه فروي عنه أبو بكر محمد بن عبد الله بن الجد الفهري ، ولقيه أبو محمد عبد الحق أبو محمد عبد الحق بن عطية المحاربى ، توفى سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م [٢] .

وأبو الوفاء البغدادي المتوفى سنة ٥١٣هـ / ١١١٩م [٣] :

الإمام علي بن عقيل أبو الوفاء البغدادي الظفري ، ولد سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة [٤] ، وكان كثيرا ما يرحل لطلب العلم لمختلف البلدان حتى وصف بالعلاَّمة الجامع لأنواع العلوم [٥] ، فقرأ القراءات على أبى الفتح بن شيطا ، وكان إماما كبيرا متبحرا مبرزا في علوم ، يتوقد ذكاء ، وكان أنظر أهل زمانه [٦] ، وليس ذلك ببعيد عليه فقد كان يجتمع بالعلماء من كل مذهب [٧] ، ولقد شهد له حافظ الإسكندرية وعالمها السلفي فقال عنه:

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ق ١ ج ٣ ص ١٣٩ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ق ١ ج ٣ ص ١٣٩ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ج ١ ص ٣٢٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٢٩١ ، ابن الجزري : غاية النهاية ج ١ ص ٥٥٧ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ١ ص ٤١٧ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢١٩ .

(٤) ابن الجزري : غاية النهاية ج ١ ص ٥٥٦ .

(٥) ابن الجزري : غاية النهاية ج ١ ص ٥٥٧ الداودى (شمس الدين محمد بن علي ابن أحمد المتوفى سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م : طبقات المفسرين ج ١ ص ٤١٧ تحقيق علي محمد عمر مكتبة وهبة القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

(٦) ابن الجزري : غاية النهاية ج ١ ص ٥٥٧ ، الداودى : طبقات المفسرن ج ١ ص ٤١٧ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢١٩ .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٨٤ ، دار الفكر العربي القاهرة ١٩٣٣م .

" ما رأت عيناي مثله ، ما كان أحد يقدر أن يتكلم معه لغزارة علمه وبلاغته، وحسن إيراده وقوة حجته " (١) . وله من المؤلفات " كتاب الفنون " الذي بلغ أربعمائة وسبعين مجلدا (٢) وهو وإن كان مبالغ في عدد مجلداته إلا أنه يدل على سعة علمه وتبحره في ميادين العلوم والمعرفة .

وابن سكرة السرقسطى (٣) المتوفى سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م (٤) :

الحسين بن محمد بن فِيُّره بن حيُّون أبو علي الصدفي المعروف بابن سكرة السرقسطى (٥) ولد سنة إثنين وخمسين وأربعمائة بسرقسطة وقرأ بها القراءات على أبى الحسن بن محمد صاحب أبى عمرو الداني وقرأ على غيره وسمع من خلائق من الأئمة يطول ذكرهم (٦) ، ورجال في الأندلس ، وسمع ببلنسية وبالمرية وبالمهدية ، ودخل مصر والإسكندرية وسمع بهما وبتنيس وحج وسمع بمكة وبالبصرة وبواسط ودخل بغداد وأقام بها خمس سنين (٧) ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أنه رحل كثيرا في البلدان الإسلامية، وحصّل الكتب والفوائد وأخذ الناس عنه علما كثيرا (٨) ، وكان حافظا لمصنفات الحديث قائما عليها ذاكرا لمتونها وأسانيدها ورواتها (٩) ، وكان

---

(١) ابن الجزري: غاية النهاية ج١ص٥٥٧ الداودى: طبقات المفسرين ج١ص ٤١٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٢٩١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٨٤ ، ابن الجزري : غاية النهاية ج ١ ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ الداودى : طبقات المفسرين ج ١ ص ٤١٧ .

(٣) سرقسطة : بفتح أوله وثانيه ثم قاف مضمومة وسين مهملة ساكنة وطاء بلدة مشهورة بالأندلس . ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٢١٢ .

(٤) ابن بشكوال : كتاب الصلة ج ٣ ص ١٤٦ ، الصفدى : الوافي بالوفيات ج ١٣ ص ٤٤ ابن فرحون : الديباج المذهب ج ١ ص ٣٣٢ .

(٥) الصفدى: الوافي بالوفيات ج ١٣ص٤٣، ابن فرحون الديباج المذهب ج١ ص ٣٣٠ .

(٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ج ١ ص ٣٣٠ ، ٣٣٢ .

(٧) الصفدى : الوافي بالوفيات ج ١٣ ص ٤٣ .

(٨) ابن فرحون : الديباج المذهب ج ١ ص ٣٣١ .

(٩) ابن بشكوال : كتاب الصلة ج ٣ ص ١٤٥ .

موصوفا بالعلم والدين والعفة والصدق ولأجل ذلك قُلد القضاء بطلب أهل مرسية فأجاد السيرة وأقام الحق [١] ، والتقى مع أبى بكر الطرطوشى بمكة[٢]، وسمع منه القاضي أبو الفضل عياض وأعتمد عليه وأجاز لأبي الطاهر السلفي [٣] وقام بالتدريس بمدرسة مرسية بعد عودته إلى بلاد الأندلس التي استقر بها حتي استشهد في وقعة قتندة بثغر الأندلس يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول سنة أربع عشرة وخمسمائة وكان عمره يبلغ الستين عاما [٤].

وأبو علي المالقى المتوفى سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م :

الحسن بن ابراهيم بن محمد بن مُفرِّج بن الغيث أبو علي الجذامى المالقى [٥] ولد سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م [٦] ، وخرج من بلاده وسمع بالإسكندرية من أبى الحسن علي الأنماطى وغيره ، وسافر بعد ذلك إلى بعض البلدان في المشرق الإسلامي فورد مكة والعراق وخراسان ونيسابور التي أقام بها إلى أن توفى ، وهو بلا شك قد استفاد من هذه الرحلة الواسعة التي أكسبته شهرة علمية فكان : " حافظا للحديث قيِّما باللغة والنحو محققا لما يقوله ضابطا صدوقا ورعا ديِّنا وقورا ساكنا على قانون السلف توفى سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م [٧] .

---

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب ج ١ ص ٣٣١ .
(٢) ابن بشكوال : كتاب الصلة ج ٣ ص ١٤٤ .
(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ج ١ ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .
(٤) ابن بشكوال : كتاب الصلة ج ٣ ص ١٤٤ ، الصفدى : الوافي بالوفيات ج ١٣ ص ٤٣ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ج ١ ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .
(٥) الصفدى : الوافي بالوفيات ج ١١ ص ٣٧١ ، السيوطى : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ج ١ ص ٤٩٤
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم عيسي الحلبي القاهرة الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .
(٦) السيوطى : بغية الوعاة ج ١ ص ٤٩٤ .
(٧) الصفدى : الوافي بالوفيات ج ١١ ص ٣٧١ ، السيوطى : بغية الوعاة ج ١ ص ٤٩٤ .

وابن الخلوف الغرناطى المتوفى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م [١] :

يحيى بن خلف بن نفيس أبو بكر المعروف بابن الخلوف الغرناطى ، ولد سنة ست وستين وأربعمائة وعنى بالقراءات حتى برع فيها [٢] ، وكان من العلماء الذين رحلوا إلى بعض البلدان الإسلامية والتقوا بعلمائها وأخذوا عنهم علومهم ومعارفهم ، وكان له نصيب في الرحلة إلى الإسكندرية حيث لقى بها إبراهيم بن علي نزيل الإسكندرية صاحب الداني فقرأ عليه وتصدر للإقراء بجامع غرناطة ، وشاع ذكره ، وكان رأسا في القراءات عارفا بالتفسير كثير التفنن ذا جلالة ووقار حتى وصف بأنه إمام حازق أستاذ [٣] .

وابن العربي المعافري المتوفى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م [٤] :

أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعروف بابن العربي المعافري الأندلسى الإشبيلى الحافظ المشهور [٥] ، ولد سنة ثمان وستين وأربعمائة [٦] يقول ابن بشكوال [٧] : " قرأت عليه وسمعت بإشبيلية وقرطبة كثيرا من روايته وتواليفه وسألته عن مولده فقال لي : ولدت ليلة الخميس لثمان باقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة " وتربى في بيت علم فأبوه من فقهاء إشبيلية ورؤسائها [٨] ولقد رحل مع أبيه

---

(١) ابن الجزري : غاية النهاية ج ٢ ص ٣٦٩ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٢) ابن الجزري : غاية النهاية ج ٢ ص ٣٦٩ .

(٣) ابن الجزري : غاية النهاية ج ٢ ص ٣٦٩ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ج ٩ ص ٥٩١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٢٤ ، الصفدى : الوافي بالوفيات ج ٣ ص ٣٣٠.

(٥)ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٢٣ ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ص ٢٥٢ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ١٦٢ .

(٦) الصفدى : الوافي بالوفيات ج ٣ ص ٣٣٠ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ص ٢٥٦ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص١٦٢ .

(٧) الصلة : ج ٩ ص ٥٩١ .

(٨) الداودى : طبقات المفسرين ح ٢ ص ١٦٣ .

إلى المشرق يقول ابن بشكوال [١] : " لقيته بمدينة إشبيلية حرسها الله صبيحة يوم الإثنين لليلتين خلتا من جمادى الآخرة من سنة ست عشرة وخمسمائة فأخبرني رحمه الله أنه رحل مع أبيه إلى المشرق يوم الأحد مستهل ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وأربعمائة " ولقد تنقل ابن العربي مع أبيه في رحلاته إلى المشرق ولقي بمصر والإسكندرية جماعة من المحدثين فكتب عنهم واستفاد منهم وأفاد ثم عاد إلى الأندلس وقدم بلده إشبيلية بعلم كثير لم يُدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق [٢] الزاخر بالحركة والحياة في شتى ميادين العلوم والفنون فاستحق أن يوصف بالإمام العلامة الحافظ المتبحر ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها [٣] وكان لإقامته بالإسكندرية عند أبي بكر الطرطوشي أثر كبير في تأثره بشيوخه الذين تتلمذ على أيديهم وأخذ عنهم ونقل علومهم ومعارفهم إلى بلاد الأندلس بعد رحيل والده الذي توفى بمدينة الإسكندرية سنة ثلاث وتسعين وأقام هو بعد ذلك ما يقرب من عامين حيث غادر الإسكندرية سنة خمس وتسعين وأربعمائة [٤] حاملا إلى بلاده من ذخائر الشرق الإسلامي فاستحق أن يثني عليه البعض ويصفه بأنه كان : " من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها متقدما في المعارف كلها ، متكلما في أنواعها نافذا في جميعها ، حريصا على أدائها ونشرها ، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة

---

(١) الصلة : ح ٩ ص ٥٩٠ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ح ٩ ص ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ح ٣ ص ٤٢٣ ، ابن العماد : شذرات الذهب ح ٤ ص ١٤١ .

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ح ٢ ص ٢٥٢ ، الداودى : طبقات المفسرين : ح ٢ ص ١٦٣ ، ابن العماد : شذرات الذهب ح ٤ ص ١٤١ .

(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ح ٢ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، المقرى (أحمد بن محمد التلمسانى المتوفى سنة ١٠٤١هـ / ١٦٣١م) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ح ٢ ص ٢٣٦ تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد.

ولين الكنف وكثرة الاحتمال وكرم النفس وحسن العهد وثبات الوعد [١] ، وصاحبت هذه الصفات ابن العربي وظهرت آثارها في أهل الأندلس الذين أحبوه ونعموا بعدالته عندما استقضى ببلد ، لأنه كانت له رهبة على الخصوم وثورة على الظلمة [٢] ولقد توفى ابن العربي تاركا لنا العديد من المصنفات المختلفة التي منها " أحكام القرآن " وكتاب " المسالك في شرح موطأ مالك " وكتاب " القبس " على موطأ مالك وغيرها من الكتب التي تركها وانتفع بها الناس جيلا بعد جيل [٣] .

والقاضي عياض ٥٤٤هـ / ١١٤٩م [٤] :

أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي القاضي ، ولد في منتصف شعبان سنة ست وسبعين وأربعمائة [٥] بمدينة " سبته " [٦] قال ولده محمد : " كان أجدادنا في القديم بالأندلس ثم انتقلوا إلى مدينة فاس ، وكان لهم إستقرار بالقيروان لا أدري قبل حلولهم بالأندلس أو بعد ذلك ، وانتقل عمرو إلى سبتة بعد سكنى فاس " [٧] وكعادة غالبية طلاب العلم في

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ج ٩ ص ٥٩١ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ص ٢٥٤ الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ١٦٤ ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) الصفدى : الوافي بالوفيات ج ٣ ص ٣٣٠ .

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ص ٢٥٤ الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ج ٧ ص ٤٥٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٥ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ص ٥١ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٨٥ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ٢٢ .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ج ٧ ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٥ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٨٥ .

(٦) وهي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى علي البحر وهي تقابل جزيرة الأندلس . ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٧) ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ص ٤٦ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٨٥ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ١٩ .

تلك الفترة انتقل القاضي عياض لبعض البلدان الإسلامية لتلقى العلم عن الشيوخ فرحل إلى الأندلس سنة سبع وخمسمائة طالبا للعلم فأخذ بقرطبة ، وأجاز له بعض شيوخها ثم أخذ بالمشرق وعنى بلقاء شيوخه والأخذ عنهم فأجاز له بالإسكندرية الشيخ أبو بكر الطرطوشي وأبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي وغيرهما من العلماء الذين سمع منهم وأخذ عنهم حتى قيل أنه: " اجتمع له من الشيوخ بين من سمع منه وبين من أجاز له مائة شيخ " (١) وذلك بما عكف عليه من دراسة الحديث والعناية به كثيرا والاهتمام بجمعه وتقييده (٢) ، حتى صار : " إمام وقته في الحديث وعلومه عالما بالتفسير وجميع علومه فقيها أصوليا عالما بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم بصيرا بالأحكام عاقدًا للشروط حافظا لمذهب مالك .... " (٣) وظل القاضي عياض يتنقل في البلدان الإسلامية للتفقه والأخذ والسماع على الشيوخ، واحتل مكانة كريمة طيبة بين أهله حتى أنهم أجلسوه للمناظرة عليه في " المدونة " وهو ابن ثلاثين سنة أو يزيد عنها ثم أجلسوه للشورى ثم ولي قضاء سبته مدة طويلة حُمدت فيها سيرته(٤) ، ولما ظهر أمر "الموحدين"(٥)

---

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ص٤٧ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ١٩ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ج ٧ ص ٤٥٣ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٥ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ص٤٧ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ١٩ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ج ٧ ص ٤٥٣ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ص ٤٨ .

(٥) قامت دولة الموحدين في المغرب سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م واعتلى حكمها أربعة من قادة الموحدين الكبار كان أولهم عبد المؤمن بن علي الذي بويع في شعر رمضان سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩م وظل في الحكم حتى سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م ثم اعتلاها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م حتى سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م ثم كان ثالثهم يعقوب المنصور ولد أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن والذي استمر في الحكم من سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م إلى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ثم إعتلاها رابعهم وآخرهم =

بادرا إلى السابقة بالدخول في طاعتهم ، ورحل إلى لقاء أميرهم بمدينة سلا فأجزل صلته وأوجب بره إلى أن اضطربت أمور الموحدين عام ثلاث وأربعين وخمسمائة فتلاشت حاله ولحق بمراكش مُشرّدا به عن وطنه فكانت بها وفاته بعد أن ترك لنا ذخيرة من النفائس والكتب المفيدة التي ألفها ومنها:" إكمال المعلم في شرح مسلم " ومنها كتاب " مشارق الأنوار " في تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم وكتاب " ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك " رحمه الله وغير ذلك من الكتب التي ألفها [١] .

ويحيى بن سعدون المتوفى سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م [٢] :

أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدى القرطبى ، وولد سنة ست وثمانين وأربعمائة بقرطبة [٣] ، وتنقل فيه كثير من البلدان

=وهو الناصر لدين الله وذلك في سنة ٥٩٥هـ ١١٩٨م ، وفي عهده وقعت عدة حوادث كان أخرها (موقعة العقاب) والتي حلت بهم فيها هزيمة شديدة كان لها أثرها في تقريب نهاية الحكم الموحدى في المغرب والأندلس ثم مات الناصر لدين الله حزنا على ما لحق به من هزيمة متكرة في " موقعة العقاب " وولي بعده أحد أبناءه الصغار وهو الأمر الذي حرص عليه الوزراء لتحقيق أغراضهم وإشباع أهوائهم ولم يخلص العرش الموحدى لأحد من بنى عبد المؤمن دون قيام الفتن والاضطرابات وانتشار الفوضى وظل الحال على ذلك حتى زالت الدولة الموحدية سنة ٦٦٧هـ / ١٢٥٦٩م بالمغرب وحلت محلها الدولة المرينية عن الدولة الموحدية ببلاد المغرب والأندلس أنظر : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي للدكتور / حسن إبراهيم حسن ج ٤ ص ٢١٩ ، ص ٢٣٠ النهضة المصرية القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٢م .

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ص ٤٨ ، ٤٩ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٨٦ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ٢٠ ، ٢١ ٢٢١ .

(٢) .ياقوت : معجم الأدباء ج ٢٠ ص ١٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٢١ الذهب: معرفة القراء ج ٢ ص ٤٢٠ ، المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٣١٩ .

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ج ٢٠ ص ١٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥=

الإسلامية لأخذ العلم عن بعض الشيوخ فخرج من الأندلس في عنفوان شبابه وقدم ديار مصر وسمع بالإسكندرية أبا عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي [١] وأبا الطاهر أحمد بن محمد السلفي [٢] وأبا بكر الطرطوشي[٣]، وقرأ بها القراءات على ابن الفحام [٤] ، وكان يحي بن سعدون ثقة صادوقا ثبتا دينا كثير الخير مفيدا [٥] ، يذكر ابن خلكان [٦] وغيره فيقولا : " وكان

=ص ٢٢٠ ، ابن الجزري : غاية النهاية ج ٢ ص ٣٧٢ ، واختلف المؤرخون في تاريخ ولادته فزكريا قوت وابن خلكان وابن الجزري مؤلفاتهم سابقة الذكر أنه ولد سنة ست وثمانين وأربعمائة بينما ذكر الذهبي في كتابة كعرفة القراء ج ٢ ص ٤٢٩ ، أنه ولد سنة ثمان وأربعمائة فا لآراء التي أرخت ولادته في سنة ست وثمانين وأربعمائة هي الصحيحة لأسباب :

الأول : اتفاق أغلبهم على هذا التاريخ .

ثانيا : ذكره الحافظ السمعاني في كتاب " الذيل " وقال : " أنه اجتمع به في دمشق وسمع منه مشيخة ابن عبد الله الرازي وانتخب عليه أجزاء وسأله عن مولده : ولدت في سنة ست وثمانين وأربعمائة بمدينة قرطبة " الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ٣٦٩ .

ثالثا : تصحيح ابن خلكان لمولده سنة ست وثمانين وأربعمائة وذلك عندما قال: " ورأيت في بعض الكتب أن مولده سنة سبع وثمانين والأول أصح " وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٢٠ .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢١٩ ، المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٣١٨ .

(٢) ياقوت: معجم الأدباء ج٢٠ص ١٥، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ص ٢١٩، الداودى: طبقات المفسرين ح٢ص٣٦٩، المقرى: نفح الطيب ح ٢ ص ٣١٨ .

(٣) الذهبي : معرفة القراء ج ٢ ص ٤٢٩ .

(٤) الذهبي : معرفة القراء ج ٢ ص ٤٢٩ ، ابن الجزري غاية النهاية ج ٢ ص ٣٧٢ .

(٥) ياقوت : معجم الأدباء ج ٢٠ ص ١٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٢٠ ، الذهبي : معرفة القراء ج ٢ ص ٤٣٠ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٢٠ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ٣٦٩ ، المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٣١٨.

شيخنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد قاضي حلب ــ رحمه الله تعالى ــ يفتخر برؤيته وقراءته عليه " وقال أيضا : " كما نقرأ عليه بالموصل وتأخذ عنه " وكانت رحلاته العلمية التي تنقل فيها إلى كثير من بلدان الشرق والغرب الإسلامي لها أثر كبير في تنشأته وتكوينه وحسن خلقه وتواضعه [١] ، فاستحق ان يوصف بأنه كان : " أحد الأئمة المتأخرين في القراءات وعلوم القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة وغير ذلك " [٢] ولشدة احتياج تلاميذه إليه ظل يُدرِّس لهم حتى أخر لحظة في حياته يقول ابن خلكان [٣] : " إن شيخنا القاضي بها الديني أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد قاضي حلب ذكر في كتابه الذي سماه " دلائل الأحكام " أنه لازم القراءة عليه إحدى عشرة سنة أخرها سنة سبع وستين وخمسمائة " .

وابن حزم الغافقي المتوفى سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م [٤] :

أبو يحي اليسع بن عيسي بن حزم بن عبد الله بن اليسع الغافقي الأندلس الجياني [٥] ، أخذ القراءات من أبيه الذي كان من جلة المقرئين[٦].

رحل من الأندلس إلى الإسكندرية وأقرأ بها ، وكان سنيا وهذا ما جعله يرحل إلى الإسكندرية بل ويسكنها وذلك لأن غالبية أهل الإسكندرية كانوا سنيين وظهر ذلك واضحا عندما انتقل من الإسكندرية إلى العاصمة (مصر) كان أول من خطب بمصر لبنى العباس قال ابن الجزري [٧] : " هو

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ج ٢٠ ص ١٥ ، نفح الطيب ج ٢ ص ٣١٨ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢١٩ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ٣٦٩ .
(٣) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٢٠ المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٣١٨ ، ٣١٩ .
(٤) الذهبي : معرفة القراء ج ٢ ص ٤٣٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٩٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ض ٢٥٠ .
(٥) ابن الجزري وغاية النهاية ج٢ ص ٣٨٥ .
(٦) الذهبي : معرفة القراء ج ٢ ص ٤٣٦ ، ابن الجزري : غاية النهاية ج ٢ ص ٣٨٥ .
(٧) غاية النهاية ج ٢ ص ٣٨٥ .

أول من تجاسر وخطب على منابر العبيديين بالدعوة العباسية ولم يجسر على ذلك أحد سواه .... " وكان ابن حزم فقيها مشاورا مقرئا محدثا حافظا نَسَّابة من أبدع الناس خطا [١] ، وله تاريخ في محاسن العرب سماه " المغرب على أخبار المغرب " هو منتهم في تأليفه [٢] ، قال ابن الجزري [٣]: " رأيت التاريخ المذكور وفيه أوهام ولم يكن بكثير على مثل هذا الرجل ولا يُظن بمثله ذلك " .

والحسين بن رواحة المتوفى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م :

أبو علي الأنصاري الحسين بن عبد الله بن رواحة بن إبراهيم بن عبدالله بن رواحة الحموي [٤] ، نشأ وتعلم في أسرة علمية فأبوه كان خطيبا لبلدة حماه [٥] ، التي ولد ونشأ بها هذا الفقيه ، ثم رحل إلى دمشق فأقام بها مدة واشتغل بالفقه ، وسمع الحديث من بعض علمائها كالحافظ بن عساكر ومن عمه وأخرين ، ورحل إلى مصر فسمع بها وبالإسكندرية من الحافظ السلفي، ثم عاد ثانية إلى دمشق فشهد واقعة عكا فقُتل فيها شهيدا سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م [٦] ، وهو بجانب ذلك كان أديبا وشاعرا مجيدا وله من قصيدة مهنئا بها الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب بعيد النحر سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م وله أيضا بعض القصائد التي ذكرها واصفا فيها بعد البلدان التي زارها كدمشق والإسكندرية وبخاصة ما ارتبط منها بمواقع حربية كان النصر فيها للمسلمين [٧]

---

(١) الذهبي : معرفة القراء ج ٢ ص ٤٣٧ ، ابن الجزري : غاية النهاية ج ٢ ص ٣٨٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٥٠ .

(٢) الذهبي : معرفة القراء ج ٢ هامش ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ .

(٣) غاية النهاية ج ٢ ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٠ ص ٤٦ .

(٥) ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج ٢ ص ٧١٤ .

(٦) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٠ ص ٤٦ ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج ٢ ص ٧١٤ .

(٧) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٠ ص ٤٦ ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج ٢ ص ٧١٤ .

وربيعة بن الحسن المتوفى سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢م :

ربيعة بن الحسن بن علي بن عبد الله بن يحيي أبو نزار الحضرمي الضعاني الزماري الشافعي ،ولد سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م [١] ، ورحل إلى كثير من بلدان الشرق الإسلامي فتفقه باليمن وأصبهان وهمذان وبغداد ، ورحل إلى مصر والإسكندرية فأخذ عن أبى طاهر السلفي فأكسبته هذه الرحلات الكثيرة معرفة حسنة بالحديث وعلوم اللغة وأصبح من العلماء الذين كانت إليهم الرحلة فروى عنه بعض تلاميذه الذين وصفوه بالعلم والفضل وقال المنذري : " كتبت عنه قطعة صالحة وكانت أصوله أكثرها باليمن وهو أحد من لقيته ممن يفهم هذا الشأن وكان عارفا باللغة ، وقال عمر بن الحاجب : " كان ربيعة إماما عالما حافظا ثقة أديبا شاعرا حسن الخط ذا دين وورع توفى سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م [٢] .

ومن العلماء الذين رحلوا إلى الإسكندرية ودرسوا علي أيدي علمائهم وأخذوا عنهم الحافظ أحمد بن أبى محمد بن هارون بن أحمد أبو عمر بن عات النفزى ت ٦٠٩هـ / ١٢١٢م الذي رحل إلى المشرق فلقى بالإسكندرية أبا الطاهر السلفي وابن عوف الزهري وأخذ عنهما وأصبح " من أكابر المحدثين وجلة الحفاظ المسندين للحديث والأدب بلا مدافعة " [٣] ومنهم أيضا : الحافظ الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان التجيبى المرسى المتوفى سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣م فقد رحل إلى الشرق ودخل الإسكندرية ، وأخذ عن السلفي وأكثر عنه وعن غيره من العلماء ودعا له السلفي بطول العمر وقال له : " تكون محدث

---

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٣٩٣ .

(٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٣٩٣ ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج ٢ ص ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٠٧ .

(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ج ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

المغرب إن شاء الله " [١] ومنهم كذلك : أبو الخباب أحمد بن عمر بن محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٦١٨ ه / ١٢٢١ والذي طاف البلاد وقدم القاهرة ودخل الإسكندرية فأخذ عن الحافظ السلفي ويقال أنه : " بعد أن وصل الإسكندرية صنف تفسيرا في اثني عشر مجلدة " [٢] .

هؤلاء هم بعض العلماء الذين رحلوا من خارج القطر المصري إلى الإسكندرية وأخذوا عن علمائها الفضلاء وتناولتهم بالبحث والدراسة كنماذج فقط حتى تتضح الصورة التي كانت عليها الرحلات العلمية القادمة من خارج مصر إلى الإسكندرية خلال الفترة موضوع الدراسة وها نحن نكمل الحديث عن الرحلات الداخلية وذلك بذكر بعض العلماء المصريين الذين انتقلوا من العاصمة ــ مصر ــ إلى الإسكندرية ودرسوا على أيدي علمائها خلال عصر الدراسة فكان منهم .

٢ ــ الرحلة الداخلية :

القاسم بن فيُره المتوفى سنة ٥٩٠هــ [٣] / ١١٩٣م :

أبو محمد القاسم بن فيُره بن أبى القاسم خلف بن أحمد الرعينى الشاطبى الضرير المقرىء ، ولد في أخر سنة ٥٣٨هــ / ١١٤٣م وقرأ ببلده القراءات وأتقنها وارتحل ليَحج فسمع من أبى الطاهر السلفي وغيره بالإسكندرية ودخل مصر وأكرمه القاضي الفاضل وعرف مقداره وأنزله بمدرسته التي بناها داخل القاهرة وجعله شيخها وعظَّمه تعظيما كثيرا [٤] ،

---

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، الصفدى : الوافي بالوافيات ج ٣ ص ٢٣٤ ، ابن الجزري : غاية النهاية ج ٢ ص ١٦٤ .

(٢) الاسنوى : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ١ ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٣٥ ، الذهبي : معرفة القراء ج ٢ ص ٤٥٨ ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج ٢ ص ٧٢٢ ، ابن الجزري : غاية النهاية ج ٢ ص ٢٣ .

(٤) الذهبي : المعين في طبقات المحدثين ص ٢٥٨ ، ابن الجزري : غاية النهاية ج ١ ص ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ٣٩ .

ولبعد صيته فقد قصده طلاب العلم من مختلف الأقطار يتسابقون للقراءة عليه ، وكان القاسم بن فيُّره رأسا في القراءات والتفسير حافظا للحديث بصيرا بالعربية واللغة واسع العلم ، وكان إذا قعد لا يزيد على قوله من جاء أولا فليقرأ [(١)] ، نظم قصيدته التي سماها " حرز الأماني ووجه التهاني" في القراءات وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا ولقد أبدع فيها كل الإبداع يقول ابن خلكان [(٢)] : " وهي عمدة هذا الزمان " ولقد تنقل ابن فيُّره في بلاد الأندلس ومصر طيلة حياته التي عاشها وهي اثنين وخمسون سنة قضى منها ما يقرب من عشرين عاما تردد عليه خلالها طلاب العلم ورواده من كل قطر قال أبو عبد الله الآبار في تاريخه : " تصدر للإقراء بمصر فعظم شأنه وبعد صيته [(٣)] " وكان سنيا شافعيا صالحا صدوقا قال الذهبي : " وكان موصوفا بالزهد والعبادة والانقطاع " وكان يتجنب فضول الكلام لا ينطق في سائر أوقاته إلا بما تدعو إليه الضرورة ، ولا يجلس للإقراء إلا على طهارة وفي هيئة حسنة وتخشع واستكانة [(٤)] ، فكان يتصف ببعض الصفات التي ينبغي أن يتصف بها العلماء وهى عدم التطفل والفضولية في الحديث والطهارة قبل الجلوس في حلقات العلم والدرس وما ينبغي أن يكون عليه العالم من الوقار والخشوع حتى يكون قدوة ومثلا طيبا لتلاميذه من بعده، ولقد آتت هذه الكيفية ثمارها الطيبة فتأثر بمصنفاته الكثير من طلبة القراءات حتى قيل عنه : " وقد سارت الركبان بقصيدتيه حرز الأماني وعقيلة أتراب القصايد اللتين في القراءات والرسم وحفظهما خلق لا يحصون وخضع لهما

---

(١) ابن الجزري : غاية النهاية ج ٢ ص ٢١ ، السيوطى : بغية الوعاة ج ٢ ص ٢٦٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٩٧ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٣٤ يقصد زمن ابن خلكان .

(٣) الذهبي : معرفة القراء ج ٢ ص ٤٥٨ .

(٤) الذهب : معرفة القراء ج ٢ ص ٤٥٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٩٧ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ٤١ ، المقري : نفح الطيب ج ٢ ص ٢٣٢ .

فحول الشعراء وكبار البلغاء وحذاق القراء " [١] توفى بالقاهرة ودفن بالقرافة بمقبرة القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني وقبره مشهور بقول ابن الجزري [٢] : " وقد زرته مرات وعرض عليَّ بعض أصحابي الشاطبية عند قبره " .

وأبو الحسن المدْلجى المتوفى سنة ٥٩١هـ [٣] / ١١٩٤م :

شجاع بن محمد بن سيدهم بن عمر بن حديد بن عسكر الإمام أبو الحسن المُدْلجى المصري المقرىء المالكي ، ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، قرأ القراءات على ابن العباس ابن الحطية ، وسمع منه ومن غيره من المصريين ، ورحل إلى الإسكندرية فأخذ عن أبى الطاهر السلفي[٤]، وبعد أن درس القراءات وأخذ العربية عن مشايخه في مصر والإسكندرية ، وأصبح أستاذا تصدر للإقراء بجامع مصر وانتفع به وبعلمه كثير من تلامذته وطلابه [٥] .

وشيث بن إبراهيم القفطى المتوفى سنة ٥٩٨هـ [٦] / ١٢٠١م :

أبو الحسن شيث بن إبراهيم بن محمد بن حيدرة ضياء الدين بن الحاج

---

(١) الذهب : معرفة القراء ج ٢ ص ٤٥٧ ، المقري: نفح الطيب ج ٢ ص٢٣١ .
(٢) غاية النهاية ج ٢ ص ٢٣ .
(٣) الذهبي : معرفة القراء ج ٢ ص ٤٥٩ ، الصفدى : الوافي بالوفيات ج ١٦ ص ١١٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٩٨ .
(٤) الذهبي : معرفة القراء ج ٢ ص ٤٥٩ .
(٥) الذهبي : معرفة القراء ج ٢ ص ٤٥٩ ، الصفدى : الوافي بالوفيات ج ١٦ ص ١١٨ ، السيوطى :حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٩٧ ، ٤٩٨ .
(٦) ياقوت : معجم الأدباء ج ١١ ص ٢٨٠ ، الأدفوى (أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب المتوفى سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) : الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ص ٢٦٥ تحقيق سعد محمد حسن ، مراجعة د / طه الحاجرى الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م ، ابن فرحون : الديباج المذهب ج ١ ص ٤٠٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٥٤ .

القناوي من أهل قفط من صعيد مصر ، وأهله أهل قرآن وخير وصلاح وأصحاب سنة وجماعة ، وكان شيث فقيها على مذهب مالك بن أنس فتربى ونشأ في بيئة علمية [١] ، فكان من العلماء العاملين ، وكف بصره وعلت سنه وله بقفط حارة تعرف بحارة ابن الحاج وذكره ابن سعيد فقال : نقلت من خط بدر الدين بن أبى جرادة أن " شيث " رحل إلى شاور واشتغل بتعليم أولاده وأنشد له قوله :

هي الدنيا إذا أكتملت — وطاب نعيمها قتلت
فلا تفرح بلذاتها — فباللذات قد شغلت
وكن منها على حذر — وخف منها إذا اعتدلت
ولا يغررك زخرفها — فكم من نعمة سلبت[٢]

فيفهم من هذه الأبيات الشعرية التي تلاها ابن شيث لشاور أنه كان زاهد لم يتعلق بدنياه ، وكان يُحذّر غيره حتى من السلاطين والأمراء .

وكان شديد اللهجة في وعظهم وحثهم على عدم التعلق بالدنيا ومتاعها وعدم طول النعمة والمتعة في الحياة لأنها قليلة وبسيطة ومتاعها قليل ، ولد شيث بقفط سنة خمس عشرة وخمسمائة ثم انتقل بعد سنين إلى قنا [٣] ، وتنقل للرحلة العلمية التي أخذ فيها عن شيوخه من العلماء المصريين والسكندريين طيلة حياته التي استمرت ما يقرب من ثلاث وثمانين عاما سمع خلالها في الإسكندرية من الحافظ السلفي وأجاز له أبو الطاهر إسماعيل بن عوف [٤] ، ولقد أثني عليه بعض العلماء فقال الأدفوى [٥] : " كان قيِّما

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ج ١١ هامش ص ٢٧٧ .
(٢) الأدفورى : الطالع السعيد ص ٢٦٥ .
(٣) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٢٦٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٥٤ .
(٤) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٢٦٣ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ج ١ ص ٢٠٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٥٤.
(٥) الطالع السعيد ص ٢٦٣ .

بالعربية وله فيها تصانيف منها " المختصر " و " والمعتصر من المختصر " رأيته وعليه خطه " وقال ياقوت [١] : كان شيث بن إبراهيم : " أحد أكابر الأدباء المعاصرين برع في العربية واللغة وفنون الأدب وتقدم فيها " وأثني عليه كذلك ابن فرحون [٢] والسيوطى فقالا : " كان فقيها فاضلا نحويا بارعا وله في الفقه تعاليق ورسائل " .

ومن العلماء الذين كانت لهم رحلة إلى الإسكندرية فدرسوا بها على أيدي مشايخها بل ودرّسوا وحدّثوا : إسحاق السديد بن سماقة بن عمر الأسعودى المتوفى سنة ٦٠٢هـ / ١٢١٥م فقد كان عالما صالحا سمع الحديث ببغداد وحدّث بمصر والإسكندرية وغيرها ، وتولى قضاء دمياط وقضاء بلبيس [٣] ، ومنهم أيضا : عبد الله بن علي ابن الحسين بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن بن منصور الصاحب الكبير صفى الدين بن شكر المتوفى سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م بالقاهرة ، تفقه في مذهب مالك على الفقيه أبى بكر عتيق البجائى ، وبه تخرّج ، ودخل الإسكندرية وتفقه بها علي شمس الإسلام أبى القاسم مخلوف بن جبارة ، وسمع منه ومن السلفي وأبى الطاهر إسماعيل بن مكي بن عوف [٤] ، ومن العلماء المصريين الذين رحلوا إلى الإسكندرية يونس بن بدران بن فيروز بن صاعد بن غالى المتوفى سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م ولقد رحل إلى الإسكندرية وسمع السلفي وغيره [٥].

---

(١) معجم الأدباء ج ١١ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .
(٢) الديباج المذهب ج ١ ص ٤٠٢ ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٥٤ .
(٣) الاسنوى : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٦٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٠٩ .
(٤) الصفدى : الوافي بالوفيات ج ١٧ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ج ١ ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .
(٥) الاسنوى : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤١١ ، الداودى : طبقات المفسرين ج ٢ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

ومنهم كذلك صالح بن بدر بن عبد الله الزفتاوي المتوفى سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م بمنية زفتا من الوجه البحري من الديار المصرية دخل الثغر ـ الإسكندرية ـ وسمع من أبى الطاهر بن إسماعيل بن عوف وغيره[١] وهذا يعطينا دليلا قويا على أن العلماء المصريين سواء من العاصمة ـ مصر ـ أو من غيرها من الأقاليم الأخرى الذين رحلوا إلى الإسكندرية وأخذوا عن علمائها ومشايخها ، وأصبحوا بعد ذلك مشايخ وتولوا رئاسة الحلقات العلمية التي عقدوها لطلابهم على اختلاف ثقافاتهم ومشاربهم .

وسأتناول فيما يلي أهم العلوم التي أزدهرت في الإسكندرية وأشهر العلماء الذين نبغوا في هذه العلوم .

لقد ضربت مصر بسهم وافر علم القراءات وانفردت الإسكندرية بمكانة مرموقة فيه فكثر علماؤها وتعددت تصانيفهم ومؤلفاتهم في هذا العلم، ولم يقف جهدهم عند تلقى ما يلقيه إليهم علماء الأندلس وتلقينه بل كان لهم رأيهم الخاص وطابعهم المستقل وما تركه علماء الإسكندرية من تصانيف في هذا المجال يثبت لنا مدى الجهد العظيم الذي بذله العلماء في خدمة القرآن وعلومه فابن الفحام يضع كتابه " التجريد في بغية المريد " وهو من أشكل كتب القراءات [٢] وابن بليمة يضع كتابه " تلخيص العبارات بلطف الاشارات [٣] وأما عيسي بن عبد العزيز اللخمي فقد شرح كتاب " التيسير " لأبى عمرو الداني وسمي شرحه " تيسير التيسير " [٤] وله مصنفات في جزئيات دقيقة مثل " الزهدة اللائحة في كيفية قراءة الفاتحة " و " الاهتداء في

---

(١) الصفدى : الوافي بالوفيات ج ١٦ ص ٢٥١ ، الاسنوى : طبقات الشافعية ج ٢ ص ١١ ، ١٢ .

(٢) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ح ١ ص ٣٧٤ .

(٣) ابن الجزري : المصدر السابق ح ١ ص ٢١١ .

(٤) السيوطى : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ج ٢ ص ٢٣٦ .

الوقف والابتداء " [١] .

ومنذ القرن الأول للهجرة نزل الإسكندرية بعض كبار الصحابة والتابعين ومنهم تمامة الهمدانى المتوفى قبل العشرين ومائة [٢] وحمير بن مالك الكلامي الحميرى [٣] ولا شك أن أهل الإسكندرية أقبلوا على هؤلاء التابعين في شوق ولهفة يلتقطون ما يروونه من أحاديث يحفظونها وينقلونها بدورهم لذا أصبحت الإسكندرية بحق داراً للحديث النبوي الشريف ومركزاً هاماً من نشره وروايته لا في مصر وحدها بل في العالم الإسلامي كله واشتهر من رواة الحديث وحفاظه بالإسكندرية محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد أبو عبد الله الرازي المعروف بابن الخطاب المتوفى سنة خمس وعشرين وخمسمائة هجرية / ثلاثون ومائة وألف ميلادية [٤] ومنهم كذلك أبو محمد عبد الله العثماني الديباجي المعروف بابن أبى الياس فكان " واسع الباع في علم الحديث كثير الرواية قيما بالأدب متصرفا في النظم والنثر...".أوحد عصره في علم الشروط وقوله المقبول على كل العدول [٥] ومنهم أيضا أبو الحسن علي بن المفضل المالكي الإسكندراني كان فقيها فاضلا في مذهب مالك ومن أكابر الحفاظ المشاهير في الحديث وعلومه [٦] ومنهم كذلك الحافظ السلفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن سلفه الأصبهاني الجرواني الملقب بصدر الدين والمكني بأبى طاهر والمشهور باسم الحافظ السلفي توفى سنة ست وسبعين وخمسمائة للهجرة

---

(١) السيوطى : بغية الوعاة ح ٢ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ح ١ ص ٢٥٧ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ح ١ ص ٢٦٦ .

(٤) الذهبي : دول الإسلام ح ٢ ص ٣٣ ، الذهبي : المعين في طبقات المحدثين ص ٢٢٢ ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ح ١ ص ٣٠٧ .

(٥) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ح ١ ص ٢٧١ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ح ٢ ص ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ح ٤ ص ١٣٩٠ ، ١٣٩١ .

بالإسكندرية (١)

وفي الفقه اشتهر من العلماء السكندريين أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهرى المعروف بابن أبى دندقة والمشهور بالطرطوشى ولد بطرطوشة سنة احدى وأربعين وأربعمائة(٢) أخذ الطرطوشى عن علماء بلده من سرقسطة واشبيلية من أمثال أبى الوليد الباجى (٣) ثم قام بجولة واسعة لطلب العلم سنة ست وسبعين وأربعمائة للهجرة بدأها بالحج ثم رحل إلى بغداد والبصرة وأخذ عن علمائها من أمثال الشاشي والجرجانى والتسترى (٤) وانتهت رحلته أخيراً إلى الإسكندرية وعاش فيها مكرما من أهلها يقصده طلاب العلم وينتفعون به وتفقه عليه كثير من أهل الثغر وعرف بينهم بالزهد والورع (٥) ومن أهم مؤلفاته كتاب " سراج الملوك " توفى الطرطوشى ٥٢٠هـ ودفن في مقبرة وعلة داخل السور عند الباب الأخضر بالإسكندرية (٦) ومنهم كذلك أبو طاهر إسماعيل بن مكي بن اسماعيل بن عيسى بن عوف الزهري العوفي أحد تلاميذ الطرطوشى ولد سنة ٤٨٥هـ (٧) وهو أول أستاذ تولى تدريس الفقه المالكي في أقدم مدرسة أقيمت بمصر وهي المدرسة الحافظية التي

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ح ٩ ص ١٥٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ح ١ ص ٨٨ ، الذهبي : المعين في طبقات المحدثين ص ٢٥٢ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ح ٤ ص ١٣٠٣ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ح ٣ ص ٣٩٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب ح ٤ ص ٦٣ .

(٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك في معرفة أعيان علماء فذهب مالك ح ٤ ص ٨٠٤ ، الذهبي تذكرة الحفاظ ح ٣ ص ١١٧٩ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ح ١ ص ٣٧٩ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ح ٩ ص ٥٧٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ح ٣ ص ٣٩٣ .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ح ٩ ص ٥٧٥ ، المقري : نفح الطيب ح ٢ ص ٢٩٢ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ح ٣ ص ٣٩٥ .

(٧) ابن فرحون : الديباج المذهب ح ١ ص ٢٩٥ .

بناها له رضوان بن ولخشى سنة ٥٣٢هـ بالإسكندرية [١] ولقد عرفت الإسكندرية عدداً من العلماء الذين كانوا على درجة عالية من الزهد والتصوف نذكر منهم صاج بن عثمان البرقي وطوق بن يحيى الكتامي [٢] وأبو نصر النيسابورى الذي اشتهر بين الناس بالصلاح [٣] وقد حفلت الإسكندرية بحركة نحوية ولغوية واسعة فظهر فيها علماء في اللغة والنحو إلا أنهم لم يخرجوا عن دائرة شرح ما وضعه القدماء التوفيق بين آرائهم شأنهم في ذلك شأن علماء الأمصار الإسلامية الأخرى فاشتهر منهم عيسي بن عبد العزيز اللخمى [٤] والحسن بن جعفر [٥] وأبو الفضل جعفر ابن إسماعيل [٦] ونبغ في الإسكندرية كذلك عدد كبير من العلماء الذين درسوا في الدراسات الأدبية شعراً ونثراً نذكر منهم ظافر الحداد أبو منصور ظافر بن القاسم الحداد السكندري [٧] وابن قلاقس أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوى الأزهري السكندري الذي يلقب بالقاضي الأعز [٨] ومن الشعراء الطارئين نذكر منهم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت[٩] .

وفي الفلسفة والعلوم التطبيقية اشتهر بعض العلماء الذين اشتغلوا بالفلسفة أمثال محمود بن ناصر الملكيني [١٠] وفي مجال الطب نبغ في

---

(١) انظر : الفصل الخاص بالمدارس .
(٢) السفلي : معجم السفر الورقة ٨٧ .
(٣) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٦٧١ ، ٦٧٢ .
(٤) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ح ٦ ص ٢٧٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٩٩ .
(٥) السيوطى : بغية الوعاة ح ١ ص ٥٠١ .
(٦) السلفي : معجم السفر الورقة ١٩ .
(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ح ٢ ص ٢٢١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ح ٤ ص ٩١ .
(٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ح ٥ ص ٢٣ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٢٤ .
(٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٢ .
(١٠) السلفي : معجم السفر الورقة ٣٦٦ .

الإسكندرية أبو الفضل بن المبارك بن جعفر [١] وفي مجال الهندسة نبغ : أبو المكارم الحضرمي [٢] وكذلك مؤيد الدين المهندس " محمد بن عبد الكريم أبو الفضل الحارثي " [٣] أما أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ذلك الوافد على الإسكندرية فقد كان عالما نبغ في علوم كثيرة ومنها الطب الذي بلغ فيه مبلغا كبيرا وكان أوحد في العلم الرياضي متقنا لعلم الموسيقي [٤] .

الإجازة العلمية :

وكانت تصدر عن الشيخ بصفته الشخصية وليست شهادة من المعهد العلمي بأن الطالب أتم دراسته كما هو متبع اليوم . وكان يجيز الطالب أكثر من عالم أو مدرس وربما أجاز له كل شيخ في مادة يختارها ، وربما أجازه أكثر من شيخ في مادة واحدة أو كتاب ، والإجازة لم تكن لتدريس كل العلوم دائما بل كان الطالب يحصل على الإجازة في العلم الذي أتقنه على أستاذه ، ولم تكن المدة التي يقضيها طالب العلم بالمدرسة أو التي يقضيها في مصاحبة العلماء للأخذ عنهم محددة بل كان ذلك يرجع إلى مدى قدرة الطالب على استيعاب المادة العلمية التي يأخذها عن شيخة واتقانه لها واقتناع استاذه أنه أصبح أهلا لأن يجلس مجلس الأستاذ فما كان الشيخ لا يمنح الإجازة إلا لطالب العلم الذي واظب على أخذ العلم عنه وجهد في فهمه وتحصيله وبذل جهدا في الإلمام بأطرافه ومثابرته في سبيله ، أو يكون قد قرأ على شيخه كتباً معينة قراءة درس وفهم [٥] فقد كان الشيوخ يقدرون

---

(١) السلفي : معجم السفر الورقة ٣٨٤ .
(٢) السلفي : المصدر السابق الورقة ٤٤٣ .
(٣) الصفدى : الوافي بالوفيات ح ٣ ص ٢٨٠ ، أحمد تيمور باشا : المهندسون في العصر الإسلامي ص ٤١ ، ٤٢ دار نهضة مصر القاهرة .
(٤) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٥٠١ ، ٥٠٢ .
(٥) د / محمد محمد عبد القادر الخطيب : التعليم في مصر خلال عصر المماليك البحرية وأثر الأزهر فيهص ٦٦٢ ، ٦٦٣ رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية بالقاهرة .

الأمانة حق قدرها وذلك لم يمنحوا الإجازات إلا بعد خبرة وتجربة وروية وتؤدة في الغالب (١) وكان الطالب يجول بمختلف المدن لا داخل القطر المصري مثل قوص والإسكندرية والقاهرة فحسب بل في بقية الأقطار الإسلامية الأخرى أحيانا فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا أو التدريس أجاز له شيخه ذلك (٢) .

---

(١) د / محمد رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ح ٣ قسم أول ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى في صناعة الانشا ح ١٤ ص ٣٢٢ ، ٣٢٦ .

مكتبة الإسكندرية [١] :

أنشأ هذه المكتبة بطليموس سوتير عام ٥٢٥ ق . م وكانت تحتوى على كتب في الدراما ، وآلاف من المجلدات في التاريخ ، والعلوم ، والآداب، والفلسفة الإغريقية والمصرية والرومانية .[٢]

وقد وصلت هذه المؤلفات إلى حال يرثى له ، ويعد إختفاء هذه الثروة مأساة من أكبر المآس في تاريخ الإنسانية [٣] .

وقد ابتدع بعض المؤرخين روايات أريد بها رمي الإسلام والمسلمين، نسبوا فيها إحراق هذه المكتبة إلى عمرو بن العاص بناءا على أمر الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ .

ومن الإنصاف والعدل أن نذكر الروايات التي وردت في هذه القضية بالترتيب .

١ ــ قال ابن النديم " كان يحي النحوي أسقفا في بعض الكنائس بمصر ، ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية في التثليث ، ثم رجع عما يعتقد النصارى ، فاجتمعت الأساقفة وناظرته فغلبهم ، فأسقطته وسألته الرجوع عما هو عليه ، وترك إظهاره فأقام على ما هو عليه وأبى أن يرجع فأسقطوه، وعاش إلى أن فتحت الإسكندرية على يد عمرو بن العاص فدخل إليه وأكرمه ، ورأى له موضعا .[٤]

---

(١) إعداد : د/ ط عبد العزيز الخطيب ..

(٢) ليسلر جاك : الحضارة العربية ص ١٠١ ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة، ترجمة أحمد فؤاد عبدون ، مراجعة د / أحمد فؤاد الأهوانى .

(٣) نفس المصدر ص ١٠١ .

(٤) ابن النديم ــ محمد ابن اسحق ت ٣٨٠هــ ، الفهرست ج ١ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، تحقيق د / محمد عونى عبد الرؤوف ، وإيمان السعيد جلال ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر القاهرة ٢٠٠٦م .

٢ ــ وقال البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩هــ / ١٢٣١م عند ذكره عمود السوارى " وعمود السوارى كان من جملة أعمدة تحمل رواق ارسطاطا ليس الذي كان يدرس به الحكمه ، وأنه كان دار علم وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص بإشارة من عمر بن الخطاب ﷺ " . [١]

٣ ــ أما ابن القفطي ت ٦٤٦هــ / ١٢٤٨م فقد ذكر ما قاله ابن النديم وزاد عليه " فكان لا يفارقه ثم قال له يحي يوما أنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها ، فأما مالك به إنتفاع فلا أعارضك فيه ، وأما ما لا نفع لكم به فنحن أولى به ، فأمر بالأفراج عنه فقال له عمرو " وما الذي تحتاج إليه " قال كتب الحكمة في الخزائن الملوكية... فقال له عمرو " لا يمكننى أن أمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب " وكتب إلى الخليفة عمر وعرفه قول يحي ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : " وأما الكتب التي ذكرتها ، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ، ففي كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها " . فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية ، وأحرقها في مواقدها ، فاستنفذت في ستة أشهر ، فاسمع ما جرى واعجب [٢] .

٤ ــ وذكر ابن العبرى ت ٦٨٥هــ / ١٢٨٦م نفس النص الذي ذكره ابن النديم[٣] .

٥ ــ وأما المقريزى ت ٨٤٥هــ / ١٤٤١م فإنه ذكر ما قاله البغدادي عند ذكره عمود السوارى [٤] .

---

(١) البغدادي ــ عبد اللطيف ت ٦٢٩هــ ، الافادة والإعتبار في ذكر الأمور المشاهدة بأرض مصر نسخة مصورة من مكتبة كلية الآداب ج القاهرة .
(٢) القفطى : جمال الدين أبى الحسن على ، اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، مطبعة السعادة ــ مصر ١٣٢٦م .
(٣) ابن العبري مصدر سبق ص ١٠٢ .
(٤) المقريزى مصدر سبق ج ١ ص ١٥٩ .

ويمكن تقسيم ما جاء في الروايات السابقة إلى ثلاث أقسام :

الأول : ما ذكره ابن النديم ، ونقله ابن العبرى [١] ، والذي جاء فيه أن يحي النحوى كان موجودا أثناء الفتح الإسلامي .

ويقول آخرون أن يحي النحوي توفى قبل فتح الإسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة [٢] .ولكن د "كارل بكر" يقول "وانا لنعرف أن هذا العالم المولود بمدينة قيسارية قد مات قبل الغزو العربي بعمرو بن العاص بمئة عام . [٣]

فإذا كان يحي النحوي موجودا زمن الفتح أو مات قبله فإن النص الذي ذكره ابن النديم ، وابن العبري ليس فيه شبهة ، وإنما يدل على أن عمرو كان محبا للعلم والعلماء وهو ما يثبته الواقع .

الثاني : ما ذكره البغدادي ، ونقله المقريزى ، فهذا لا يدل على صحته لأن البغدادي كان رحالة يستطلع آثار البلاد ويسجل ما رآه ، ويمكن أن يكون قد سمعه من العوام أو أحد المغرضين الذين يريدون الطعن في الإسلام .

الثالث : نجد أن القفطى ذكر ما قاله ابن النديم وزاد عليه الرواية التي لا يعقلها عاقل .

---

(١) ينسب بعض المؤرخين ما ذكره القفطى إلى ابن العبري فيقول جيبون " أن نشر كتاب أبى الفرج في الترجمة اللاتينية أتاح لهذه القصة أن تذيع ، بحيث كل دارس وعالم يجله من مراسم التقوى أن يلعن العرب بسبب هذه الجريمة الكبرى في حق الثقافة والحضارة والتشهير بعمرو وبالعرب " ونتساءل لماذا لم ينقل هذا الحادث في النسخة العربي ، كما أننا نجد من سبقه في ذكرها باكثر من نصف قرن . لوقا : نظمي دكتور ، عمرو بن العاص ص ١٤٨ ، ١٥١ ، مكتبة غريب ـ القاهرة .

(٢) حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام السياسي ح ٢ ص ١٩٧ .

(٣) كارل هنري بكر : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ص ٥٠ ، دراسة لكبار المستشرقين ط ٣ ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ـ دار النهضة العربية ١٩٦٥م .

وعلى أية حال فإن صح ما قاله البغدادي والقفطي لذكره ابن النديم لأنه أقرب للفتح ، وقبلهم بثلاثة قرون فروايته تميل إلى الصدق ، كما أنهم بعد الفتح بحوالي ستة قرون ، وهذا أدعى إلى الشك والريبة فيما ذكروه ـــ كما أنه لم يؤيد هذه الروايات أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامي مثل أوتيخا الذي وصف فتح مصر بأسهاب ولم يرد في تاريخه ولا في تاريخ غيره من المعاصرين [١] .

كذلك لم ترد في تاريخ الأقدمين كاليعقوبي ، والبلاذري ، وابن الحكم، والطبري ، والقفطي ومؤيديه [٢] ، ثم إن هذه الرواية فيها من أساليب الخرافة ولا يمكن الأخذ بما جاء فيها للأسباب الآتية :

١ ـــ إن صح هذا الإتهام لأحرقها عمرو بن العاص بأيدي المسلمين ولم يتركها لأصحاب الحمامات وهم يهود ونصارى ، ويأمنهم عليها لمدة ستة أشهر ، أو أنه كان عليه أن يرسل من عنده من يشرف على حرقها حتى لا تتسرب إلى من يرغبها .

ويقول " بكر " ومما لا شك فيه أن معظم الكتب في القرن السابع الميلادي وقت الفتح كانت من الرق أي الجلد المعالج ضد الحريق .. وما كان أمر الخليفة عمر المزعوم بإطعام النار إياها ، وهي بطبيعتها ليست كذلك ! وناهيك بأن تظل وقودا لأربعة آلاف حمام مائة وثمانين يوما ! .

إلا أن إيراد القصة على هذه الصورة مضحك وحق لنا حين نسمعها نتردد في كل تلك السنين وأن نعجب لذلك . [٣]

٢ ـــ ومن الثابت أن مكتبة الإسكندرية تعرضت للحريق أكثر من مرة قبل الفتح العربي لمصر ، فالمرة الأولى كانت سنة ٤٨ ق . م على أثر إحراق اسطول يوليوس قيصر [٤] .

---

(١) حسن إبراهيم : مرجع سبق ح ١ ص ١٩٧ .
(٢) ليسلر : مرجع سبق ص ١٠١ .
(٣) نظمي لوقا : مرجع سبق ص ١٤٨ .
(٤) ليسلر : مرجع سبق ص ١٠١ .

ولكن كليوباطرة عوضت هذه الخسائر من مكتبة برجا مون [١] .

وفي القرن الثالث الميلادي بدأت تبرز التخريبات ضدها فأغلق أحد البطاركة مدرسة متحف الإسكندرية وطرد طلابها ، وفي أيام حكم القيصر فالنس ٣٣٦ م حول المتحف إلى كنيسة وسلبت مكتبته وطرد فلاسفته بتهمة السحر والشعوذة .

وفي عام ٣٨١م استصدر البطريرك تيوفليس من القيصر تيودوسيس إذنا بتخريب السرابيون أكبر ما تبقى من الأكاديميات واشعال النيران في مكتبته الثمينة [٢] .

ويجب أن نضيف أنه في مائتين وخمسين سنة (أي ما بين ٣٩٢ ـــ ٦٤٢ م) أمكن عدد من المؤلفات أن يختفى نتيجة الإهمال وعدم العناية [٣] .

وأن خمسة قرون مضت بين الحادث المفترض منه ٢٠هـــ / ٦٤١م والبيان الأول (٦٢٩هـــ ـــ ١٢٥٠م) الذي أصدره البغدادي ونسبه إلى عمرو بن العاص ، وما كان في الإسكندرية شيء يستحق التلف غير أسوارها ، وما كان عمرو بن العاص ليهدم هذه الأسوار إلا بعد أن رفع سكانها راية العصيان [٤] .

وقد زار المؤرخ الشهير أورازيوس الإسكندرية في أوائل القرن الخامس الميلادي . أي قبيل الفتح الإسلامي بأكثر من قرن ، فقال أنه وجد أرفف المكتبة خالية من الكتب [٥] .

---

(١) زيغرد هونكه : مرجع سبق ص ٣٦٢ .
(٢) نفس المرجع ص ٣٦٢ .
(٣) ليسلر : نفس المرجع ص ١٠١ .
(٤) سيدبو : تاريخ العرب العام ص ١٣٢ ، نقله إلى العربية / عادل زعير ، مطبعة عيسى البابي الحلبي .
(٥) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ح ١ ص ١٩٠ ، عبد الرحمن الرافعي ، سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في العصور الوسطى ص ٧٥ ـــ دار النهضة العربية .

٤ ـ ومنذ أن استولى الرومان على مصر سنة ٣٠ ق . م وجعلها أوغسطس قيصر مخزنا للحبوب تمد روما بما تحتاجه من الغلال ، وزادت الضرائب على كل شيء حتى الأشخاص وأثاث المنازل والأموات لا يدفنون إلا إذا دفعوا عنهم ضريبة ، وانحطت درجة العلم والمعرفة [١] .

٥ ـ وفي أيام دقلطيانوس ٥٩٥م ـ الذي أراد اعادة الوثنية وعبادة الأصنام ـ زاد القمع والإضطهاد وسارت حالة من التأخر في الزراعة والصناعة والعلوم والمعارف والاداب ، وسبب ذلك أن أهل الإسكندرية ومصر تمردوا على حكم الرومان ، ونشر مبادئه الجديدة التي ترمى إلى إعادة الوثنية ، فسار بنفسه وحاصر الإسكندرية ثمانية أشهر ، واستباح النصارى ، وأحرق كتبهم وعم أرض مصر كلها السبى والقتل ، وكانت أيامه شنيعة ، فقتل الكثير ، وهدم بيوت العباد ، وحرق الكنائس وعذب الرجال في جميع بلاد الإمبراطورية ، وكان يطلب من استقر منهم أو هرب وثبت على دين الإسلام (النصرانية) ومن الذين خرج في طلبهم أهل الكهف[٢] .

ولذلك إتخذ النصارى إبتداء ملكه تاريخا لهم في حساب السنة القبطية، وتاريخ النصارى في مصر يعرف بتاريخ الشهداء [٣] لكثرة من استشهدوا[٤].

---

(١) حسن إبراهيم : المصدر السابق ص ١٩١ .

(٢) القزوينى : زكريا محمد بن محمود ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م ، آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤٩٨ ، ٤٨٨ ـ دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م

(٣) وشهور السنة القبطية : هي : توت ، بابه ، هاتور ، كيهك ، طوبة ، أمشير ، برمهات ، برمودة ، بشنس ، بؤنه، أبيب ، مسرى ، والشهر ٣٠ يوم .
المقريزى : مصدر سبق ح ١ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٤) ابن العبري : مصدر سبق ص ٧٨ .

٦ ــ وفي أيام الإمبراطورية الرومانية الأخيرة " قبيل الفتح الإسلامي" لم يكن هناك أمل في إصلاح حال مصر ، فقد ذاق مسيحيو مصر أشد العذاب على يد بطرق الروم (المقوقس) لأنهم رفضوا التخلى عن عقيدتهم ، واعتناق عقيدة المذهب السائد في روما ، فكان الرهبان الأقباط يجلدون ويعذبون بسبب معارضتهم ، والقى البطريرق القبطي في البحر داخل زكيبة مثقلة بالأحجار (١) .

كل هذه الآلام والإضطهاد والعذاب أكثر من ستة قرون يمكن القول أنه لا وجود للمكتبة ، أو أن يهتم الناس لإعادتها إلى ما كانت عليه .

إذن فلا عجب إذا ناقش المؤرخون الأوربيون هذا الإتهام أمثال : " سيديو وليسلر ، وأنتونى تنج ، وبتلر " وغيرهم ، وأبدوا تشككهم فيما نسب إلى عمرو بن العاص .

وإذا كان المستشرقون أثبتوا بالدليل القاطع نفى هذا الإتهام ، فإن ما يدل على أن المسلمون لم يرتكبوا هذه الجريمة ، في حق البشرية وحق مصر وهو :

١ ــ إن تعاليم الإسلام ترمى إلى عدم التعرض لمعتقدات اليهود والنصارى وممتلكاتهم (٢) .

ونجد أن الخليفة عمر بن الخطاب عندما ذهب ليتسلم القدس من

---

(١) أنتونى تنج : العرب انتصارتهم وابحار الإسلام ص ٧٧ ، ترجمة راشد البراوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٤م .

(٢) جاء في تشريع أداب القتال الذي وضعه خليفة رسول الله أبو بكر الصديق ﷺ " لا تخونوا ولا تغدروا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا.... ولا تقطعوا شجرة ... وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا له ... إلى آخر الوصية " ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ت ٦٣٠هــ / ١٢٣٨م ، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٣٩ ، دار الكتابة العربي ــ بيروت ١٩٨٥م .

النصارى ، كتب لهم أمان على أنفسهم وأولادهم ، ونسائهم ، وأموالهم ، وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن وأنه جلس في صحن كنيسة القيامة ، فلما حان وقت الصلاة خرج وصلى خارج الكنيسة ، وقال للبطرك لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى .. وكتب كتابا يتضمن أنه لا يصلى أحد من المسلمين على الدرجة إلا واحد واحدا ولا يجتمع المسلمون فيها للصلاة ، وأشار عليه البطرق باتخاذ موضع الصخرة مسجد (فبنى مسجد عمر) [١] .

٢ ــ كما أن عمرو بن العاص بعد استيلائه على حصن بابليون كتب عهدا للقبط بحماية كنيستهم ، ولعن كل من يجرؤ من المسلمين على إخراجهم منها ، وكتب أمانا للبطريق بنيامين ، وأعاده إلى كرسيه ، بعد أن عزله الروم ثلاثة عشر عاما .

وأن الخطبة البليغة التي ألقاها باسيلى أسقف نقيوس بدير مقاريوس ، لخير شاهد على أن القبط أصبحوا بعد الفتح الإسلامي في غبطة وسرور لتخلصهم من عسف الروم : يدل ذلك رد بنيامين على باسيلى بقوله : " لقد وجدت في مدينة الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما بعد الإضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون " (الرومان) وبهذه الكلمات التي فاه بها البطريق يتجلى مبلغ الطمأنينة التي شعر بها المصريون في عهد عمرو بن العاص ﷺ .

٣ ــ ومما يدل على حسن سياسة العرب في مصر ، أنهم لم يفرقوا بين الملكانية واليعاقبة من المصريين ، الذين كانوا متساوين أمام القانون ، والذين أظلهم العرب بعد لهم يقول سيرتوماس أرنولد [٢] : " يرجع النجاح السريع الذي أحرزه العرب قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي

---

(١) المقريزى : مصدر سبق ج ٢ ص ٤٩٢ .

(٢) نولد توييي : الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٣ ، ترجمة د / حسن إبراهيم حسن.

المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي ، لما عرف به من الإدارة الظالمة ، وما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت : فإن اليعاقبة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكس التابعين للبلاط الروماني الذين القوا في قلوبهم بذور السخط والحنق اللذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم " .

٤ ـ وقد ترك العرب الأرض للمصريين ، وأخذوا على عاتقهم حمايتهم وأمنوهم على أنفسهم ونسائهم وعيالهم ، فشعروا براحة لم يعهدوها منذ زمن طويل .

٥ ـ ولم تقتصر أعمال العرب على ذلك بل إنهم قاموا بالاصلاحات ، فنظموا الإدارة ، ونصبوا القضاء ، وعنوا بهندسة الري ، وشق الترع وبناء مقاييس للنيل ، وإنشاء القناطر والجسور ، وكان من أثر هذه الإصلاحات أن تحسنت احوال القبط وزادت ثروتهم [١] (وينسب إليهم بعض المؤرخين خطأ أو عن سوء قصد إحراق مكتبة الإسكندرية) [٢] .

---

(١) المقريزى مصدر سبق ص

(٢) د / حسن إبراهيم حسن : مرجع سبق ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ .



فهرس المصادر والمراجع

أولاً ــ المصادر :

ــ ابن أبى أصيبعه : (موفق الدين أبو القاسم أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى ت ٦٦٨ هــ / ١٢٦٩ م)

١ ــ عيون الأبناء في طبقات الأطباء شرح وتحقيق د / نزار رضا ، مكتبة الحياة ــ بيروت ــ لبنان ١٩٦٥ م .

ــ ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى ت ٦٣٠ هــ / ١٢٣٢ م)

٢ ــ الكامل في التاريخ دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ لبنان ، الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هــ / ١٩٨٥ م .

ــ الأدفوى : (أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب ت ٧٤٨ هــ / ١٣٤٧ م)

٣ ــ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد تحقيق سعد محمد حسن ، مراجعة د / طه الحاجزى ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.

ــ الاسنوى : (جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن ت ٧٧٢هــ / ١٣٧٠م)

٤ ــ طبقات الشافعية تحقيق عبد الله الجبورى ، مطبعة الارشاد بغداد ، الطبعة الأولى ١٣٩١ هــ / ١٩٧١ م .

ــ ابن بشكوال : (أبو القاسم خلف بن عبد الملك ت ٥٧٨هــ / ١١٨٢م)

٥ ــ كتاب الصلة مطابع سجل العرب الدار المصرية للتأليف القاهرة ١٩٦٦م .

ــ ابن بطوطة : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى ت ٧٧٩ هــ / ١٣٧٧ م)

٦ ــ الرحلة صححه طلال حرب دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٤٠٧ هــ / ١٩٨٧ م .

ــ البغدادي : (عبد اللطيف موفق الدين عبد اللطيف ت ٦٢٩ هـــ / ١٢٣١م) .
٧ ــ الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر القاهرة ، مطبعة المجلة الجديدة .
ــ ابن تغرى بردى : (جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكى ت ٨٧٤هـــ / ١٤٦٩ م) .
٨ ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة دار الكتب المصرية .
ــ ابن جبير : (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكتانى الأندلسى البلنسى ت ٦١٤ هـــ / ١٢١٧ م)
٩ ــ الرحلة دار التحرير للطبع والنشر القاهرة ١٣٨٨ هـــ / ١٩٦٨ م .
ــ ابن الجزري : (شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد ت ٨٣٣ هـــ / ١٤٢٩ م) .
١٠ ــ غاية النهاية في طبقات القراء عنى بنشره برجستراسر دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ، الطبعة الأولى ١٣٥١ هـــ / ١٩٣٢ م .
ــ ابن الجوزى : (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ت ٥٩٧ هـــ / ١٢٠٠ م) .
١١ ــ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن الهند ١٣٥٨ هـــ .
ــ أبو الحسن الهروى : (أبو الحسن علي بن أبى بكر ت ٦١١ هـــ / ١٢١٤ م)
١٢ــ كتاب الاشارات إلى معرفة الزيارات نشر وتحقيق جانين سورديل ــ طومين ــ دمشق ١٩٥٣ م .
ــ أبو حيان التوحيدى : (علي بن محمد بن العباس ٣٨٠هـــ / ٩٩٠م)
١٣ ــ البصائر والذخائر تحقيق وتعليق د . ابراهيم الكيلانى ، مطبعة الانشا دمشق .

ـ ابن خلكان : (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكير ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م)

١٤ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .

ـ الداودى : (شمس الدين محمد بن علي بن أحمد ت ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م)

١٥ـ طبقات المفسرين تحقيق على محمد عمر ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

ـ الذهبي : (أبو عبد الله شمس الدين محمد ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨م)

١٦ـ تذكرة الحفاظ ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

١٧ـ دول الإسلام تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفي ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٤ م .

١٨ـ معرفة القراء على الطبقات والاعصار ، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى .

١٩ـ المعين في طبقات المحدثين ، تحقيق د / محمد زينهم محمد عزب، دار الصحوة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م .

ـ ابن ذولاق : (الحسن بن ابراهيم ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م)

٢٠ ـ أخبار سيبويه المصري ، نشر محمد ابراهيم سعيد وحسن الديب ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م .

ـ السلفي : (أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم سلفة الأبهاني ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م)

٢١ـ معجم السفر تحقيق عبد الله عمر البارودى ، دار الفكر ـ القاهرة ١٤١٤ هـ / ١٩٣٣ م .

ـ السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١ هـ /

١٥٠٥ م)

٢٢ــ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم عيسى الحلبي ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ١٣٨٤هــ/ ١٩٦٤م .

٢٣ــ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ــ دار إحياء الكتب العربية القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨٧هــ / ١٩٦٧ م .

ــ أبو شامه : (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسى ت ٦٦٥ هــ / ١٢٦٧ م .

٢٤ ــ الروضتين في أخبار الدولتين ، دار الجيل ــ بيروت .

ــ الشيرازى : (أبو اسحاق ابراهيم علي بن يوسف ٤٧٦ هــ / ١٠٨٣م)

٢٥ ــ طبقات الفقهاء المكتبة العربية ــ بغداد ١٣٥٦هــ .

ــ الصفدى : (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤ هــ / ١٣٦٢ م)

ــ الوافي بالوفيات .

٢٦ ــ ابن عبد الحكم : (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشى المصري ت ٢٥٧ هــ / ٨٧١ م) .

٢٧ ــ فتوح مصر وأخبارها ، مراجعة وتحقيق محمد صبيح مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر ــ القاهرة ١٩٧٤م .

ــ ابن العبري : (غريغوريوس أبو الفرج هارون الملطى ت ٦٨٥ هــ / ١٢٨٦ م) .

٢٨ــ تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ــ بيروت ١٨٩٠ م .

ــ ابن العماد الحنبلي : (أبو الفرج عبد الحي ت ١٠٨٩ هــ / ١٦٧٨م).

٢٩ ــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الفكر ــ القاهرة .

ــ ابن فرحون : (برهان الدين ابراهيم بن علي بن محمد بن محمد ت ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦م) .

٣٠ـــ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق وتعليق د / محمد الأحمدى أبو النور ، دار التراث ـــ القاهرة .

ــ القاضي عياض : (أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى ت ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م) .

٣١ـــ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق د / أحمد بكير محمود منشورات مكتبة الحياة ـــ بيروت ـــ لبنان .

ــ القاضي النعمان : (أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمى المغربي ت ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م) .

٣٢ـــ دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام ، تحقيق آصف بن علي أصفر فيض ، دار المعارف ـــ القاهرة ـــ الطبعة الثالثة ١٩٨٥م .

ــ القزوينى : (زكريا بن محمد بن محمود القزوينى ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) .

٣٣ ـــ آثار البلاد وأخبار العباد دار صادر ـــ بيروت ـــ للطباعة والنشر .

ــ القفطى : (جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف ت ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦م) .

٣٤ ـــ أخبار العلماء بأخبار الحكماء مكتبة المتبنى ـــ القاهرة .

ــ القلقشندى : (أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) .

٣٥ ـــ صبح الأعشى في صناعة الانشا ، الطبعة الأميرية القاهرة .

ــ ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر القرشى الدمشقى ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) .

٣٦ ـــ طبقات الفقهاء الشافعيين ، تحقيق وتعليق وتقديم د / أحمد عمر هاشم، د / محمد زينهم محمد عزب ، مكتبة الثقافة الدينية ـــ القاهرة .

ــ المقرى : (أحمد بن محمد التلمسانى ت ١٠٤١ هــ / ١٦٣١ م) .

٣٧ ــ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

ــ المقريزى : (تقى الدين أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٤٥ هــ / ١٤٤١ م) .

٣٨ ــ إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق د / جمال الدين الشيال ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ــ القاهرة ١٣٨٧هــ / ١٩٦٧ م .

٣٩ــ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، مكتبة الثقافة الدينية ــ القاهرة ــ الطبعة الثانية ١٩٤٦ م .

ــ ابن ميسر : (تاج الدين محمد بن علي بن حلب راغب ت ٦٧٧ هــ / ١٢٧٨م) .

٤٠ــ المنتقى من أخبار مصر تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ــ القاهرة .

ــ ابن النديم : (محمد بن اسحاق ت ٣٨٠ هــ) .

٤١ ــ الفهرست تحقيق د / محمد عونى عبد الرؤوف وإيمان السعيد جلال، الهيئة العامة لقصور الثقافة ــ القاهرة ٢٠٠٦ م .

ــ ابن هداية : (أبو بكر بن هداية الله الحسينى ت ١٠١٤ هــ) .

٤٢ ــ طبقات الشافعية ، مطبعة بغداد ١٣٥٦ هــ .

ــ ياقوت : (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٦هــ / ١٢٢٨ م) .

٤٣ ــ معجم الأدباء دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ لبنان .

٤٤ ــ معجم البلدان دار صادر بيروت ١٩٨٦ م .

ثانيا : المراجع العربية والمترجمة :

١ ــ د / محمد عطية الابراشى : التربية الإسلامية وفلاسفتها ، مطبعة عيسى الحلبي ــ القاهرة ــ الطبعة الثالثة ١٣٩٥ هــ / ١٩٧٥ م .
٢ ــ تنبح أنتونى : العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام ، ترجمة راشد البراوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٤ م .
٣ ــ أحمد أمين : ضحى الإسلام ، النهضة المصرية ــ القاهرة ــ الطبعة العاشرة .
٤ ــ ظهر الإسلام النهضة المصرية ــ القاهرة .
٥ ــ د / حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، دار النهضة العربية ــ القاهرة ١٩٨٧ م .
٦ ــ أحمد تيمور : المهندسون في العصر الإسلامي ، دار نهضة مصر ــ القاهرة .
٧ ــ د / محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، دار الفكر العربي ، القاهرة .
٨ ــ ليسلر جاك : الحضارة العربية ، ترجمة أحمد فؤاد عبدون مراجعة د / أحمد فؤاد الأهوانى الدار المصرية للتأليف والنشر .
٩ ــ د / حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والدينى والثقافي والاجتماعي ، الجزء الثاني ، النهضة المصرية ــ القاهرة ــ الطبعة الثامنة ١٩٧٢ م .
١٠ ــ د / محمد محمد عبد القادر الخطيب : تاريخ التربية الإسلامية ، مطبعة الوفاء ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ١٤٠٢ هــ / ١٩٨٢ م .
١١ ــ د / السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي مؤسسة شهاب جامعة الإسكندرية ١٩٨٢ م .
١٢ ــ تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي ، دار المعارف ــ لبنان .

١٣ ــ د / محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي مكتبة الأداب ، المطبعة النموذجية ــ القاهرة .
١٤ ــ د / أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد ، الدار المصرية اللبنانية ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م .
١٥ــ المدارس في مصر قبل العصر الأيوبى بحث منشور في سلسلة تاريخ المصريين العدد (٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٩٣ م .
١٦ ــ سد سيديو : تاريخ العرب العام نقله إلى العربية عادل زعيتر ، مطبعة عيسى الحلبي .
١٧ ــ د / جمال الدين الشيال : أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي ، دار المعارف ــ القاهرة ١٩٦٥ م .
١٨ــ تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي ، دار المعارف ــ القاهرة ١٩٦٧ م .
١٩ ــ د / عفاف سيد صبره : المدارس في العصر الأيوبي بحث منشور في سلسلة تاريخ المصريين العدد (٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣ م .
٢٠ ــ د / سعيد عبد الفتاح عاشور : العلم بين المسجد والمدرسة بحث منشور في سلسلة تاريخ المصريين لعدد (٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٩٣ م .
٢١ ــ د / سعيد عبد الفتاح عاشور وعبد الرحمن الرافعي : مصر في العصور الوسطي ، النهضة المصرية ــ القاهرة ١٩٩٠ .
٢٢ ــ د / حسن عبد العال : التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، دار الفكر العربي ــ القاهرة .
٢٣ ــ د / حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، دار الكتب المصرية ــ القاهرة ١٩٤٦ م .

٢٤ ـ د / خضر أحمد عطا لله : الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي ، دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى .

٢٥ ـ د / أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٩ م .

٢٦ ـ د / سعد زغلول عبد الحميد : الأثر المغربي والأندلس في المجتمع السكندري في العصور الإسلامية الوسطي ، بحث في كتاب (مجتمع الإسكندرية عبر العصور) ، كلية الآداب جامعة الإسكندرية ١٩٧١م .

ثالثا : الرسائل العلمية :

١ ـ محمد أحمد محمود حسب الله : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد الخليفة المعتمد على الله . رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية اللغة العربية بالقاهرة تحت رقم ١٣٥١ / ١٣٥٣ سنة ١٩٧٨ م .

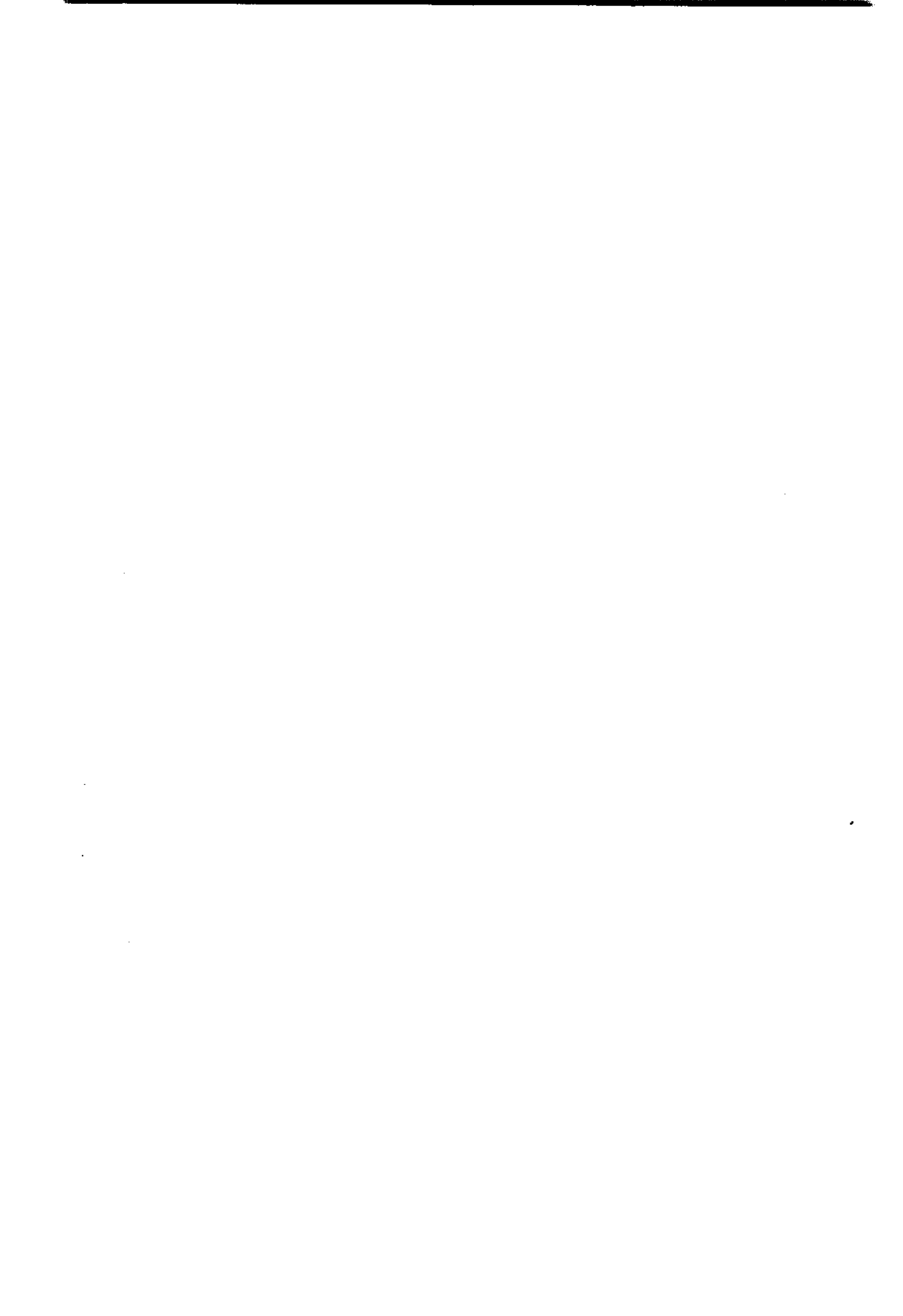
٢ ـ محمد محمد عبد القادر الخطيب : التعليم في مصر خلال عصر المماليك البحرية وأثر الأزهر فيه . رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية اللغة العربية بالقاهرة تحت رقم ١٣٨٨ / ١٣٩٠ سنة ١٩٧٩ م .

رابعا : الدوريات :

١ ـ د / جمال الدين الشيال : أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية حولية كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية المجلد الحادى عشر ١٩٥٧ م .

ـ الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي ـ حولية كلية الآداب جامعة الإسكندرية .

٢ ـ د / السعيد مصطفي السعيد : الروابط الثقافية بين أسبانيا ومصر ، حولية كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية المجلد الثاني عشر ـ مطبعة جامعة الإسكندرية ١٩٥٨ م .



الفصل الخامس [1]

القـــــاهـــرة

---

(١) إعداد : د/ طه عبد العزيز الخطيب .

القاهــرة

كان الفتح الفاطمي لمصر ذروة الصراع بين الدولتين العباسية والفاطمية ، وكذلك كان بين دعوتين خصيمتين ، وكان غنم الفاطميين لمصر ذروة هذا الظفر الذي جنوا ثماره بعد معركة دامت في الخفاء زهاء قرنين من الزمان ، وأسفرت عن قيام هذه الدولة العبيدية التي وثبت في المغرب ، واجتاحت ملك الأغالبة ، ثم زحفت على مصر ، لا لتسحق ملك بنى الأخشيد المتداعي ، بل لتسحق فيها أيضا دعوة بنى العباسي لتقيم مكانها دعوتها الشيعية الإمامية ، أو دعوة آل البيت التي كانت تحمل شعارها ولواءها [١] .

ومما لا شك فيه أن نجاح الفاطميين في فتح مصر كان نقطة تحول خطيرة بالنسبة لتاريخ مصر والخلافة العباسية ، والشرق الأدنى عامة ، أما بالنسبة للدولة الفاطمية فيعتبر فتح مصر بمثابة مولد جديد لهذه الدولة . ففي مصر بالذات شهدت هذه الدولة مجدها وعظمتها ، وأحلى أيامها [٢] .

لذلك فلا عجب إذا فرح المعز الفاطمي عندما بلغته أخبار الفتح ، وأخذ يستعد لنقل بلاطه إلى مصر ، وأقبل الشعراء يهنئون بذلك الفتح الكبير وعلى رأسهم شاعر بلاطه محمد بن هانيء الأندلسي أنشد قصيدة مطلعها :

تقول بنوا العباس هل فتحت مصر

فقل لبنى العباس قد قضي الأمر [٣]

---

(١) محمد عبد الله عنان (الأستاذ المؤرخ) تاريخ الجامع الأزهر ص ١٥ ، مطبعة لجنة التأليف الترجمة والنشر ط (١) ــ القاهرة ١٢٦١ م / ١٩٤٢ م .

(٢) عبد الرحمن الرافعي ، وسعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في العصور الوسطي ص ١٥٣ ، دار النهضة العربية ــ القاهرة ١٩٩٢ م .

(٣) المقريزى : تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هــ / ١٤٤١م ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ح ١ ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، المعروف (بالخطط المقريزية) ط (٢) مكتبة الثقافة الدينية ــ القاهرة ١٩٨٧م .

فعندما دخل جوهر [١] مدينة الفسطاط عصر يوم الثلاثاء ١٧ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ / ٧ يوليو سنة ٩٦٨ م . وشق المدينة ونزل في البسيط الشاسع الذي يقع بظاهرها ، وهنالك في الحال خطط العاصمة الجديدة (القاهرة المعزية) التي أراد الفاطميون إتخاذها قاعدة لهم في مصر ، وبعث بالبشري إلى مولاه بالفتح العظيم .[٢]

وفي ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ / ٨ يوليو ٩٦٨ م وضع أساس قصر مولاه المعز ثم أخذت كل قبيلة من البربر المغاربة حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها ، فاختطت جماعة من برقة الحارة البرقية ، واختط الروم حارتين إحداهما حارة الروم ، والأخرى حارة للروم الجوانية بالقرب من باب النصر [٣] وموقع القصر الآن مسجد سيدنا الحسين وخان الخليلي . [٤]

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة أقام حول تلك المدينة سورا كبيرا لحمايتها من أعداء الدولة الفاطمية . [٥]

وترجع بعض الروايات إلى تسمية القاهرة إلى قصة فلكية تتعلق بطالع المدينة إذ وضع أساسها حين كان المريخ في الطالع ، وهو يسمى عند المنجمين (القاهر) .

وقيل أن جوهر سمى المدينة الجديدة أولا بالمنصورية ، فلما قدم المعز إلى مصر غير اسمها وسماها القاهرة ، وقيل أنه وجه خطابا لجوهر وهو على رأس الجند الذاهب إلى مصر قال له : " ولتدخلن إلى مصر ، من غير

---

(١) كان جوهر الصقلي مملوكا من أهل صقلية ــ وكانت صقلية تحت حكم المسلمين ــ فضمه المعز إلى بطانته ، وكناه بأبي الحسن.... وقدر المعز مواهبه فولاه وزارته ثم إختاره لقيادة جيوشه فغزا المغرب الأقصى حتى ساحل المحيط الأطلنطي ثم إختاره المعز ليسير إلى فتح مصر .

(٢) نفس المصدر ح ١ ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(٣) نفس المصدر ح ١ ص ٣٦١ .

(٤) عبد الرحمن الرافعي ، وسيد عاشور مرجع سبق ص ١٩٦ .

(٥) المقريزي ــ المصدر السابق ح ١ ص ٣٦١ .

حرب ولتنزلن في خرابات بن طولون ويبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا [١] .

وسميت كذلك لأنها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة أميرها ، وأن منها يملكون الأرض ، ويستولون على قهر الأمم ، وكانوا يظهرون ذلك ويتحدثون به . [٢]

وإرجاع التسمية إلى التفاؤل واليمن بالنصر أرجح وأدل على المغزى المقصود ، فقد كانت المدينة الجديدة عنوانا لظفر الدولة الفاطمية بافتتاح مصر ، ذلك القطر الزاهر الذي لبثت حينا تتوق إلى إفتتاحه ، وإغتنامه ، وظفرها بمحو الدعوة العباسية من قطر أهم الأقطار الإسلامية [٣] ومن جهة أخرى تكون معقلا للفاطميين لرد خطر القرامطة الذين سادت دعوتهم بلاد العرب يومئذ واجتاحوا الشام وأصبحوا خطرا على مصر [٤] .

وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، على حين كان يعرف الجزء الواقع خارجها بظاهر القاهرة ، وهو عبارة عن خطط وأحياء جديدة تمتد بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل ، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة من ضفة النيل ، وهي المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق ، والحسينية . [٥] وباب النصر وباب الفتوح وباب القنطرة ، وباب الشعرية ، وباب سعادة ، ولما تولى أمير الجيوش بدر الجمالي الوزارة

---

(١) المقريزى : مصدر سبق ح ١ ص ٣٧٧ . ابن تغري بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٦ م ، النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة ح ٤ ص ٤١ ، دار الكتب مصر ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ .

(٢) المقريزى نفس المصدر ح ١ ص ٣٦٦ .

(٣) محمد عبد الله عنان : مرجع سبق ص ١٦ .

(٤) المقريزى : المصدر السابق ح ١ ص ١٧٨ ، ٣٧٩ .

(٥) المقريزى : المصدر السابق ح ١ ص ٣٧٧ ، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ح ٣ ص ٤١٣ ، مكتبة النهضة المصرية ط ٩ ١٩٧٩ م .

سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م أعاد بناء السور والأبواب بالحجارة قريبا من موضعها ، وكانت مبنية باللبن ونقل باب الفتوح حيث يبدأ شارع المعز لدين الله الفاطمي بجوار جامع الحاكم ، ونقل باب زويلة إلى موضعه الآن ، وهو المعروف ببوابة المتولي [١] . وكان باب زويلة [٢] يتكون من بابين متجاورين عند سبيل العقادين الآن ، ونقل باب النصر إلى موضعه الحالي[٣].

---

(١) نسبة إلى متولي الحسبة في مدينة القاهرة ، إذ كان متولي الحسبة يجلس بجواره.

(٢) نسبة إلى قبيلة زويلة إحدى القبائل المغربية التي قدمت بعد الفتح ، حسن إبراهيم حسن : مرجع سبق ح ٣ ص ٤١٣ .

(٣) المقريزى : مصدر سبق ح ١ ص ٣٨١ ، ٣٨٣ .

تشييد الجامع الأزهر :

أبتنى جوهر الصقلي قائد الجيش الفاطمي تمشيا مع التقاليد الإسلامية ، وتأكيدا للإنتصار الديني المذهبي الذي أحرزته الدولة الفاطمية مسجدا جامعا في العاصمة الجديدة .

وبدىء في إنشائه يوم الإثنين ٢٤ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ / ٥ إبريل سنة ٩٦٩ م .

وتم بناء الجامع الأزهر في عامين وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوما وافتتح للصلاة في يوم الجمعة السابع من رمضان ٣٦١ هـ / ٢٣ يونيو ٩٧١ م [١] بصفة رسمية ، واستهدف جوهر منه أن يكون المسجد الرسمي للدولة الفاطمية ، ورمزا لسيادة المذهب الشيعي ، كما أنشأ المنصورية (القاهرة) لتكون رمز لسيادتها السياسية ودليلا على إنقضاء نفوذ الإخشيديين والعباسيين [٢] .

وأما تسميته باسم الجامع الأزهر ، فإنها لم تحدث إلا في عصور متأخرة ، وحتى القرن الثامن الهجري ، كان اسم جامع القاهرة يطلق عليه في كثير من المواطن ، إلى جانب الإسم الآخر جامع الأزهر .

ويقال أنه أطلق عليه اسم الجامع الأزهر بعد إنشاء القصور الفاطمية في عهد العزيز بالله ــ ٣٦٥ ــ ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ ــ ٩٩٦ م فقد كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة ، ومنها أطلق على جامع القاهرة وهو مسجد الدولة الرسمي اسم (الجامع الأزهر) .

ويرجح أن التسمية ترجع إلى اسم السيدة فاطمة الزهراء ــ رضي الله

---

(١) نفس المصدر ح ١ ص ٢٧٣ .
(٢) عنان : مرجع سبق ص ١٨ .

عنها ــ ابنة رسول الله ﷺ ، وهي التي يرجع الفاطميون نسبتهم إليها ، واستمر مسجد القاهرة بهذين الإسمين حتى أوائل القرن التاسع الهجري ، وقد غلب اسم الجامع الأزهري عليه حتى عصرنا [١] .

وشهد الأزهر منذ إنشائه المظاهر الرسمية الشيعية لصلاة الجمعة ، يؤدى فيه آذان الصلاة الشيعي كما كان مركزا للإحتفالات التي أقامتها الدولة الفاطمية طبقا للشعائر الشيعية مثل الإحتفال بالمولد النبوي الشريف ، وليالي الوقود ، ومأتم عاشوراء ، وعيد الفطر وما إلى ذلك . [٢]

ولم يكن ذلك المسجد الذي أنشأه جوهر الصقلي في القاهرة المعزية إلى جانب القصر الفاطمي سوي ذلك " الجامع الأزهر " الذي قدر له أن يشاطر المدينة العظيمة حياتها المديده ، وأن يبقي علي ممر الدهر أثرا للدولة التي شادته .

وكانت المساجد الجامعة رمزا لسيادة الدولة ومنبر للدين الإسلامي ، ففيها تقام الصلاة الجامعة ، ومقر للحكم ، ومجالس القضاء ، ومركزا للحلقات العلمية .

كما كانت القاهرة رابعة الحواضر في مصر الإسلامية بعد (الفسطاط ، والعسكر ، والقطائع) كل منها لها مسجدها الرسمي ، وهم الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) وجامع العسكر ، وجامع ابن طولون ، والجامع الأزهر .

---

(١) عنان : مرجع سبق ص ١٨ ، ١٩ .
(٢) نفس المرجع ص ١٨ .

النهضة الفكرية :

لقد حدث في القاهرة إنقلاب ديني وثقافي من خلال جامع القاهرة أو (جامع الأزهر) .

وأصبحت مساجد عمرو بن العاص ، وابن طولون ، والأزهر والحاكم. من أهم المراكز الثقافية ، وخاصة بعد أن حول يعقوب بن كلس (وزير الخليفة المعز لدين الله) الجامع الأزهر إلى جامعة ، تدرس فيها العلوم والآداب ، بعد أن كان مقصورا على إقامة الدعوة الفاطمية .

وبالإضافة إلى هذه المراكز جعل الفاطميون من قصورهم مراكز ثقافية ، فقد وصل عدد الكتب التي بسائر العلوم في قصر الخليفة ، أربعون خزانة ، والخزانة بها ثمانية عشر ألف كتاب . من العلوم القديمة ، ومن جملة الكتب التي فيها ألفان وأربعما ختمة قرآن في ربعات مخطوط محلاة بالذهب . والفضة ، وقيل أنه لم يكن بالقاهرة مكتبة أعظم من التي كانت بالقصر ، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومئتان نسخة من تاريخ الطبري وقيل أن بها ستمائة ألف كتاب. [١]

ومما يؤيد ذلك أن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي عندما أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م نقل إليها من هذه الكتب مائة ألف مجلد ، ونهب وبيع منها الكثير . [٢]

---

(١) المقريزى : مصدر سبق ح ١ ص ٤٠٨ .

(٢) لقد حدث هذا في أيام ضعف الخليفة المنتصر بالله ، وتمكن صلاح الدين ووضع يده على مقاليد الأمور ، وعمل على نشر مذاهب السنة والقضاء على الشيعة . ويذكر المقريزى عمليات النهب التي حدثت ، لدار الكتب التي كانت في القصر ، أن الكتب المخرجة في شدة المستنصر وآخذه الجنود الأتراك من قيمة رواتبهم المتأخرة ٢٤٠٠ ختمة قرآن محلاة بالذهب وفضه ، وأخذ الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربي ما قيمته حمل ٢٥ جملا تقدر بمبلغ =

الجامع الأزهر :

بدأ الأزهر يكتسب الطابع العلمي بعد ثلاثة أعوام ونصف من إنشائه ففي رمضان ٣٦٥ هـ / مايو ٩٧٥ م ، وفي عهد الخليفة المعز لدين الله جلس قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان القيرواني . بالجامع الأزهر، وقرأ كتابا يعد مصدرا من مصادر الفقه الشيعي هو كتاب " الإختصار " الذي وضعه والده أبو حنيفة النعمان [١] وكان في جمع حافل من العلماء أثبتت أسماؤهم إحتفالا بهذه المناسبة [٢] وهو أول من لقب بقاضي القضاة في مصر، وهذه أول حلقات للدرس بالجامع الأزهر وكانت ذات أهداف سياسية. لخدمة الدولة الفاطمية ، ونشر مذهبها وترسيخ الوجود الشيعي في مصر وكانت هذه الحلقة الأولى في أواخر أيام المعز لدين الله الفاطمي فقد توفى في الثالث من ربيع الثاني (٣٦٥ هـ / ٧ من ديسمبر ٩٧٥ م) ثم توالت حلقات بنى النعمان ، وهم من أكابر علماء المغرب الذين قدموا مع الفاطميين ليتولوا الدعوة السياسية والدينية واستأثروا برئاسة القضاء زهاء نصف قرن [٣] .

وفي بداية عهد الخليفة العزيز بالله (٥ من ربيع الأخر ٣٦٥ هـ ــ ٢٨ من رمضان ٣٨٦ هـ / ١٢ ديسمبر ٩٧٥ ــ ١٥ أكتوبر ١٩٩٦ م)

= ١٠٠ ألف دينار ، قدرها لنفسه هو وعماله بـ ٥٠٠٠ دينار بدلا عن رواتبهم ، ونهبت جميعها هذا بخلاف ما نقل إلى الإسكندرية ، وأحرق وأهمل منها الكثير.

المقريزى : المصدر السابق ح ١ ص ٤٠٨ ، ٤٠٩.

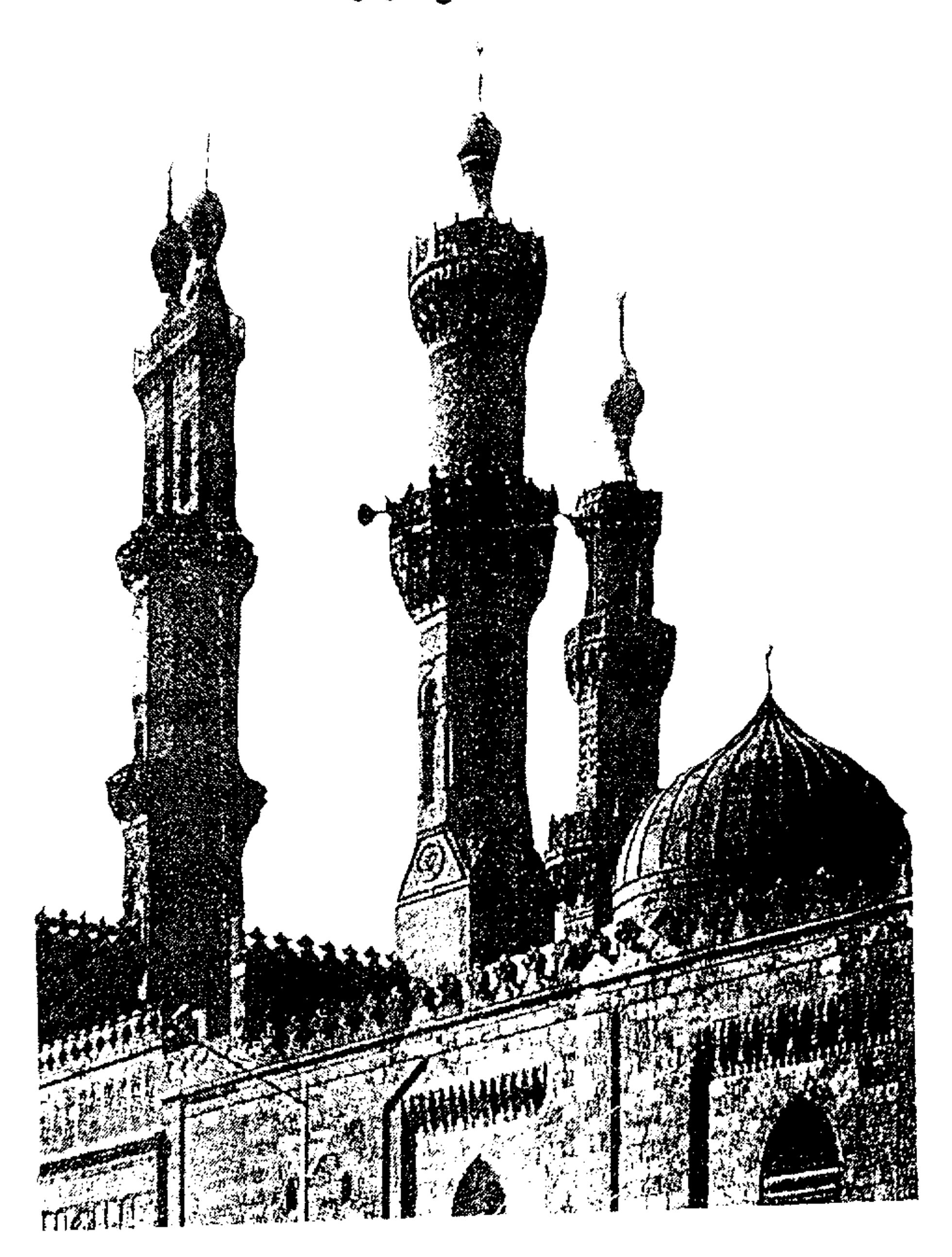
(١) هو أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور القيرواني .. المغربي توفى سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م وكان من أقطاب الشيعة وتولى القضاء بالمغرب في عهد المعز ثم جاء معه إلى مصر ولكنه لم يتولى قضاءها ، سيدة إسماعيل كاشف : الأزهر ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية ص ٥٢ ، أبحاث ندوة المدارس في مصر سلسلة تاريخ المصريين (٥١) أعدها للنشر د / عبد العظيم رمضان .

(٢) المقريزى : مصدر سبق ح ٢ ص ٣٤١ .

(٣) سيدة كاشف : المرجع السابق ص ٥٢

ملحق رقم (٣)

صورة الجامع الأزهر



خطا الأزهر خطوة هامة في الدراسات الجامعية إذ جلس " يعقوب بن كلس ، وزير الخليفة المعز لدين الله ثم العزيز بالله في رمضان ٣٦٩ هـ / مارس ٩٧٩ م ، وقرأ على الناس كتابا ألفه في الفقه الشيعي متضمنا ما سمعه من الخليفة المعز لدين الله وولده العزيز وسماه " الرسالة العزيزية " وأشتهر ابن كلس بأنه كان يجمع بين السياسة والعلم أما مجالس الفقه والأدب كان يعقدها في الجامع الأزهر أو في منزله .

ثم تطورت الدراسة بالأزهر على يد بن كلس إذ عين سبعة وثلاثين فقيها للقراءة والدرس . وكانوا يعقدون مجالسهم كل يوم جمعة من بعد الصلاة حتى صلاة العصر .

ورتبت لهم الدولة مرتبات شهرية ثابتة وأنشأت لهم دارا للسكن بجوار الجامع الأزهر ، وأجرى عليهم أيضا بن كلس أرزاقا من ماله الخاص .[١]

وكانت مجالس بن كلس العلمية تمتاز عن مجالس بنى النعمان بتحررها من القيود الرسمية ، وباتجاهها نحو الغايات العلمية قبل اتجاهها نحو المثل المذهبية .[٢]

وكان الأزهر في العصر الفاطمي عنصرا هاما من عناصر الحياة الفكرية ، حيث تعتمد فيه إلى جانب الحلقات الدراسية مجالس الحكمة للنساء، وكان له الطابع الرسمي ففيه يجلس القاضي في أيام معينة ، وفيه مركز المحتسب العام .[٣]

ومع أن حلقات الدراسة كانت تعقد في المساجد الجامعة الرسمية ، كجامع عمرو بن العاص ، وجامع بن طولون ، وغيرها من المساجد الجامعة، إلا أن الأزهر استطاع أن يحتل مكان الصدارة في الحركة الفكرية بمصر ، والعالم الإسلامي .

---

(١) المقريزى : مصدر سبق ح ٢ ص ٢٧٣ .
(٢) محمد عبد الله عنان : مرجع سبق ص ٤٣ .
(٣) المقريزى : المصدر السابق ح ٢ ص ٢٧٣ .

دار الحكمة :

بعد ثلاثين عاما من بداية الحلقات العلمية في الأزهر ، أنشأ الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله (٣٨٦ ــ ٤١١ هــ / ٩٩٦ ــ ١٠٢٠ م) " دار الحكمة " الشهيرة في العاشر من جمادى الآخرة ٣٩٥ هــ / ٥ مارس ١٠٠٥ م وأطلق عليها " دار العلم " والحق بها مكتبة عظيمة فيقول المقريزى أنها حوت ما لم يجتمع مثله في مكتبة من المكتبات فقد حملت إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة من سائر العلوم والآداب ، وأجرى عليها الخليفة الحاكم ومن جاء بعده وعلى موظفيها ، وجميع من بها من الفقراء الأرزاق السنية ، وجعل بها كل وسائل التعليم للمطالعون والنساخ من الحبر ، والمحابر، والأقلام ، والورق .[١]

وقبل إنشاء دار الحكمة كانت تعقد مجالس الحكمة في القصر الفاطمي، أو في جامع الأزهر . وخصص فيها مجالس للخاصة ، ومجالس للعامة ، وثالثة للنساء [٢] .

ويوضح المقريزى " أن الفاطميين اعتمدوا على الفلسفة في نشر دعوتهم ، فكانوا يتدرجون مع من يدعونهم إلى مذهبهم حتى إذا ما تمكن المدعو من التعاليم الأولى أحالوه على ما تقرر من كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات ، وما بعد الطبيعة ، والعلم الإلهي وغير ذلك من العلوم الفلسفية[٣].

وإلى جانب الفلسفة والعلوم الدينية كالتفسير الذي إتخذه الباطنية لنشر مبادئهم عن طريق تفسير يتفق وآرائهم ... ظهر الإهتمام في العصر الفاطمي بكثير من العلوم الدنيوية ، مثل التاريخ والنحو ، وعلوم اللغة

---

(١) المقريزى : مصدر سبق ح ١ ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .
(٢) المقريزى : نفس المصدر ح ١ ص ٤٥٨ .
(٣) المقريزى : نفس المصدر ح ١ ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ .

والآداب . ولم تقف النهضة الفكرية عند حد إزدهار العلوم النقلية بل تعدت إلى العلوم العقلية فازدهر الطب ، والرياضيات ، والفلك [١] .

ومن الواضح أن هذا النشاط الفكري الواسع في العصر الفاطمي ساعد على نشاط الدعاية الفاطمية ، وهي الدعاية التي نهض بها حشد كبير من الدعاة المتمرسين . وفي ذلك يقول المقريزى " أن أول درس بالأزهر الفقه الفاطمي على مذهب الشيعة " [٢] .

وكان لقيام نشاط دار الحكمة في القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي ـ أثر كبير في سير الدراسة بالأزهر ، إذ كانت دار الحكمة منافسا للأزهر ، ولم تكن نظم الأزهر قد استقرت ، فركدت حلقات الأزهر ، وانفض عنه الكثير من الأساتذة والطلاب ، واتجهوا إلى دار الحكمة [٣] .

ولبثت دار الحكمة تنافس الأزهر مدي قرن من الزمان لكن عصر إزدهارها لم يدم طويلا . فقد اضطربت شئون دار الحكمة ، وفقدت كثيرا من أهميتها أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م) حين اضطربت شئون الخلافة وسرت الفوضى في البلاد ، وعجزت الدولة عن دفع الرواتب ، فكانوا يستولون على الكتب بقيمة رواتبهم، وانتهي الأمر إلى أن أغلقها أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي أيام خلافة الآمر بأحكام الله (٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ / ١١٠١ ـ ١١٣٠ م) عندما ما أذيع أنها تدخلت في العقائد وتغيير المذاهب ، واداعاء بعض من بها الربوبية واستمرت مغلقة إلى أن أعادها المأمون البطائحى متولي الوزارة سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م على نمط جديد روعى فيه تخفيف صفتها المذهبية .[٤]

---

(١) المقريزى : نفس المصدر ح ١ ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، عبد الرحمن الرافعي وسعيد عاشور مرجع سبق ص ٢٦٨ .
(٢) المقريزى : مصدر سبق ص ٢٧٣ ، عبد الرحمن الرافعي وسعيد عاشور : نفس المرجع ص ٢٦٨ .
(٣) سيدة كاشف : مرجع سبق ص ٢٦٨ .
(٤) المقريزى : المصدر السابق ح ١ ص ٤٥٨ ، ٤٦٠ .

الأزهر في عهد الدولة الأيوبية:

ظل الأزهر في عهد الدولة الفاطمية زهاء قرنين من الزمان يتمتع بالرعاية الرسمية كمسجد للدولة ، وصفته الجامعية كمعهد للقراءة والدرس .

وفي أواخر أيام الدولة ضعفت الخلافة ، وفقدت هيبتها ، فتدهورت أحوال مصر الداخلية ، وتعرضت لخطر العدوان الصليبي [١] . الأمر الذي

---

(١) في أوائل سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م توج عموري الأول ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية ، وكان عموري يتصف بالشجاعة، وله أطماع توسعية فتطلع إلى مصر التي كانت في ذلك الوقت يعمها الفوضي ، والإنحلال (P) إذ كانت الدولة الفاطمية آنذاك تقاسي آلام الموت البطيء ولم يعد للخلفاء أي صفة رسمية بسبب تسلط الوزراء ، واستئثارهم بالسلطة وتحكمهم في الخلافة ، ولا أدل على ذلك من نهاية كثير من الخلفاء بالقتل . فقد حدث أن مات الخليفة الظافر مقتولا سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م فاستبد بالأمور في مصر الوزير طلائع بن رزيك ، وكان الخليفة الفائز ـ ابن الظافر ـ طفلا صغيرا لا يمتلك من الخلافة إلا لقبها ، وعندما توفي الفائز وهو في الحادية عشر من عمره سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م أقام الوزير طلائع في الخلافة بعده الخليفة العاضد الذي كان هو الآخر صغيرا في السن ، ولما أحس الخليفة بخطره دبر مؤامرة وقتله ثم خلفه ابنه العادل سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م وما لبث أن قتله شاور حاكم الصعيد وتولى الوزارة بدلا منه سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م ثم استبد شاور بالسلطة وساءت سيرته . فخرج عليه ضرغام حاجب الخليفة واشتد التنافس بينهما ، في الوقت الذي جعل عموري يتطلع لغزو مصر ، وفي ذلك الوقت لجأ شاور إلى نور الدين محمود بالشام ، يستنجد به ليعيده إلى الوزارة ، كما أحس نور الدين بخطر عمورى وتطلعه إلى مصر ، فأرسل حملة إلى مصر سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م بقيادة أسد بن الدين شيركوه ، وبصحبته شاور وصلاح الدين الأيوبي ابن أخي أسد الدين وانتصر شيركوه وقتل ضرغام وعاد شاور للوزارة وما لبث أن نقض عهده مع نور الدين محمود ، واستنجد بملك القدس " عموري " مقابل ٢٠٠ ألف دينار سنويا ثم تذكر شاور أيضا لعموري كعادته . فقرر عموري غزو مصر وضمها لملكه .
ولما علم الخليفة بذلك استنجد بجيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ولما رأى عموري جيش نور الدين عاد إلى بلاده وقتل شاور وابنه ، فنصب الخليفة أسد الدين في الوزارة ولما توفي تسلمها =

دفع الخليفة العاضد لدين الله أبى محمد الإمام عبد الله آخر خلفاء الفاطميين (٥٥٥ ـ ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ ـ ١١٧١ م) إلى أن يستنجد بأسد الدين شيركوه لدرء الخطر الصليبي ، وإعادة الإستقرار للبلاد ، ولما نجح أسد الدين في مهمته قلده الخليفة العاضد الوزارة لكنه ما لبث أن مات بعد شهرين فخلفه على الوزارة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، ولقب بالناصر واستأثر بالأمر ووضع يده على مقاليد الأمور في الثالث من المحرم ٥٦٧ هـ / السادس سبتمبر ١١٧١ م .[١]

وكان صلاح الدين شافعيا ، حسن العقيدة ، كثيرا لذكر الله تعالى ، كما سمع الحديث النبوي ، وبلغ من إهتمامه بتعليم الأطفال القرآن الكريم ، وتشجيعهم على ذلك ، أنه مر يوما على صبي صغير وهو يقرأ القرآن ، بين يدي أبيه ، فاستحسن قراءته ، وجعل له حظا من خاص طعامه ووقف عليه وعلي أبيه جزءا من مزرعته[٢] .

والثابت أن صلاح الدين وجميع سلاطين البيت الأيوبي أحبوا العلم والعلماء فكان صلاح الدين يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ويستمع إليهم ويشاركهم في أبحاثهم .

لذلك نجد أنه عمد على إزالة شعائر الدولة الفاطمية ، وكل رسومها وآثارها والقضاء على المذهب الشيعي في مصر ، فانتهز فرصة مرض الخليفة وعجزه عن مقاومة الوضع الجديد ، حيث أراد صلاح الدين القضاء

=صلاح الدين الذي أسس الدولة الأيوبية في مصر والشام بعد موت نور الدين.
P ـ ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزري ت ٦٣٠ هـ / ١٣٣٠ م الكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٦٤ ـ ٥٦٧ هـ ، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٥ م .

(١) المقريزى : مصدر سبق ح ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) د / عفاف صبره : بحث عن المدارس في العصر الأيوبي ص ١٥٠ ض أبحاث ندوة المدارس في مصر الإسلامية من ٢٢ ـ ٢٥ إبريل ١٩٩١ م ، سلسلة تاريخ المصريين (٥١) أعدها د / عبد العظيم عاشور .

على الدولة الفاطمية لتحقيق الوحدة المذهبية في العالم الإسلامي فاتخذ عدة إجراءات منها :

١ ــ أنه إتخذ خطوة جريئة بإعلان الدعاء للخليفة المستنصر بأمر الله أبى محمد الحسن العباسي في خطبة أول جمعة عام ٥٦٧ هــ / ١١٧١ م [١] ورحب المسلمون بإنتمائهم للدولة العباسية ، واكثروا من الدعاء للخليفة العباسي في بغداد [٢] .

وقد حدث الإنقلاب في هدوء ، إذ أن الخليفة العاضد توفي بعد ذلك بثلاثة أيام دون أن يسمع بسقوط خلافته .

٢ ــ أنه نزع المناطق الفضة التي كانت بمحاريب الجوامع والتي كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين [٣] .

٣ ــ إلغاء الأذان الشيعي ، ومنع الخطبة في الجامع الأزهر بناءا على فتوى استصدرها قاضي القضاة بأنه لا يجوز إقامة خطبتين للجمعة في بلد واحد وأقامها في الجامع الحاكمى بحجة أنه أوسع . وهذا إجراء سياسي إتخذه صلاح الدين لإبعاد الأزهر عن أذهان المصريين بصفته المسجد الرسمي للدولة .[٤]

---

(١) ومن الإتفاقات أن أول خطيب للمعز لدين الله الفاطمي عندما قدم إلى مصر كان من بني العباس ، ولما انقضت الدولة عنهم خطب للعباسيين خطيب من الأشراف العلويين ، ابن الأثير : الكامل ح ٩ ص ١١١ .

(٢) يذكر الرحالة " ابن جبير " أنه شاهد سنة ٥٧٨ هــ خطيب الحرم المكي " وهو " شعار العباسيين ، وفي الخطبة الثانية بعد الصلاة على النبي ﷺ دعا للخليفة المستنصر بالله العباسي ، ثم لأمير مكة ، ثم لصلاح الدين الأيوبي وولي عهده، وعند ذكر صلاح الدين تخفق الألسنة بالدعاء له . ابن جبير : أبو الحسن محمد ابن أحمد ت ٦١٤ هــ / ١٢٠٠ م ، رحلة ابن جبير ص ٥٩ ، دار التحرير للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٣٥٨ هــ / ١٩٦٨ م .

(٣) المقريزى : مصدر سبق ح ٢ ص ٢٣٣ .

(٤) نفس المصدر ح ٢ ص ٢٣٣ .

٤ ــ عزل قضاة الشيعة وعين قاضيا شافعيا في منصب قاضي القضاة هو " صدر الدين عبد الملك بن درباس " وجعل له نوابا من القضاة الشافعية وكان ذلك إيزانا بانتشار المذهب الشافعي في مصر .[١]

ولكي يقضي صلاح الدين علي المذهب الشيعي تماما أنشأ مدارس وأخذ بنظام التخصص في دراسة المذاهب السنية الأربعة ، وأنفق عليها من بيت المال ، وبلغ عدد هذه المدارس خمس وعشرين مدرسة في القاهرة وبعض الأقاليم . وأطلق عليها المدارس والكليات ومساجد ذات مدارس . ومن هذه المدارس :

١ ــ المدرسة الناصرية :

كان موقعها دار تسمي " دار المعونة " جعلها الفاطميون مقر للشرطة وسجنا يسجن فيها من يراد حبسه ، فهدمها صلاح الدين ، وبني في موقعها مدرسة للشافعية في أول المحرم سنة ٥٦٦ هـــ ، وكان حينئذ متولي الوزارة في مصر في عهد الخليفة العاضد ، ويقول المقريزى : " وكان هذا من أعظم ما نزل بالدولة " وهي أول مدرسة عملت بديار مصر ، وكان موقعها في الماضي يعرف بخطة قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، وعرفت بدار الفلفل " لأنهّ بيع في مكانها فلفل بمبلغ ٢٠ ألف درهم " ثم قال عيسي بن زيد الجلودى كان بناء هذه الدار للشرطة سنه مائتي وثلاثة عشرة ثم صارت سجنا يعرف بالمعونة ، وتغير اسم هذه المدرسة من الناصرية أيام صلاح الدين إلى اسم " ابن زيد التجار " أحد أعيان الشافعية لأنه قام بالتدريس فيها لمدة طويلة وتوفى سنة ٥٩٣ هـــ وتغير اسمها بعد ذلك وعرفت بالمدرسة الشريفية [٢] .

وقال عنها الرحالة ابن جبير أثناء زيارته لمصر زمن صلاح الدين "

---

(١) نفس المصدر ح ٢ ص ٢٧٥ .
(٢) المقريزى : نفس المصدر ح ٢ ص ٢٦٣ .

مشهد الإمام الشافعي ﷺ ... وباذائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ولا أوسع مساحة يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذائه باذائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها .(١)

٢ ــ المدرسة القمحية :

بناها صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ بجوار الجامع العتيق بمصر (جامع عمرو بن العاص) وجعلها مدرسة للمالكية ، وكان مكانها قبل ذلك قيسارية يباع فيها الغزل فهدمها وأنشأ مكانها هذه المدرسة .

وقال عنها المقريزى " أنها من أجل المدارس للمالكية ، فقد رتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدد من الطلبة ، وسميت بالقمحية نسبة إلى القمح التي كانت تحصل عليه ، للإنفاق منه على متطلباتها من الوقف الذي أوقفه عليها من ضيعه بالفيوم تعرف " بالجنوشية " .(٢)

وتعتبر المدرسة القمحية من أشهر المدارس السنية في العصر الأيوبي ولعبت دورا كبيرا في تدريس المذهب المالكي الذي كان شائعا في مصر وشمال أفريقيا .(٣)

٣ ــ المدرسة السيوفية :

بناها السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ وأوقفها لتدريس المذهب الحنفي ، وكانت هذه المدرسة دار للوزير المأمون البطائحى في العصر الفاطمي ، وعرفت بالسيوفية لأن سوق السيوفيين كان على بابها وأورد المقريزى نص من كتاب الوقف الذي أوقفه صلاح الدين ومما جاء فيه " الحمد لله وبه توفيقي ، وتاريخ هذا الكتاب تاسع عشري شعبان سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أنه وقف علي مستحقيها إثنين وثلاثين حانوتا بخط سويقة

---

(١) ابن جبير : مصدر سبق ص ١٧ ، ١٨ .
(٢) المقريزى : مصدر سبق ح ٢ ص ٣٦٣ .
(٣) د / عفاف صبره : مرجع سبق ص ١٥٣ .

أمير الجيوش وباب الفتوح وحارة برجوان وذكر في آخر كتاب وقفها أن الواقف أذن لمن حضر مجلسه من العدول في الشهادة ... [١] .

وقد حاكى سلاطين الأيوبيين وكبار رجال الدولة ومن بعدهم سلاطين المماليك ، صلاح الدين في إنشاء المدارس ، ولا يخفي علينا أن هذه المدارس كانت فيها العلوم الدينية لذلك قصد السلاطين من تأسيسها التقرب إلى الله . ومن أهم هذه المدارس :

١ ـ المدرسة الكاملية :

أنشأها السلطان الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٤ م . لتدريس الحديث النبوي ويقول المقريزى " أنه أوقفها على المشتغلين بالحديث النبوي ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية، ووقف عليها الربع الذي بجوارها على باب الخرنفش ، وكان موضعه من جملة القصر الغربي ، وكان موضع المدرسة سوقا للرقيق ، وأول من ولى التدريس بها " الحافظ أبو عمر بن المحسن بن علي بن دحيه ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن بن علي بن دحيه وكانا من المقربين للملك الكامل.[٢]

٢ ـ المدرسة الصالحية :

بناها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م وكانت أول مدرسة تجمع بين مذاهب أهل السنة الأربعة ويقول المقريزى أن هذه المدرسة " كان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقي ورتب فيها دروسا أربعة للفقهاء المنتمين للمذاهب الأربعة في مكان واحد وأول من درس بها من الحنابلة قاضي القضاه شمس الدين أبو بكر محمد بن العماد ابراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الحنبلي ، وكان لهذه

---

(١) المقريزى : مصدر سبق ح ٢ ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .
(٢) المقريزى : نفس المصدر ح ٢ ص ٣٧٥ .

المدرسة أوقافا كبيرة منها الصاغة التي تجاهها وأماكن يصرف ريعها جميعا على المدرسين الأربعة والطلاب ، والمعيدين وما يحتاج من أئمة ومؤذنين ، وغير ذلك ، وثبت ذلك الوقف على يد قاضي القضاه . (١)

٣ ــ المدرسة الفاضلية :

بناها القاضي الفاضل محي الدين أبو علي سنة ٥٨٠ هــ لتدريس المذهبين الشافعي والمالكي ، وكان القاضي الفاضل يعمل كاتب إنشاء لدى وزراء العهد الفاطمي ، ولما تولى صلاح الدين الوزارة استخلصه لنفسه واستعان به على ما أراد من إزالة الدولة الفاطمية ثم جعله وزيرا له ، وكاتب السر والإنشاء .(٢)

وقد جعل القاضي الفاضل لهذه المدرسة خزانة كتب تحوي مجموعة كبيرة من الكتب ، قيل أنها بلغت مائة ألف مجلد اشتراها من المكتبة الفاطمية، وقد بددت هذه المكتبة أيام الملك العادل كتبغا لأن الطلبة كانوا يبيعون الكتب ، مقابل الخبز الذي كان يصرف لهم ، حتى ذهب معظم ما كان بها ، وكان بها غرفة للقراء ، وكانت خزانة الكتب تحوى على مصحف كبير ، مكتوبا بالخط الكوفي وشاع أنه مصحف عثمان بن عفان ﷺ " وقيل أن القاضي الفاضل اشتراه بنيف وثلاثين ألف دينار على أنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وأفردت له خزانة خاصة . (٣)

ولما كانت سياسة الأيوبين ترمي إلى الإكثار من المدارس لتكون عوضا عن الأزهر ، والنهوض بالبلاد ، واعادتها إلى حظيرة الدولة العباسية السنية .

ومع ذلك فإن الأزهر ظل محتفظا بصفته كمسجد للقراء والدرس ،

---

(١) المقريزى : مصدر سبق ح ٢ ص ٣٧٤ .
(٢) المقريزى : نفس المصدر ح ٢ ص ٣٦٦ .
(٣) المقريزى : مصدر سبق ح ٢ ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

وبكثير من هيبته العلمية القديمة فكان مفتوحا للطلاب من كل مذهب ، كما كانت تدرس فيه العلوم الدينية ، والعقلية ، واللغوية ، على عكس المدارس التي أنشئت على أساس التخصص المذهبي .

وكان الأزهر مقصدا للعلماء البارزين ، ومن هؤلاء العلماء الذين وفدوا إلى مصر أيام الأيوبيين ، العالم والطبيب الرحالة " عبد اللطيف البغدادي " الذي وفد إلى مصر سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م وقام بتدريس المنطق والبيان بضع سنين في الأزهر ، الذي استرد بفضل حلقات هذا العالم الجليل ماضيه كجامعة [١] ، وربما ألقى بعض دروسه الطبية في حلقات خاصة ، وهناك ما يدل على أن العلامة والطبيب اليهودي موسى بن ميمون، الذي وفد إلى مصر في هذا الوقت ، وكان طبيبا خاصا لصلاح الدين ، قد ألقى دروسه في الأزهر في الرياضة والفلك ، وربما في الطب ، وقد اتصل به عبد اللطيف البغدادي . [٢]

كما شهد الأزهر جمهرة من العلماء في هذا العصر ، منهم " ابن الفارض ، وأبو القاسم المنفلوطي ، والشيخ شهاب الدين السهروردى ، والمؤرخ ابن خلكان ، وغيرهم " كما كان الأزهر مفتوحا للطلبة من جميع المذاهب السنية ، على عكس المدارس الأيوبية التي كانت تقوم على أساس التخصص في مذهب أو مذهبين . [٣]

---

(١) د / عبد العزيز الشناوي ، د / مصطفي رمضان ، د / السيد الدقن : بحث عن الأزهر وجامعته ، مقدم للسيد رئيس الجامعة ص ٥ ، أ . د / محمد السعدي مزهور .

(٢) عنان : مصدر سبق ص ١١٢ .

(٣) د / الشناوي : المرجع السابق ص ٥ .

الأزهر في عهد دولتي المماليك :

ظل الأزهر محروما من إقامة صلاة الجمعة طوال ثمان وتسعين سنة من سنة (٥٦٧ ــ ٦٦٥ هــ / ١١٧١ ــ ١٢٦٧ م) واستغرقت هذه السنوات حكم الدولة الأيوبية .

ولما تولى عرش دولة المماليك الأولى السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس (الأول) البندقدارى ، عرض عليه نائب السلطنة عز الدين آيدمر إعادة صلاة الجمعة في الأزهر ، فأبدي شعورا طيبا ، وطلب منه ، وضع مشروع يتضمن إعادة صلاة الجمعة وتعزيز الدراسات الدينية وفقا للمذهب الشافعي ، والدراسات اللغوية والأدبية وتبرع الأمير إلى جانب ما قدره السلطان بأموال وفيرة ، وقام بتجديد الأزهر وعمارته ، وتجميله وتأثيثه ، وأنشأ به مقصورة ومنبر جديدين ، ورتب جماعة من العلماء لتدريس الفقه على المذهب الشافعي ، ومدرس للحديث وسبعة قراء لتلاوة القرآن الكريم . وحبس الأوقاف للإنفاق منها ، واعيدت صلاة الجمعة فيه بتاريخ ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـــ / ١٧ ديسمبر ١٢٦٧ م . وكان يوما مشهودا حضره كبار رجال الدولة [(١)] .

وبتعاقب سلاطين دولتي المماليك على الحكم ، زاد إهتمامهم بالأزهر، ولقي رعايتهم ، فرصدوا له الأوقاف ، وأضافوا إليه منشآت معمارية زادت من مساحته ، وجعلوا لأروقة الأزهر نظاما ، بحيث يأوي إليها الطلاب الوافدون من أقاليم مصر ومن خارجها ، وكان أشدهم حماسة السلطان الأشرف قايتباى المحمودي (٨٨٢ ــ ٩٠١ هــ / ١٤٦٧ ــ ١٤٩٦ م) .[(٢)]

---

(١) المقريزى : مصدر سبق ح ٢ ص ٢٧٥ .

(٢) ابن إياس : محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هــ / ١٥٢٣ م ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ح ٢ ص ١٦٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ٢ القاهرة ١٩٨٢ م ،المقريزى : المصدر السابق ح ٢ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

مكانة الأزهر في العالم الإسلامي :

إجتذب الأزهر كبار العلماء المصريين من الكليات والجوامع الكبرى والذين وفدوا إلى مصر من شتى أرجاء العالم الإسلامي ، يلتف حولهم علماء الأزهر وطلبته .[١]

وكان من أشهرهم العلامة الفيلسوف المؤرخ " ابن خلدون " عبد الرحمن بن محمد ــ ولد في تونس في أول شهر رمضان ٧٣٢ هــ / ٢٧ من مايو ١٣٣٢ م لأسرة عربية من أصول يمنية استقرت عند الفتح الإسلامي في اشبيلية بالأندلس ، حيث شغلوا العديد من المناصب السياسية ، ثم انتقلت الأسرة إلى تونس واستقرت واختار والده العمل كفقيه بعيدا عن السياسة .[٢]

وبدأ ابن خلدون الكتابة وهو في العشرين من عمره ، فلخص أفكار بن رشد وغيره ، ثم عكف على كتابة " العبر " في تونس وفي فاس اشتغل بالعلم وتدريس العلوم [٣] .

جاء مصر أول شوال سنة ٧٨٤ هــ / ٨ ديسمبر ١٣٨٢ م على عهد أول دولة سلاطين المماليك الثانية ، وامتدت إقامته في مصر ثلاثا وعشرين سنة حتى جاز إلى ربه في القاهرة ٨٠٨ هــ / ١٤٠٦ م .[٤]

عمل استاذا بالأزهر ، وتولى القضاء قبل وفاته بأيام [٥] وقد تصدر ابن خلدون حلقات الدرس بالأزهر ، ودرس على يديه فريق من كبار العلماء

---

(١) عنان : مرجع سبق ص ١٢٧ .
(٢) طاهر الحمامى : حياة ابن خلدون ونشاطه السياسي ص ٣١٠ ، ابن خلدون ــ البحر المتوسط في القرن الرابع عشر ، قيام وسقوط إمبراطوريات ، الإسكندرية ــ مصر ــ مكتبة الإسكندرية طبع في القاهرة .
(٣) طاهر الحمامى : نفس المصدر ص ٣١٣ .
(٤) عنان : المرجع السابق ص ١٢٧ .
(٥) الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان ح ١ ص ٢٢١ .

ومنهم :

١ ــ القلقشندى صاحب الموسوعة الشهيرة " صبح الأعشى " المتوفى سنة ٨٢٤ هــ / ١٤١٨ م .

٢ ــ والمؤرخ المصري الشهير ــ المقريزى تقي الدين أحمد بن على صاحب الخطط الشهيرة المتوفى سنة ٨٤٥ هــ / ١٤٤١ م .

٣ ــ وابن تغريبردى ــ جمال الدين أبى المحاسن يوسف صاحب النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة المتوفى سنة ٨٧٤ هــ / ١٤٦١ م .

٤ ــ والسيوطى ــ جلال الدين عبد الرحمن أبى بكر المتوفى سنة ٩١١ هــ / ١٥٠٥ م وغيرهم الكثير من أقطاب الفكر والكتابة في مصر والعالم الإسلامي .(١)

وكان ممن وفد على مصر بعد ابن خلدون وتصدر حلقات الأزهر ــ العلامة المغربي محمد تقي الدين الفاسي المتوفى سنة ٨٤٢ هــ / ١٤٣٨ م وممن استمع إليه وأخذ عنه العلامة ابن حجر العسقلانى .(٢)

وقد تضافرت عدة عوامل جعلت الزعامة الفكرية للأزهر تمتد من النطاق المحلي داخل مصر إلى أرجاء العالم الإسلامي ومن هذه العوامل :

أولا : الغزو المغولي للشرق الإسلامي واقتحامهم بغداد سنة ٦٥٦هــ/ ١٢٥٨ م ، وابادة سكانها ، وأشعلوا النار في المدينة ، فأتت على تراث العباسيين ، وتراث الحضارة الإسلامية في الآداب والعلوم ، والفنون ، ثم قتلوا الخليفة المستعصم بالله (٣) وأصبح العالم الإسلامي يشعر بفراغ كبير

---

(١) عنان : مرجع سبق ص ١٢٧ .
(٢) نفس المرجع ص ١٢٨ .
(٣) ابن الغوطى : كمال الدين أبى الفضل عبد الرازق بن أحمد الشيبانى ت ٧٢٣ هــ / ١٣٢٣ م ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة =

بعد سقوط بغداد ، والخلافة على أيدي المغول ، الذين أحرقوا جوامعهم ومحو تراثهم ، وأصبحت بغداد قاعدة للمغول الوثنين .

وشاء القدر والظروف أن يهرب الأمير أحمد بن الخليفة الظاهر أبو نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله أحمد المستضيء لدين الله العباسي(١) إلى مصر ، وهو ومن معه ممن يشهدون على صحة نسبه . فلما دخل القاهرة استقبله السلطان بيبرس أحسن استقبال وبايعه هو ورجال الدولة ، ثم بايعه جميع الناس ، وكتب السلطان بيبرس لسائر الملوك والنواب خارج مصر ، ليبايعوا الخليفة الجديد ، والذي لقب بلقب المستنصر بالله ، وأمرهم أن يدعو له على المنابر (٢) وبذلك أخذت القاهرة مكان بغداد وحلت محلها في ريادة العالم الإسلامي ، وأصبح لحكامها مكانة مرموقة ، بوضعهم حماة الخلافة المتمتعين ببيعتها .

ثانيا : إنهيار الخلافة الأموية في الأندلس ، فقد خاضت الأمة الأندلسية صراعا ضد القوى المسيحية الصليبية في أسبانيا ، بحيث لم يأت منتصف القرن السابع الهجري ، الرابع عشر الميلادي ، إلا وتساقطت قواعد

=ص ٩، ٣٢ ، تصحيح وتعليق مصطفي جواد ، مطبعة الفرات ـــ بغداد ١٣٥١ هـــ / ١٩٣٢ م ، ابن كثير : عماد الدين إسماعيل بن عمر ت ٧٤٤ هـــ ١٣٧٢ م ، البداية والنهاية في = = التاريخ ح ١٣ ص ٢٠٣ ، مطبعة السعادة ـــ القاهرة سنة ١٣٥٨ هـــ / ١٩٣٩ م ، الهمزانى : رشيد الدين فضل الله ت ٧١٨ هـــ /١٣١٨= = م جامع التواريخ ، نقله إلى العربية د / محمد صادق نشأت ، و د/ فؤاد عبد المعطى الصياد ، د / محمد موسى هنداوى ، وزارة الثقافة ، الجمهورية العربية المتحدة مصر ١٩٦٠ م .

(١) يبدوا أن بعض الناس تشككوا في صحة نسب الخليفة الجديد على الرغم من الإحتياطات التي اتخذها السلطان الظاهر بيبرس ، وشهادة الشهود ... ، إلا أن المؤرخ أبو الفدا أشار في حوادث سنة ٦٥٩ هـــ / بقوله " وفي هذه السنة قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله بن الإمام الناصر وعبد الرحمن الرافعي ، و د / سعيد عاشور : مرجع سبق ص ٤٥١ .

(٢) المقريزى : مصدر سبق ح ٢ ص ٢٤٢ .

الأندلس، وثغوره في الشرق والغرب في الأيدي المسيحية .

وقد أدى هذا الإكتساح المسيحي الصليبي إلى نتيجتين هما : إندثار المعاهد الإسلامية التي كانت مزدهرة في هذه القواعد وانكماش الرقعة الإسلامية في اسبانيا فلم يبعد عنها سوى غرناطة ، تؤلف مملكة صغيرة في الجنوب ظلت تقاوم قرنين من الزمان حتى واجهت الفناء .

وكان هذان العاملان (سقوط بغداد ، وانهيار الحكم الإسلامي في اسبانيا ، (الأندلس) حدثين طارئين استفاد منهما الأزهر كجامعة ، فقد انتقل إلى مصر علماء المشرق الإسلامي ، وعلماء من المغرب الإسلامي شدهم الأزهر إليه . [١]

ثالثا : الثراء الذي تدفق على حكومة المماليك من حصيلة الرسوم الجمركية الباهظة على التجارة الشرقية في مرورها بالأراضي المصرية وهي في طريقها إلى أوربا فكان يصل ثمن السلعة عند خروجها من موانى مصر إلى أوربا أربعة أضعاف ثمنها الأصلي . [٢]

وقد غدا الأزهر بسبب هذه العوامل منذ أواخر القرن السابع أي منذ عفت معاهد بغداد ، وقرطبة في الأندلس ، كعبة الأساتذة والطلاب من سائر العالم الإسلامي ، حتى أطلق عليه في عصر المماليك العصر الذهبي للأزهر.

نظام الدراسة في الأزهر :

كان الجامع الأزهر يحتل مكانته الأولى بين الجوامع والمعاهد والمدارس العديدة ، فهو الجامعة الإسلامية الكبرى ، فتطلع أكابر العلماء إلى شرف الجلوس والتدريس فيه وكانت مناصب التدريس بالأزهر وغيره من

---

(١) عنان : مرجع سبق ص ١١٩ .
(٢) نفس المرجع ص ١٣٠ ، ١٣١ .

الجوامع والمدارس الكبرى تعتبر ــ كمنصب القضاء ــ من المناصب العلمية والدينية الرفيعة ، وكان الأستاذ يعين بمرسوم خاص ، وتسدي إليه النصائح برعاية مصالح الطلاب وتودع هذه المراسيم بالجامع أو المدرسة صاحبة الشأن .(١)

الأزهر في ظل الدولة العثمانية :

ظل الأزهر كجامعة أيام الحكم العثماني (١٥١٧ ــ ١٧٩٨م) محتفظا بتقاليده وحيويته ، واستمر موطنا للدراسات الدينية السنية وملاذ اللغة العربية وآدابها ، وكعبة علمية يحج إليها أعلام الفكر الإسلامي ، يتصدرون حلق الدراسة في رحابه ، ولم ينقطع عن الإلتحاق به الطلاب الوافدون من أنحاء العالم الإسلامي ليتعلموا الدراسات الدينية واللغوية والأدبية ، ويتعهدهم الأزهر بتوفير السكن والرعاية الكاملة دون مقابل مالي .(٢)

ومن الأسباب التي ساعدت الأزهر على مواصلة مسيرته العلمية أن الدولة العثمانية لم تتدخل في شئونه .

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية جعلت اللغة التركية لغة رسمية في معظم دواوين الحكومة ، ظلت اللغة العربية هي لغة الحلقات الدراسية ، وظلت الكتب العربية المصادر والمراجع المستخدمة في الأزهر .

وكان التغيير الذي أحدثه العثمانيون هو جعل المذهب الحنفي مذهبا رسميا في مصر بدلا من المذهب الشافعي ، وكانت المذاهب الأربعة تدرس في الأزهر من قبل ، وكانت نتيجة هذا التغيير ، هو الإقبال على دراسة المذهب الحنفي في الأزهر تطلعا إلى شغل مناصب القضاء ، والإفتاء ، ونظارة الأوقاف .(٣)

---

(١) عنان : نفس المرجع ص ١٣١ .
(٢) عبد العزيز الشناوي وآخرين : مرجع سبق ص ١٠ .
(٣) نفس المرجع ص ١١ .

الحركة العلمية في الأزهر أثناء الحكم العثماني :

تمتع الأزهر في العصر العثماني بمركز إنفرادي أكد قيادته ، وزعامته للحياة العقلية في مصر ، والعالم الإسلامي وقام بنشر الوان رفيعة من العلوم الإسلامية باللغة العربية ، وكان ذلك منشأ للعبارة التي ترددت على الألسنة أن للمسلمين قبلتين : قبلة دينية هي الكعبة الشريفة ، في مكة المكرمة ، وقبلة علمية هي الأزهر الشريف في القاهرة .(١)

وقد قام الأزهر كجامعة بدور بارز في تعميق الطابع العربي الإسلامي لمصر أثناء الحكم العثماني ، حين أسهم في دعم الترابط بين مصر وشقيقاتها البلاد الإسلامية في المشرق والمغرب ، فكانت تهوى إليه أفئدة كبار العلماء وجموع الطلبة من كافة أنحاء العالم الإسلامي ، فوفدوا عليه ، وكان العلماء الوافدون يتصدرون بعضا من الحلقات الدراسية في رحاب الأزهر بينما يتصدر العلماء المصريون البعض الآخر من هذه الحلق ، وتلقى دروسهم في موضوعات شتى تتصل بالثقافة الإسلامية العليا وكانت هذه الحلق دراسات جامعية .

وهكذا اجتمع في رحاب الأزهر أروع مظاهر الوحدة الثقافية بين شعوب الأمة الإسلامية ممثلة في الصفوة الممتازة من رجال الفكر الإسلامي، ويجعلون من الأزهر مركزا رئيسيا للإشعاع الفكري .(٢)

علماء وافدون تصدروا حلق الدرس أثناء الحكم العثماني :

كان الأزهر كعهده القديم مقصدا لأكابر العلماء الوافدين على مصر ، سواء من المشرق أو المغرب ، وكان أشهر من زاره في هذه الفترة :

١ ــ علامة المغرب الكبير : شهاب الدين المقرى ــ وينسب إلى بلدة

(١) د / عبد العزيز الشناوي : الأزهر جامع وجامعه جزءان ح ١ ص ١٧٠ ، الجزء الأول ــ القاهرة ١٩٨٣ ــ الجزء الثاني ــ القاهرة ١٩٨٤ .
(٢) د / الشناوي وآخرين : مرجع سبق ص ١٣ .

مقرة ، وهي بلدة من أعمال قسنطينة موطن أسرته ، وكان من مواليد مدينة تلمسان ـــ جاء إلى مصر سنة (١٠٢٧ هـــ / ١٦١٨ م) واستقر بها خمسة عشر عاما ، وكان خلال إقامته بمصر يلقى معظم دروسه في الحديث ، وله كتب كثيرة منها " نفح الطيب ، وأزهارها الرياض ، وإلى جانب هذين السفرين وضع عدة رسائل أخرى ، عبارة عن رسائل أدبية ودينية .

وكان المقرى أثناء إقامته بالقاهرة يعكف في رواق المغاربة على الكتابة والتأليف ، وهذا الرواق يضم مكتبة قيمة يبلغ عدد مجلداتها حوالى ثمانية آلاف مجلد من بينها عدد من نفائس المخطوطات ، أضاف عليها المقرى حواشي وتعليقات وشروح إضافية . وتوفي المقرى سنة ١٠٤١ هـــ/ ١٦٣٣ م .(١)

٢ ـــ وممن وفد إلى مصر والجامع الأزهر شيخ الإسلام في الديار الإسلامية عبد الغنى ابن إسماعيل ابن أحمد بن ابراهيم النابلسى الدمشقي الحنفي النقشبندى زار الجامع الأزهر في اليوم التاسع من جمادى الأول سنة ١١٠٥ هـــ / يناير ١٦٩٤م وكانت له إنطابعات عن الأزهر سجلها في كتاب له مخطوط اسمه (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر) ومما دونه في رحلته : " ثم ذهبنا فدخلنا الجامع الأزهر المعمور بالعلماء والصلحاء ، وقراء القرآن ، ودروس العلم ليلا ونهارا .... ثم إجتمعنا بالعلماء المدرسين، وحضرنا دروسهم ، فطلبوا منا أن نعمل لهم درسا في الجامع الأزهر ، في الحديث ، أو في شرح العقائد ، فاعتذرنا لهم بأنا مسافرون إلى بلاد الحجاز... " .

وقد عدد الجبرتى مؤلفاته ، وذكره على رأس أعيان العلماء والأكابر وذكر أنه توفى سنة ١١٤٢هـــ عن ثلاث وتسعين سنة (٢) .

---

(١) محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ص ٢٤٥ ، ٢٥٧ ، دار المعارف ـــ القاهرة ١٩٤٧ .

(٢) الجبرتى : عبد الرحمن ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ح ١ ص ١٥٤ ، ١٥٦ ، مطبعة الأنوار المحمدية .

٣ ــ وهناك رحالة عربي أندلسى أقام في المغرب يسمي الشيخ شهاب أحمد بن قاسم الحجازي ــ أدى فريضة الحج وفي عودته اقام في مصر سبعة أشهر سنة (١٠٤٦ ــ ١٠٤٧هــ / ١٦٣٦م) تردد خلالها على الأزهر وأتيحت له العديد من الفرص للإتصال بعلماء الأزهر ، وإقامة علاقات وطيدة معهم ، وأعجب بعلمهم الغزير وأشاد بفضائلهم ، ووضع وهو في القاهرة كتاب " رحلة الصحاب إلى لقاء الأحباب " وله كتاب أخر يسمى " ناصر الدين على القوم الكافرين " وهو " السيف الأشهر على كل من كفر " وتكلم فيه بإسهاب عن أحد علماء الأزهر هو الشيخ نور الدين الأجهورى (٩٦٧ ــ ١٠٦٦هــ / ١٥٥٩ ــ ١٦٥٥م) وأثنى عليه ووصفه بأنه من أكبر علماء المذهب المالكي وأن شهرته لم تكن مقصورة على مصر بل إمتدت إلى البلاد الإسلامية الأخرى .(١)

وكان من العلماء أعلام الأساتذة الذين تولوا التدريس في الأزهر في العهد التركي وهم :

١ ــ نور الدين علي البحيرى المتوفى سنة ٩٤٤هــ .

٢ ــ شهاب الدين ابن عبد الحق السنباطى المتوفى سنة ٩٥٠م .

٣ ــ الامام شمس الدين الصفدى المقدس الشافعي المتوفى في حدود ٩٩٠هــ .

٤ ــ الشيخ أبو المعالى حسين بن علي مفتي مكة المتوفى سنة ١١٧٦هــ / ١٧٦٢م وغيرهم الكثير من العلماء الأفاضل .(٢)

وهناك ما يدل على أن نظام المعيدين الذي كان معروفا بالأزهر منذ العصور الوسطي كان ما يزال قائما في العصر التركي ، وهذا التقليد متبعا في النظام الجامعي الحديث .(٣)

---

(١) الشناوي : الأزهر جامعا وجامعة : مرجع سبق ح ١ ص ٢٣٨ .
(٢) عنان : مرجع سبق ص ١٣٧ .
(٣) عنان : نفس المصدر ص ١٥٠ .

المواد التي كانت تدرس في الأزهر :

مما يذكر أن بعض الكتب التي كانت تدرس بالأزهر خلال القرن الثاني عشر الهجري ، الثامن عشر الميلادي ، نذكر منها : " الأشمونى ، وابن عقيل ، والأزهرية وشروحها ، والشذور ، وكتب التوحيد مثل شرح الجوهرة ، وشروح النوسية الكبرى والصغرى ، وبعض كتب المنطق ، هذا عدا كتب الحديث والتفسير المعروفة .[١]

---

(١) الشناوي وآخرين ص ١٦ .

موقف الحملة الفرنسية من الأزهر :

تعرضت مصر للغزو الفرنسي سنة ١٢١٣ ـــ ١٢١٦هـــ / ١٧٩٨ ـــ ١٨٠١م . ونظر نابليون بونابرت ـــ قائد الحملة ـــ إلى الأزهر على أنه أشهر جامعة في العالم الإسلامي وقرر في مذكراته التي كتبها في منفاه بجزيرة سانت هيلانه : " أن الأزهر يقابل جامعة السربون في باريس " كما نظر إلى علماء الأزهر نظرة إجلال ، وإحترام على أساس أن لهم صفتين :

الأولى : أنهم الصفوة الممتازة من الطبقة المستنيرة في البلاد .

الثانية : أنهم زعماء الشعب [١] فأدرك نابليون ما لهم من نفوذ في الشعب ، ومكانة في الأمة . واستشعر أنه لكي يسوس المصريين لابد من وسطاء يسعون بيننا وبينهم ، وكان لابد أن يقيم منهم زعماء يوجهون الأمة برأيهم ، فاتخذ نابليون الزعامة الروحية لعلماء الأزهر واتخذ منهم سسبيلا للتفاهم مع الشعب والف منهم الديوان للفصل في القضايا .[٢]

تأليف الديوان :

في يوم الخميس ١٣ من صفر سنة ١٢١٣هـــ وقع الإتفاق على انتخاب الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ خليل البكرى ، والشيخ مصطفي الصاوي ، والشيخ سليمان الفيومي ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ موسى السرسي ، والشيخ مصطفي الدمنهورى ، والشيخ أحمد العريشي ، والشيخ يوسف الشبراخيتي ، والشيخ محمد الدواخلى ، ثم انتخب الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيسا له .[٣]

---

(١) تقويم جامعة الأزهر في عشر سنوات : مصدر سبق ص ٤١ .
(٢) محمد كامل الفقى : الأزهر وأثره في النهضة الأدبية ح ١ ص ٤٤ ، ٤٥ ، المطبعة المنيرية بالأزهر ـــ القاهرة .
(٣) الجبرتى : مصدر سبق ح ٣ ص ١٣ .

ثم أن هذا الديوان قد عطل أثناء المفاوضات التي كانت قائمة بين الفرنسيين والأتراك لعقد معاهدة العريش فقد كان الفرنسيون يعتزمون الرحيل إذا نفذت المعاهدة ولكنها نقضت ولم يفكر " كليبر " في إعادة الديوان ، فلما قتل وآلت القيادة إلى " مينو " أعاد الديوان في صورة أخري ، وعلى ترتيب جديد إذ أصبح مكونا من تسعة أعضاء ... وهم الشيخ الصاوي ، وكاتبه والشيخ موسى السرسى ، والشيخ خليل البكرى والسيد علي الرشيدى نسيب ساري عسكر ، والشيخ الفيومي ، والقاضي الشيخ إسماعيل الزرقانى وكاتب سلسلة التاريخ السيد إسماعيل الخشاب ...ألخ .(١)

ثم أجريت القرعة فكان الشيخ الشرقاوى رئيسا والشيخ المهدي كاتبا للسر ، وكان بجانب الديوان الأول ديوان أخر سمى محكمة القضايا للنظر في قضايا التجار والعامة . (٢)

وكثيرا ما كان الفرنسيون يذيعون كلما إقتضى الحال باسم العلماء نداءات ومنشورات لتهدأ بها العواصف وتسكن الفتن ، ومن ذلك ما كتب في شهر جمادى الآخرة سنة ١٢١٣هـ ووزع في مختلف الأمكنة ...... " نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة ، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ... عليكم ألا تحركوا الفتن ، ولا تطيعوا المفسدين ، ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الشرار ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرؤون العواقب لأجل أن يحفظوا أوطانكم ، وتطمئنوا على عيالكم ، ودنياكم ، فإن الله سبحانه وتعالى يولى ملكه من يشاء ويحكم ما يريد ، ونخبركم أن كل من تسبب في تحريك هذه الفتنة قتلوا عن أخرهم ، وأراح الله منهم العباد والبلاد ، ونصيحتنا لكم ألا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم ، وادفعوا الخراج الذي عليكم ،

(١) نفس المصدر ح ٣ ص ١٤ .
(٢) نفس المصدر ح ٣ ص ٣٠ .

والدين النصيحة فتكون سببا في إسكان الفتن والقلاقل .[١]

وكثير من أمثال هذه النداءات كان الفرنسيون يذيعونها باسم علماء الأزهر ، كما كانوا يذيعون ما يتخذ في الديوان من قرارات يراها أعضاؤه فتكون سببا في إسكان الفتن والقلاقل .[٢]

استعانة محمد علي باشا بعلماء الأزهر :

كان لعلماء الأزهر بعد جلاء الفرنسيين عن مصر شأن يذكر في تعضيد محمد علي ، وتأييده في المطالبة بولاية مصر ، وفي المعارضة في عزله ، وكان لموقفهم أثره في توطيد مركزه ، وذلك بالتعاون مع الزعيم الوطني السيد عمر مكرم واشترك شيخ الجامع الأزهر يومئذ الشيخ عبد الله الشرقاوى والسيد عمر مكرم في الباس خلعه الولاية لمحمد علي ، وذلك في صفر سنة ١٢٢٠هـ / مايو ١٨٠٥م .[٣]

ومنذ ذلك التاريخ توجهت همة محمد علي إلى نهضة جديدة ، ولم يكن الأزهر يدرس الطب البشرى ، أو الصيدلة ، أو الهندسة وغير ذلك من العلوم المدنية .

البعوث العلمية :

لقد كرس محمد علي كل جهوده واهتمامه لبرنامجه الجديد في انشاء المدارس لكل هذه الفروع ، وارسال البعوث العلمية إلى أوربا من طلبة الأزهر ، كما استمدت المدارس التي أنشأها لتحقيق النهضة ، حاجتها من هؤلاء المبعوثين .

وهكذا نشأت بمصر طبقة جديدة من المفكرين والعلماء والأدباء

---

(١) نفس المصدر ح ٣ ص ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) الفقى : مرجع سبق ص ٤٦ .
(٤) عنان : مرجع سبق ص ٢٨٨ .

وأخذت الحياة الفكرية والإجتماعية المصرية تتطور نحو الإتجاه الجديد .

ومن بين طلاب هذه البعثات عدد من طلاب الأزهر وكان منهم نوابغ مثل رفاعة بك رافع الطهطاوي ، إمام البعثة الأولى ، وصاحب الفضل في إنشاء مدرسة الألسن الشهيرة ، وابراهيم بك النبراوى ، أحد نوابغ البعثة الطبية ، وأحمد حسن الرشيدى بك من أكابر خريجي مدرسة الطب ، وغيرهم ممن تلقوا دراستهم الأولى في الأزهر .[١]

برنامج البعوث :

لقد رسم " محمد علي " طرفا من المنهاج الذي تسير عليه البعوث والدوافع التي دفعت إلى إرسالها وذلك حيث قال للدكتور ـ بورنج ـ مندوب الحكومة الإنجليزية . إن أمامي الشيء الكثير لأتعلمه ، وكذلك شعبي، فأنا مرسل إلى بلادكم أدهم بك ثاني مدير لديوان المدارس ومعه خمسة عشر شابا مصريا ، ليتعلموا ما يمكن بلادكم أن تعلمه ، فعليهم أن ينظروا إلى الأشياء بأنفسهم ، وأن يمرنوا على العمل بأيديهم وعليهم أن يفحصوا مصنوعاتكم جيدا وأن يكشفوا عن أسباب سبقكم ورقيكم حتى ما إذا أمضوا وقتا كافيا في بلادكم عادوا إلى بلادهم وعلموا شعبي .[٢]

نفقات البعوث :

كان " محمد علي " سخيا جوادا في الإنفاق على هذه البعوث حريصا على أن يكونوا في مظهر كريم ، وفي ذلك يقول الشيخ رفاعة الذي كان إماما للبعثة سنة ١٨٨٦م ، إننا كنا نعد من الموسرين لتجملنا بالملبس الغريب عندهم لنسبتنا لولى النعم ، ولكثرة هذا الإنفاق في تعليمنا وغيره من سائر ما ذكرنا ، كان ناظر التعليم أو الضابط يذكرنا به في أغلب الأوقات لنجتهد .[٣]

---

(١) عنان : نفس المصدر ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .
(٢) الفقى : مرجع سبق ص ٧٠ .
(٣) الفقى : نفس المرجع ص ٧٠ .

وقد بلغ عدد البعوث التي أرسلت في عهد محمد علي أفراد وجماعات بين سنة ١٨١٣ ـــ ١٨٤٩م ٣١٩ شخصا أنفق عليهم ٢٢٣,٢٣٣ جنيها .

وعمد إلى نوابغهم فاتخذ منهم معلمين في المدارس ومترجمين بها وأطباء للجنود ، وموظفين للحكومة ، وعمالا في الإدارات ، وتعددت المدارس وكانت تابعة في أول أمرها للعسكرية فأنشأ لها إدارة خاصة سنة ١٨٣٦م سماها ديوان المدارس وهي التي سميت بعد ذلك نظارة المعارف.(١)

وهكذا كان فضل الأزهر عظيما على محمد علي في إنشاء نظام التعليم الحديث ، ونجد كثيرين من النابغون سواء في الطب ، أو الرياضيات ، أو الزراعة ، أو اللغة الفرنسية ، وغيرها كانوا من طلبة الأزهر .(٢)

وكان لأبناء الأزهر أعظم الفضل في إحياء الموسوعات والمصنفات العربية ، والتي قامت مطبعة بولاق في القاهرة بإصدارها منتصف القرن التاسع عشر ، وكما أن إخراجها من أعظم العوامل في إحياء تراثنا العربي الإسلامي .(٣)

وكان البارزون من أبناء الأزهر هم الذين وضعوا أسس النهضة الثقافية الحديثة في مصر .

تنظيم الدراسة بالأزهر :

إتجه العلماء والمسئولون في العصر الحديث إلى إصلاح الأزهر وتطويره حتى لا يتخلف عن ركب الحضارة ، ويستكمل مسيرته التي نشأ من أجلها منذ أكثر من ألف عام .

ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر أخذ الأزهر يتأثر بتيار

---

(١) جورج زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٣٨٢ ، منشورات دار مكتبة الحياة ـــ بيروت ـــ لبنان ١٩٩٢.

(٢) د / الشناوي وآخرين : مرجع سبق ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) سيدة كاشف : مرجع سبق ص ٧٠ .

الحركة الفكرية الإسلامية الجديدة التي نمت بمصر ، بفضل جهود العالم الكبير " جمال الدين الأفغاني " الذي قدم إلى مصر سنة (١٢٨٨هـ / ١٨٧١م) وأخذ يعقد حلقات دروسه في الجامع الأزهر .

ففي عام ١٢٨٨هـ صدر أول قانون نظامي في رسم كيفية الحصول على الشهادة العالمية ، وحدد موادها .

وكان هذا القانون خطوة عملية في حياة الأزهر ، وتنظيم الدراسة في معاهده ، وكلياته ، ونص هذا القانون على أن التعليم العالي بالأزهر يشمل الكليات التالية : كلية أصول الدين ، كلية الشريعة ، كلية اللغة العربية .

كما أن للشيخ محمد عبده الفضل في استصدار قانون سنة ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م لإصلاح الأزهر وتطوير الجامعة وإدخال العلوم الحديثة فيها بحيث لا يقطع الأزهر صلته بالتراث الإسلامي وفي الوقت نفسه يسير في ركب الحضارة والتقدم .[١]

وفي ٥ مايو ١٩٦١م صدر القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م وهو القانون الخاص بتنظيم الأزهر ، والهيئات التي يشملها .

وبمقتضى هذا القانون قامت في رحاب الأزهر جامعته العلمية التي تضم عددا من الكليات العلمية مثل كلية التجارة والطب والهندسة والعلوم والزراعة وطب الأسنان ، كما فتحت أبواب الدراسة بالجامعة للفتيات المسلمات بإنشاء فرع أخر يسمي " فرع البنات " حيث لا يوجد الإختلاط يضم كليات " الدراسات الإنسانية ، والدراسات الإسلامية " وباقي الكليات كما هو متبع في فرع البنين .[٢]

---

(١) د / الشناوي وآخرين : مرجع سبق ص

(٢) دليل جامعة الأزهر : مرجع سبق ص ٤٢ .

رسالة جامعة الأزهر :

تختص جامعة الأزهر بكل ما يتعلق بالتعليم العالي الجامعي في الأزهر ، والبحوث التي تتصل بهذا التعليم أو ما يترتب عليه .

والدراسة بجامعة الأزهر تجمع بين الأصالة والمعاصرة ، فلم تطو التراث لتبدأ من جديد ، ولم تعكف على الحديث دون النظر إلى القديم ، وتهتم جامعة الأزهر بالجوانب الآتية :

١ ــ أن تظل كما كانت أكبر جامعة إسلامية منذ أكثر من ألف عام .

٢ ــ أن تخرج علماء تهيأوا بكل أسباب العلم والخبرة في جميع المجالات .

٣ ــ حفظ التراث الإسلامي ودراسته ونشره .

٤ ــ أداء رسالة الإسلام إلى الناس والعمل على إظهار حقيقته وأثره في تقدم البشر .

٥ ــ العمل على تزويد العالم الإسلامي بالعلماء العاملين الذين يجمعون إلى الإيمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح لتأكيد الصلة بين الدين والحياة .... والربط بين العقيدة والسلوك ، وتأهيل العلماء للمشاركة في كل أنواع النشاط والإنتاج ، والدعوة في سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة في داخل مصر ، وخارجها .

٦ ــ العناية بتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات والهيئات العلمية الإسلامية والعربية ، والأجنبية .

٧ ــ أن تعمل جامعة الأزهر على تحقيق الوحدة الفكرية بين أبناء العالم الإسلامي وتنمية إنتمائهم للإسلام ، وأن تفتح أبوابها لهم .

واليوم وبعد أن وصلت الجامعة إلى مرحلة أصبحت فيها أكبر

الجامعات المصرية وربما العالمية ، من حيث الطلاب وعدد الكليات ، فإن الجامعة إحساسا بمسئوليتها تجاه العالم الإسلامي تفخر بأن تقدم لطلابها الخدمة التعليمية الشاملة في شتى مجالات العلوم الحديثة بالإضافة إلى كلياتها الأصلية المتميزة التي تنفرد بها وهي كليات " أصول الدين ، والشريعة والقانون واللغة العربية " .

كما تسعي الجامعة في متابعة التطوير والتحديث ، وإدخال التقنيات الحديثة ، بالإستعانة بالخبرات العالمية في هذا الصدد سواء بالنسبة لأعضاء هيئة التدريس أو الطلاب ، وفي هذا المجال فإن جامعة الأزهر ــ مواكبة منها للتطورات المستخدمة ــ فأنشأت العديد من الوحدات والمراكز البحثية الجديدة لتكمل مسيرتها التعليمية والبحثية ، وكلاهما تصب في جودة الأخرى، وتدعم خطواتها الجادة نحو مزيد من التقدم العلمي خدمة للأمة العربية والإسلامية .(١)

أجل لقد نظمت الدراسة وأنشئت كليات جديدة ، وأعدت للطلبة مساكن حديثة للسكني والدراسة ، بنوعيها للبنين والبنات ــ في مدينة نصر ، كما أقيمت مدينة البعوث الإسلامية للطلاب الوافدين من جميع بلدان العالم .

كما أن هناك رعاية صحية للطلاب على مستوى راق ولو أدى إلى العلاج في الخارج ــ في الحالات المستعصية ــ ومن أجل ذلك أنشئت الإدارة الطبية للبنين والبنات ومستشفى للطلبة ، هذا بخلاف المستشفيات التابعة لكليات الطب ، بنين وبنات .

وتتميز جامعة الأزهر الشريف بوجود أعداد كبيرة من الطلبة المسلمين الوافدين من كافة أنحاء العالم لتلقى الخدمة التعليمية التي تقدمها الجامعة سواء في مرحلة التعليم العالي أو مرحلة الدراسات العليا في كليات الجامعة

(١) تقويم جامعة الأزهر لسنة ٢٠٠٧ ــ ٢٠٠٨م ص ٩ ، إعداد العلاقات العامة بالجامعة .

المختلفة .

ومن المعروف أنه يتم ترشيح الطلاب الوافدين عن طريق المنح المقدمة من الأزهر الشريف ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، إلى جميع الدول الأفريقية ، والبعض يحضر للتعلم على نفقته الخاصة .

والجداول الآتية توضح أعداد الطلاب المصريين والوافدين وأعضاء هيئة التدريس والموظفين الذين يقومون على خدمتهم وآداء مصالحهم في جميع كليات الجامعة التي يبلغ عددها ٦٢ كلية تنتشر في ١٦ محافظة من محافظات جمهورية مصر في العام ٢٠٠٧ / ٢٠٠٨م .(١)

إجمالي الطلبة المصريين	إجمالي الطلبة الوافدين
٣٨٥,٧٥٢	١٥,٧٠٥

إجمالي الطلاب الوافدين	إجمالي الطالبات الوافدات
١١,٧٩٤	٣,٩١١

إجمالي عدد طلاب الجامعة	إجمالي أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم
٤٠١,٤٥٧	١١,٢٧٧

أعداد الموظفين
٦,٥١٧

(١) دليل جامعة الأزهر لسنة ٢٠٠٧ / ٢٠٠٨م ص ٨٠ ، ٨١ .

المصادر والمراجع

أ – المصادر

١ – ابن الأثير – أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزري ٦٣٠هـ / ١٣٣٠م الكامل في التاريخ – دار الكتاب العربي – بيروت .

– إبن إياس – محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م .

٢ – بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط (٢) القاهرة ١٩٨٢م .

– ابن تغريبردى – جمال الدين أبى المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٦م.

٣ – النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب مصر ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م .

– الجبرتي – عبد الرحمن

٤ – عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، مطبعة الأنوار المحمدية – القاهرة .

– ابن جبير – أبو الحسن محمد بن أحمد ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م .

٥ – رحلة ابن جبير ، دار التحرير للطباعة والنشر – القاهرة ١٣٥٨هـ / ١٩٦٨م .

– ابن الفوطى – كمال الدين أبى الفضل عبد الرازق بن أحمد الشيبانى ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م .

٦ – الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة – مطبعة الفرات بغداد ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م .

– ابن كثير – عماد الدين اسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م .

٧ – البداية والنهاية في التاريخ – مطبعة السعادة القاهرة ١٣٥٨هـ /

١٩٣٩م .

ـــ المقريزى ـــ تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـــ / ١٤٤١م .

٨ ـــ المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ط (٢) ، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ١٩٨٢م .

ـــ الهمزانى ـــ رشيد الدين فضل الله ٧١٨هـــ / ١٣١٨م .

٩ ـــ جامع التواريخ ـــ نقله إلى العربية د / محمد صادق نشأت و د / فؤاد عبد المعطى الصياد و د / محمد موسى هنداوى ، وزارة الثقافة الجمهورية العربية المتحدة مصر ١٩١٠م .

ب ـــ المراجع

جورج زيدان

١ ـــ تاريخ آداب اللغة العربية ، منشورات دار مكتبة الحياه بيروت ـــ لبنان ١٩٩٢م .

أ . د / حسن إبراهيم حسن

٢ ـــ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ط (٧) ، مكتبة النهضة المصرية ـــ.القاهرة ١٩٦٤م .

طاهر الحمامى

٣ ـــ حياة إبن خلدون ونشاطه السياسي ، ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر ـــ قيام وسقوط إمبراطوريات ـــ مكتبة الإسكندرية ـــ طبع القاهرة .

عبد الرحمن الرافعي و د / سعيد عبد الفتاح عاشور

٤ ـــ مصر في العصور الوسطي ، دار النهضة العربية ـــ القاهرة ١٩٩٢م.

أ . د / عبد العزيز الشناوي

٥ ـــ الأزهر جامع وجامعه ، جزءان : الجزء الأول القاهرة ١٩٨٣م ، الجزء الثاني القاهرة ١٩٨٤م .

أ . د / عبد العزيز الشناوي و أ . د / مصطفى رمضان ، أ . د / السيد الدقن .

٦ ــ بحث عن الأزهر ، وجامعته ، مقدم للسيد أ . د / رئيس الجامعة سنة ١٩٧٣م .

عفاف صبره

٧ ــ المدارس في العصر الأيوبي ، من أبحاث ندوة المدارس في مصر الإسلامية إبريل ١٩٩١م ــ سلسلة تاريخ المصريين (٥١) أعدها أ . د / عبد العظيم رمضان .

محمد عبد الله عنان ــ الأستاذ المؤرخ

٨ ــ تاريخ الجامع الأزهر ، مطبعة لجنة التأليف ، والترجمة ، والنشر ط (١) القاهرة ١٢١٦هــ / ١٩٤٢م .

٩ ــ تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، دار المعارف ــ القاهرة .

د / محمد كامل الفقى

١٠ ــ الأزهر وأثره في النهضة الأدبية ، المطبعة المنيرية بالأزهر ــ القاهرة .

دوريات :

١١ ــ تقويم جامعة الأزهر في عشر سنوات ١٤١٢هــ / ١٩٩٢م ، إعداد نخبة من أساتذة جامعة الأزهر والعلاقات العامة .

١٢ ــ تقويم جامعة الأزهر سنة ٢٠٠٧هــ / ٢٠٠٨م إعداد العلاقات العامة ــ جامعة الأزهر .



الفصل السادس (١)

الأندلـــــس

(١) إعداد د : فوزى عارف إبراهيم على ـ المدرس بقسم التاريخ والحاضرة بكلية اللغة العربية بالقاهرة جامعة الأزهر .



الأندلـــس

مركز من مراكز الحضارة الإسلامية

كانت الأندلس التي تشمل شبه جزيرة آيبريا تابعة لروما القديمة إلى أن تمكن القوط [١] الذين أتوا إليها في شكل هجرات متتالية من الإستيلاء عليها ، وقد أطلق على الجماعة الأولى اسم الوندال ، وسميت البلاد في عهدهم " فاندولوسيا " أي بلد الوندال وسماها العرب " بلاد الأندلس " .

وقد ظل الوندال يحكمون الأندلس إلى أن هاجمهم القوط الغربيون ، وتمكنوا من طردهم إلى أفريقية سنة ٤٥٦م ، واستطاعوا بسط سلطانهم على الأندلس كلها في نهاية القرن الخامس الميلادي ، وقد اتخذ القوط مدينة " طليطلة " عاصمة لملكهم ، وتأثروا بالحضارة والأنظمة الرومانية في قوانينهم ونظمهم ، واعتنقوا المسيحية ، وظلوا يحكمون الأندلس إلى أن قدم المسلمون وتغلبوا عليهم سنة ٩٢هـ / ٧١١م .

وقد ساد البلاد خلال حكم القوط وضع شاذ من الناحية الإجتماعية والاقتصادية حيث كان المجتمع مقسمًا إلى طبقات يتحكم بعضها في البعض الآخر بعنف وقسوة هي ما يلي : ـ

طبقة النبلاء :

وكان معظمهم من القوط ، وكانوا يشكلون مع رجال الدين الطبقات العليا ، وقد أطلق عليهم لقب **Clasas Elevadas** ، وقد حازوا ضياعًا واسعة **Latifundia Villae** ، وآلت إليهم ثلثا الحيازات الرومانية **Fundi**

---

(١) القوط : هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية التي هبطت من شمالي أوربا وقوضت صروح الإمبراطورية الرومانية ، وقد ظلوا يحكمون الأندلس حتى مقدم العرب إليها سنة ٩٢هـ / ٧١١م .
محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس : ١ / ٢٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠١م .

بينما احتفظ الرومان بالثلث وتمتعوا إلى جانب ذلك بإمتيازات قضائية ، وشاركوا في عضوية مجمع طليطلة **Toledo** الديني والمجلس الملكي **Aula Regia** .

ومع أنه كان من حق الذين يرجعون إلى أسر غير عريقة أن يرفعوا إلى درجة النبالة ، إذا أظهروا مواهب معينة ، فإن الاستقراطية بدت في أواخر القرن السابع وراثية ، وكان ملوك القوط ينتخبون من بين النبلاء ، ويعد هذا النظام من أسباب الفوضى العامة في البلاد [١] ، وقد حاولت الكنيسة حل هذه المشكلة فأعلنت أن ذات الملك مصونة لا تمس ، كما سعى بعض الملوك إلى الأخذ بمبدأ الوراثة على أن ذلك لم يجد شيئًا [٢] ، وإذا كان فامبا **Wamba** قد تقلد السلطة في سنة ٦٧٢م على غير إرادته ، فإنه في سنة ٦٨٠م أُرغم على النزول عن العرش لصالح إرفيج **Erwigius** .

طبقة رجال الدين :

وفيما يتعلق بطبقة رجال الدين فقد أعفيت أراضيهم وممتلكاتهم من أداء الضرائب وتوجه ثلث إيرادهما للصرف والإنفاق على الكنائس وثلث آخر لحاجات الأسقف ، بينما ذهب الثلث الأخير لمن هم دونه ، كما كان للكنيسة دخلها الخاص بها من العشور والهبات ، حيث أشارت قرارات المجامع إلى أن الثلث الخاص بالصرف على الكنائس كان غالبًا ما ينفق في مصارف أخرى .

وعقب اعتناق ريكاريدو **Recaredo** المذهب الكاثوليكي سنة ٥٨٧م ،

---

(١) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٢١ ، ٢٢ ، القاهرة ، ١٩٥٩م ، والسيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، ص ٦٢ ، مؤسسته شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٩٧م .

(٢) عبادة كحيلة : تاريخ النصارى في الأندلس ، ص ١٢ ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م .

ازدادت سطوة الكنيسة ، وتدخلت على نحو سيء في الصراعات على العرش وشارك يليان **Julian** مطران طليطلة في عزل فامبا سنة ٦٨٠م الأمر الذي حمل عددًا من المؤرخين المحدثين إلى اتهامه بالخيانة والغدر ، وإلى وصف الدولة بأنها دولة يمتطيها القساوسة (١) .

وعلى صعيد الأوضاع الداخلية للكنيسة ، فلم تكن خالية من التصرفات المعيبة ، فالقوانين التي صدرت بخصوص عزوبة رجال الدين ، تعني أنها كانت مشكلة دائمة ، كما أن القرارات المتتابعة لمجامع طليطلة تدل على أنه مازالت توجد معاقل للوثنية في معظم إنحاء إسبانيا (٢) .

طبقة الأحرار :

وكان الأحرار **Jngenui** تفصلهم عن النبلاء هوة واسعة ، وكان الحرفيون والتجار منهم – وتجمعهم نقابات مهنية Collegia – يعانون من الضرائب المجحفة ، مما حمل عددًا كبيرًا منهم على الهرب إلى مناطق الريف .

وكان الريف في الحقبة الرومانية عبارة عن حيازات صغيرة كثيرة . لم تلبث أن أدمجت في الضياع الكبيرة لدى مقدم القوط ، حيث أن ملاكها شعروا بحاجتهم إلى العملية إزاء تيار الفوضى العام الذي اجتاح البلاد ، فنزل بعضهم عن ملكياتهم وألجأوهم إليهم ، وأضحوا مجرد مستأجرين لها، وعرفوا باسم المحميين **Buccellarii** ،وكان لهؤلاء الحرية في أن يتركوا خدمة السيد إلى سيد آخر، بيد أنه كان عليهم أولاً أن يعيدوا الأرض إليه أولاً.

---

(١) Murphy , f .x : Julian of Toledo and the fall of the visigothic kingdom in spain specu jum. vol . xxv١١ , n .١ , january . ١٩٥٢ . p p . ٢ -٩.
د / عبادة كحيلة : تاريخ النصارى : ص ١٢ .

(٢) King , p . d : lew and society in the visigothic kingdon . cambridge univ press ١٩٧٢ . p . ١٤٧ .

طبقة العبيد :

على أن عامة سكان الريف كانوا من الأقنان **Coloui** والعبيد **Servi**، ولم يمكن للقن حرية الحركة ، وكان عليه ـــ أيضًا ـــ أن يدفع ضريبة الرأس **Capihatio** ، وليس له أن يتزوج دون موافقة سيده ، فإذا فعل فصلت عنه زوجه ، وعندما كان يتزوج بسيدة من ضيعة غير ضيعته تقسم الذرية بين الضيعتين ، وقد جرى العرف على انخراط الأقنان في الجيش ، حتى فاق عددهم في أواخر القرن السابع الميلادي عدد الأحرار ، وبات الدفاع عن الوطن يعهد به إلى جنود يؤثرون التواطؤ مع العدو على الحرب ، لا أن يدافعوا عن ظالميهم .

أما العبيد فقد ازداد عددهم زيادة كبيرة في القرن السابع ، بعد أن دخل فيهم عدد من الأقنان ، ومما ينهض دليلا على سوء أحوالهم ما صدر من قوانين كثيرة ضد الأقنان والعبيد الآبقين ، ولم تسع الكنيسة إلى حل مشكلة العبيد ، بل كانت تحثهم على طاعة أسيادهم ، وكان موقفها في عهد الدولة الهرطقة الأريوسية ، أفضل من موقفها فيما بعد ، عندما أعلنت الكاثوليكية عقيدة رسمية للبلاد ، وآلت إلى الكنيسة ـــ على أثر ذلك ـــ ضياع كثيرة يعمل بها عدد كبير من العبيد .

وكان العبد لدى تحريره يصير معتقًا **Libertus** ، لكن حاله لم تكن تختلف كثيرًا عن ذي قبل ، فأصبح ليس من حقه الشهادة ضد حر ، وإذا تزوج رقيقًا صار أولاده رقيقًا ، وغالبًا ما كان يخضع لحماية سيده السابق ، وتوضح قرارات المجامع أن معتنقي الكنيسة مازالوا مرتبطين بالأرض التي نشأوا بها عبيدًا .

طبقة اليهود :

يضاف إلى الطبقات السابقة ، طبقة اليهود ، فقد كان القوط عند قدومهم يدينون بالأريوسية وسط شعب من الكاثوليك ، فسمحوا لليهود بحرية

العقيدة ، ولم يتدخلوا في حياتهم الخاصة وتركوهم ينظمون أمورهم وفق تقاليدهم وقوانينهم .

بيد أنه عندما أعلن ريكاردو الكاثوليكية مذهبًا رسميًا للبلاد في سنة ٥٨٧م تعرض اليهود لحملة متصلة من الإضطهاد ، وصلت إلى ذروتها في أواخر القرن السابع ، ففي المجمع الثاني عشر سنة ٦٨١م تقرر مصادرة كل من لا يتضر من اليهود وتعذيبه ونفيه ، وتطبيق هذه الجزاءات على الذين يعمدون ، ولا يتركون الطقوس اليهودية [١] .

وفي المجمع السادس عشر سنة ٦٩٣م أمر إخيكا **Egica** بأن يبيع اليهود بأسعار يحددها لهم الملك عبيدهم وعقارهم وأراضيهم وكرومهم ، كما ضوعفت عليهم الضرائب ، وعندما راجت شائعات بأن اليهود يتآمرون مع من هم وراء البحر (العرب) **Los Transmarinos** ، سارع إخيكا فعقد المجمع السابع عشر في العام التالي ، وأتهمهم بالخيانة وأعلنهم عبيدًا وصادر أملاكهم ، وأمر بأن يؤخذ منهم أطفالهم لينشأوا مع النصارى ويتزاوجوا معهم ، وإزاء تلك الأوضاع اضطر عدد من اليهود إلى الهرب من البلاد ، بينما وقع البعض الآخر في الرق [٢] .

كانت تلك صورة عامة للمجتمع الإسباني بطبقاته كافة في عهده القوطى ، ومنها يتبين لنا أن هذه الطبقات كانت طبقات مغلقة [٣] **Estate** ، فلم يوجد فيما بينها حراك إجتماعي[٤] أو يسمى بالترابط بينها **Social Mobility** ، بمعنى أن كل طبقة من هذه الطبقات كان لها عالمها الخاص

---

(١) Encyclopaedia judaica . jerusalem , keter puplishing house , ١٩٧٤ . vol . xv .p . ٢٢٠ .

(٢) عبادة كحيلة : تاريخ النصارى : ١٥ .

(٣) محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع ، ص ١٦٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ١٩٧٩م .

(٤) إبراهيم بيومي مذكور : معجم العلوم الاجتماعية ، ص ١٢١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

بها ، وليس لها أن تتجاوزه ، ثم إن حكام القوط أنفسهم عاشوا بمعزل عن أهل البلاد . حيث تؤكد الكشوف الأثرية الحديثة أن معظم تمركز القوط كان في شمال القسم الأوسط من الميسيتا **Meseta** الإسبانية ، أي ما يعرف اليوم بقشتالة القديمة **Castilla Lavieja** ، ولم ينتشروا في سائر شبه الجزيرة الأيبرية ، على أن هذا كان سببه ما ورثه القوط عن الرومان من أوضاع سيئة في الجانب الإقتصادى ، زادوها هم سوءا ، حيث كانوا يختصون أبناء الشعب الإسباني بمعظم الضرائب ، فضلاً عن السخرة **Munera** ، ولم يكن القوط يميزون بين الملكية الخاصة بالملك وبين الملكية العامة .

وإذا أضفنا إلى ما سبق ما كان يسود البلاد من قلاقل وفتن في الداخل، وحروب متصلة في الخارج أدركنا إلى أي مدى كانت تعانى إسبانيا تحت حكم القوط وقبل مقدم العرب إليها .

بيد أن بعض حكام القوط بذلوا جهودا متأخرة نحو الإصلاح ، كانت ترمى إلى توحيد العقيدة والقانون والتزاوج مع الرومان على أن هذه المحاولات جاءت متاخرة ، وكانت تحتاج لعدة سنين حتى يتحقق أثرها .

ويذهب بعض الكتاب المحدثين إلى أن حكام القوط لم يكونوا إسبانا في يوم من الأيام ، بل كانوا مصدرا للنكبات التي حاقت بإسبانيا على مر العصور ، وإذا كان النفور بين الإسبان وبين القوط سببًا في هزيمة الأواخر في موقعة فوييه Vouille أمام الفرنجة سنة ٥٠٧م ، فإنه كان أيضًا سببًا في هزيمتهم أمام العرب سنة ٧١١م ، وبدا الأمر لدى مقدم هؤلاء كأنه ثورة شعبية ضد حكام أجانب [١] .

الفتح الإسلامي للأندلس :

ثمة عوامل غاية في الأهمية هيأت الأوضاع للمسلمين للإقدام على فتح

---

(١) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ١٦ ، وعبادة كحيلة : تاريخ النصارى ، ص ١٦ .

الأندلس ، يأتي في مقدمتها الاضطراب السياسي إبان حكم القوط ، فلقد وثب رودريجو ــ أحد القادة العسكريين ــ على الملك غيطشة ، وانتزع الملك منه مما دفع أولاده أن يلجأوا إلى حاكم سبته " يوليان " كما عملوا على الإتصال بالمسلمين في المغرب وكان قائدهم ــ وقتذاك ــ موسى بن نصير .

وقد زاد الحال سوءًا ــ كما تقدم ــ لجوء رجال الدين المسيحي إلى جمع الأموال ، التفنن في ذلك ، فضلاً عن اقتنائهم الضياع الواسعة المعفاة من الضرائب ، كما تشبهوا بالنبلاء في إرهاق العبيد والأحرار ، إضافة إلى إضطهادهم اليهود وتعذيبهم ، حيث فرضوا عليهم اعتناق المسيحية قسرا في مدة محددة ، وإلا كان مصيرهم النفي والمصادرة لممتلكاتهم ، كما ساد الإضطهاد جميع عناصر الشعب من رجال القصر والنبلاء وعاملوا المزارعين معاملة العبيد والإقنان وحرموهم ثمرة كدهم وتعبهم واستولوا على محاصيلهم ، وفرضوا الضرائب الباهظة والمكوس المرتفعة على طبقة التجار والصناع [١] .

يضاف إلى ما سبق عدة عوامل توافرت للمسلمين من جانبهم منها ما يلي :

استقرار إقدام المسلمين في أفريقية واعتناق البربر للإسلام وحماستهم لحمل دعوته وبذلهم أرواحهم بسخاء في سبيل ذلك وحبهم في أن يكون لهم من الجهود في سبيل دعوة الإسلام مثل ما للعرب المسلمين .

فضلاً عن اليقظة والحذر اللذين اتصف بهما المسلمون بمحاولة التعرف على البلاد عمليًا بتوجيه بعض الحملات الخفيفة السريعة التي تعرف بها طبيعة البلاد وحالة أهلها وتعجم عودها وتعطى للمسلمين جسارة على

---

(١) ابن عذارى المراكشى (أبو عبد الله محمد) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ٢ / ٧ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٥٠م ، والمقرى : (شهاب الدين محمد بن التلمسانى) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ١ / ٢٣٦ ، القاهرة ، ١٩٤٠م ، محمد المنسى عاصى : تاريخ المغرب والأندلس : ٨٤ ، دار الإتحاد التعاونى ، القاهرة ، ١٩٨٧م .

مواجهة عددهم .

كما ساعد على ذلك تعريف مقر الخلافة بخطة الفتح وإحاطتها علمًا بمجريات الأمور لتكون على أهبة الاستعداد للمعاونة وإرسال المدد إذا لم تنجح خطة الفتح وذلك يعطى للحملة صفة الشرعية المستمدة من مقر الخلافة الساهرة على حماية الإسلام وتعاليمه وتبليغها للعالمين .

كما بذل المسلمون جهدهم لتكوين دار صناعة (ترسانة بحرية) واسطول بحرى في الشمال الإفريقي بدأه حسان بن النعمان ، كما واصل موسى بن نصير التوسع في تكوين الأسطول ، حيث أخذ في عمل السفن حتى صار لديه منها عدة كثيرة .

وأخيرًا ما يذكر عن يوليان حاكم مدينة سبتة ورجاله ، حيث كان يدل المسلمين على العورات ويتجسس لهم الأخبار جراء ما فعله به لذريق [١] .

---

(١) د / محمد محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس : ١٥٦ ، ١٥٧ ، دار الوفاء للطباعة ، القاهرة (د . ت).
وتحدثنا المصادر على أن سبب معاونة يوليان ورجاله للمسلمين في فتح الأندلس يعود إلى عدة أمور منها :
١ ــ أنه : ــ أي ــ يوليان كان يمت بصلة قرابة ونسب إلى غيطشة وأسرته وهو الذي اغتصب لذريق العرش منه .
٢ ــ أن أقرباء غيطشة اتصلوا سرًا بيليان ، والتمسوا منه أن يتصل بالعرب ويطلب منهم فتح الأندلس ، اعتقادًا منهم بأن العرب الطارقون للأندلس لا حاجة لهم في استيطانه بعد فتحه ، وأن مرادهم ملأ أيديهم من الغنائم ثم يخرجوا عنها لأصحابها، وفي أثناء ذلك زعموا أن حادثا وقع وقتئذ عجّل بالفتح ، وكان عاملا في إقدام يليان على طلب العون من العرب في حماس غريب ، وتحريضهم على فتح الأندلس ، فلقد كان ليليان ابنة على حظ كبير من الجمال اسمها " فلورندا " وكان قد بعثها ــ شأنها في ذلك شأن غيرها من بنات الأمراء والنبلاء ــ إلى بلاد الملك بطليطلة للتأدب بأدب الملوك ، فوقعت الفتاة موقعا حسنا في عيني الملك " لذريق " ويقال أنه استكرهها على نفسها ، فاحتالت الفتاة على إبلاغ أبيها سرًا بما أصابها ، فغضب يليان ، وعزم على الإنتقام مما دفعه على الإتصال بالمسلمين . السيد سالم : تاريخ المسلمين : ٦٧ .

بتوافر العوامل السابقة مع سوء الأوضاع العامة في إسبانيا تحت حكم القوط ، أصبحت الفرصة سانحة للمسلمين لفتح إسبانيا ، وقد تحقق ذلك بجهود موسى بن نصير وقائدة طارق بن زياد وقوامة جندهم من البربر والعرب ، ودخلت الأندلس في حوزة المسلمين عقب فتحها سنة ٩٢هـ / ٧١١م .

اهتمام الخلفاء بالحضارة والعلم :

استقرت أقدام المسلمين في الأندلس عقب فتحها ، فتوزعوا مناطق سكناها فيما بينهم ، وشهدت الأندلس في هذا العصر الذي تبع الفتح الإسلامي مباشرة تنوعًا في العناصر التي ضمتها إسبانيا الإسلامية من حيث الجنس والعقيدة والثقافة ، فلقد ضمت الأندلس مع العرب الفاتحين (البلديون) ، والعرب الوافدين (الداخلون) ، جماعة من الإسبان المسالمة ، ـ أي الذين دخلوا في الإسلام ـ ، والعجم الذميين أو المستعربين ، ـ وهم الذين بقوا على دينهم في ظل الحكم الإسلامي ـ ، ثم طائفة المولدين ، ـ وهم نتاج التزاوج بين رجال العرب ونساء الإسبان ـ ، ثم البربر الذين دخلوا مع طارق بن زياد أو الذين هاجروا من بلاد المغرب وأخيرًا طائفة اليهود .

وتشهد العديد من المصادر التاريخية أن الأندلس عشيةً دخول المسلمين فيها واستقرارهم على أرضها بدأت عهدًا جديدًا من الإشعاع الحضاري الذي انعكس بدوره على أوروبا كلها ـ خاصة ـ وأن أوروبا كانت تئن في ظلمات العصور الوسطي وقتذاك .

وتجدر الإشارة إلى أن اهتمام الحكام والخلفاء المسلمين بالجانب الحضاري في الأندلس بدأ منذ دخولهم إليها ، فوجهوا جهودهم إلى تأمين وسائل التعليم لأفراد المجتمع الأندلسي ، فكان عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر عهدًا زاهرًا شهد المجتمع الأندلسي فيه نهضة واسعة في ميدان العلم.

ولا ريب أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أسهم بجهد بارز في النشاط

العلمي ، وإن كانت المصادر التاريخية ـ قلما نشير ـ إلى هذا على عكس ما ذكرته من معلومات وفيرة لابنه الخليفة الحكم المستنصر ، ورغم ذلك فإن هناك إشارات أوردها الدارسون المحدثون تشير إلى جهد الخليفة الناصر في هذا الصدد ، وأنه كان في عصره في قرطبة وحدها قرابة ثمانين مدرسة عليا .

والحق : أن الخليفة الحكم المستنصر هو أجدر بالتنويه والإشارة إلى دوره في هذا الصدد بما قدمه وأسداه للحركة العلمية ، والعمل على رفع شأن العملية التعليمية في الأندلس وتوفيره وتيسيره لرعيته حيث أمر بإنشاء سبعة وعشرين مكتبًا يلحق ثلاثة منها بالمسجد الجامع بقرطبة ، وفرق الباقي على أرباض قرطبة وعين العلماء والفقهاء للقيام بالتدريس للأطفال في تلك المكاتب وأجرى عليهم المرتبات وأغدق عليهم الصلات وبالغ في تعليم أطفال المسلمين (١) .

وقد كان لجهد الحكم المستنصر في خدمة العملية التعليمية ودفع عجلة النشاط والتطور فيها أثره البالغ في أوساط المجتمع الأندلسي ، حيث لهجت الأندلس بشكره والثناء عليه والإشارة بفضله على العلم وأبنائه حتى أنشد أحد شعراء بلاطه وهو ابن شخيص قائلاً :

وساحة المسجد الأعلى مكللة ... مكاتبًا لليتامى من نواحيها
لو قلت سور القران من كلم ... نادتك يا خير تاليها وراعيها(٢)

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب : ٢ / ٢٤٠ ، ٢٤١ ، إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، ص ٧١ ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة ١٩٧٨م ، وزيغرد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ، ٤٩٩ ، تعريب فاروق بيضون ، وكمال دسوقي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٦٩م .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق : ٢ / ٢٤١ ،وسعد عبد الله صالح البشرى ، الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس (٣١٦هـ ـ ٤٢٢هـ / ٩٢٨م ـ ١٠٣٠م) ص ١٤٦ ، ١٤٧ ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامية ، مكتبة الملك فهد ، المكتبة العربية السعودية ١٤١٥هـ .

ولم يقتصر دور الخليفة المستنصر في خدمة النشاط العلمي على ما سبق ، بل كان يسعى إلى الأفضل في سبيل الرقي بالمستوى العلمي لرعيته، حيث يحدثنا المؤرخ " ابن عذارى " في هذا الصدد : أنه في سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤م – أي قبل وفاته بسنتين – حبس حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء .

وتدلنا رواية ابن عذارى على أنه كانت تعقد بعض حلقات العلم والدرس ليلاً وفي ذلك دليل على مدى عناية الأندلسيين بالعلم وصبرهم على المشقات في سبيل تحصيله ، وعلى هذا يكون الخليفة الحكم المستنصر قد أتاح الفرصة لجميع أفراد المجتمع في الإفادة بما هيأه لهم من سبل لاكتساب المعرفة وتلقى العلم ، حيث لم يعد العلم قاصرًا على ذووى القدرة من الناس، بل أصبحت فرص التعلم متاحة لكل راغب فيه [١] .

والحق أن الأندلسيين كانوا يتمتعون بميل ورغبة شديدة نحو العلم والتعلم والمعرفة – خاصة بعد ما نعموا بالتسامح الإسلامي في ظل حكم المسلمين لهم – وما وفره لهم الحكام المسلمون من امكانات ووسائل لهم ، فكان من الطبيعي أن يكون هذا حافزًا شديدًا لهم في التسابق إلى ميادين العلم والمعرفة وتحصيل العلوم والآداب .

وعقب وفاة الخليفة الحكم المستنصر ٣٥٠هـ ، وتولى الحاجب المنصور بن أبى عامر أمور الدولة الإسلامية تحت حكم الخليفة الصغير " هشام المعتد " لم يكن المنصور أقل ممن سبقه في الإهتمام والعناية بالجانب العلمي ، بل عُرف عنه أنه من رواد الحركة الفكرية ، وأنه كان لنشأته العلمية أثر كبير في تشجيعه العلم وإكرامه العلماء ، كما كان محبًا لمجالسهم حريصًا على صداقتهم وصحبتهم في حله وترحاله ، حيث يشير " عبد الكريم التواتى " إلى أن المنصور سار على نهج الخليفة الحكم من حيث الإهتمام

---

(١) سعد عبد الله : الحياة العلمية ، ١٤٧ .

بالتعليم وتوفيره للرعية وأنه كان يحضر أحيانًا حلقات الدروس ويستفسر الطلاب عن مشاكلهم ويحثهم على اكتساب المعرفة ويمنح المتفوقين منهم المكافآت السخية والمنح والعطايا (١) .

وتجدر الإشارة إلى وجود تباين واضح بين حال المجتمع الأندلس ونظيره الأوربي ــ وقتذاك ــ بما يجعلنا نشعر بالفخر والتقدير لذلك الشعب الذي لم يرتض لنفسه ذل الجهل وسطوة الأمية ، فكان الشعب الأندلسي في ذلك العصر يمثل شعلة متوهجة بنور المعرفة ، وكان مما يسر النفس ألا ترى طفلاً أو طفلة بلغت الثامنة عشرة ولم تتزود بالعلم الكافي على الأقل لتأهيلها للقراءة والكتابة (٢) .

وفي الوقت الذي لم يكن في أوروبا غير قلة بسيطة من الرهبان ممن يعرف القراءة والكتابة كان كل فرد في الأندلس تقريبا يقرأ ويكتب ويلم ولو بقدر من ألوان المعرفة (٣) .

وقد أدرك الغربيون مدى ما كان يتمتع به جيرانهم من العرب الأندلسيين من حضارة زاهرة وتطور علمي باهر ، فلم يخفوا اعجابهم بذلك ومن بينهم المستشرقة " زيغرد هونكة " التي تحدثت عن مدينة قرطبة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، حيث وصفتها بأنها سيدة التمدن بل وأكبر مدن أوروبا كلها مما حوته من مظاهر الحضارة الفكرية والعمرانية حيث كان بها ١١٣,٠٠٠ منزل ، ٦٠٠ مسجد ، ٣٠٠ حمام ،

---

(١) عنان : دولة الإسلام في الأندلس : ٢ / ٧٠٣ .
(٢) جلال مظهر : علوم المسلمين أساس التقدم العلمي الحديث ، ص ٨١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠م ، وسامي مكي العاني: دراسات في الأدب الأندلسي ، ص ٩٥ ، ساعدت الجامعة المستنصرية على نشره ١٩٧٨م.
(٣) محمد ماهر حمادة : المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها ، ص ٩٩ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٧٨م .

٨٠٠ مدرسة عليا ، ٢٠ مكتبة فيها عشرات الألاف من الكتب [١] ، ولأهمية قرطبة كنموذج للإشعاع الحضاري بكافة جوانبه في أوروبا سنخصها بشيء من التفصيل فيما يلي : ــ

قرطبة مركز من مراكز الحضارة في أوروبا :

تقع مدينة قرطبة على سفح جبل يسمى " العروس " [٢] من جبال "سيراموربنا " أو الجبال السوداء ، وتحتل سهلاً فسيحًا يقع بين هذه الجبال والوادي الكبير ، وفي هذا الوادي يزرع الزيتون ومختلف أنواع الثمار والأشجار ، فكان نهر قرطبة وفقًا لما جاء في "المسهب للحجاري" : " مكتنفاً بديباج المروج ، مطرزًا بالأزهار ، تصدح في جنباته الأطيار وتنعر النواعير ويبسم النوار " [٣] ، وتمتد عمارة قرطبة على الضفة اليمنى لهذا الوادى الذي ينحنى في مجراه انحناءة طفيفة نحو الغرب مؤلفا أهم طريق طبيعي في جنوبي إسبانيا ، وتعتمد قرطبة في ثروتها على الزراعة ، ــ خاصة ــ في سهلها الجنوبي المعروف بالكنبانية أو القنبانية ، وأهم محاصيلها الزراعية الزيتون الذي تقوم عليه كثير من الصناعات كاستخراج الزيوت وزراعة الفواكه ، وخاصة الرمان السفرى [٤] .

كذلك اشتهرت قرطبة بمعادنها الكثيرة وأهمها الفضة والزئبق ، وحجر الشادنة الذي يستخدم في صناعة الذهب ، كما تكثر في جبالها مقاطع الرخام الأبيض الناصع والخمري اللون [٥] .

---

(١) زيغرد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب : ٤٩٩ ، وسعد عبد الله : الحياة العلمية : ١٤٩ .

(٢) الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم) : صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبرالأقطار " ص ٥٣ ، نشره الإستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧م .

(٣) المقرى : نفح الطيب : ١ / ١٤٦ ، والسيد سالم : تاريخ المسلمين : ٢٩٢ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب : ٢ / ٢٠٠ ، والمقرى : المصدر السابق : ١٥/٢، والسيد سالم : المرجع السابق : ٢٩٢ .

(٥) المقرى : المصدر السابق : ١ / ١٣٨ ، ١٨٦ ــ ١٨٧ .

يبدأ تاريخ قرطبة الإسلامي منذ عهد ولاية السمح بن مالك الخولاني على الأندلس سنة ١٠٠هـ / ٧١٩م ، وهو الذي رفعها إلى مصاف الحواضر الكبرى ، وأهم ما يمكن التعرض له في هذه الفترة بناء السور القديم المهدم المقام حول المدينة .

فقد كان السور الروماني القديم قد هدم في بعض جوانبه وصارت المدينة مباحة للداخلين والخارجين ، فأعاد السمح بن مالك بنائة بمادة اللبن مع استخدام الحجارة الضخمة المتخلفة من الأجزاء المهدمة في إعادة بناء قنطرة قرطبة التي تعتبر من أهم الآثار في هذه المدينة ، إلى أن حدث أن سقطت عقود هذه القنطرة وكانت تبلغ سبعة عشر عقدًا ، فجددها السمح بن مالك بأمر من الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١هـ)، وكانت هذه القنطرة تصل بين مدينة قرطبة وضاحيتها على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير وبعد إصلاحها توسعت المدينة وتجاوزت سورها وأصبحت أكثر مدن أوروبا من حيث عدد السكان وعدد المساكن .

وقد تألقت قرطبة منذ أن اتخذها الأمير عبد الرحمن الداخل حاضرة له ولأبنائه من بعده ، وأصبحت في عهده مهد الحياة الرفيعة ومصدر الحضارة السامية وموطن الفلاسفة والشعراء ومركز الفنون والآداب ، وكانت أكثر مدن أوروبا سكانًا ، حيث بلغت على عهد الخلافة الأموية تطورًا عمرانيًا لا مثيل له في دول الغرب المعاصرة التي كانت ترزح في ظلمات الجهل والإنحطاط ، وبلغ عدد سكان قرطبة في أزهى عصورها (عصر عبد الرحمن الناصر) نحو نصف مليون نسمة وفقًا للإحصائيات [(١)] .

كما بلغت قرطبة على الأخص على عهد الخليفة الحكم المستنصر مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه حاضرة أخرى من قبل ، وقد وصفها

---

(١) السيد سالم : تاريخ المسلمين ، ٢٩٣ ، وجاسم بن محمد القاسمي : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، ص ٣٢ ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ٢٠٠٠ .

مؤرخو العرب وجغرافيوهم أبدع وصف ، وأشادوا بعظمتها وتفوقها على سائر المدن الأندلسية ، فيقول الحجارى في المهب : " كانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام ، ومجتمع أعلام الأنام ، بها استقر سرير الخلافة المروانية ، وبها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية ، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، ونهرها من أحسن الأنهار ، مكتنف بديباج المروج ، مطرز بالأزهار تصدح في جنباته الأطيار ، وتنعر النواعير ويبسم النوار ، وقرطاها الزاهرة والزهراء حاضرتا الملك وافقاه النهاء والسراء ، وإن كان قد أضنى عليها الزمان وغير بهجة أوجهها الحسان ، فتلك أعادته ، وسل الخورنق والسدير وعمدان [١] ، وفي موضع آخر يقول : "حضرت قرطبة منذ افتتحت الجزيرة هي كانت منتهى الغاية ، ومركز الراية، وأم القرى ، وقرارة أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام وحضرة الإمام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض ، وأعلام العصر ، وفرسان النظم م النثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائعة وصنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب في تبريز الفوم حديثًا وقديمًا على من سواها أن أفقهم القرطبى لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب " [٢] .

وكانت قرطبة وفقًا لما ذكره المؤرخ "ابن سعيد" أكثر بلاد الأندلس كتبًا وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب [٣] ، وهكذا أعزم أهل قرطبة بإقتناء الكتب حتى كانت الكتب من أروج متاجرها فقيل : " إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة

---

(١) المقري : نفح الطيب : ١ / ١٤٦ .
(٢) المقري : المصدر السابق الموضع نفسه .
(٣) نفسه : ٢ / ١٠ .

فأريد بيع آلاته حملت إلى أشبيلية "[١] ، وقد ذكر ابن غالب الأندلسي : " أن قرطبة قاعدة الأندلس وأم المدائن ، وقرار الخلافة ، ودار الملك ، تجبى ا الثمرات كل جهة ، وخيرات كل ناجية واسطة من الكورة وموفية على شاطىء النهر ، مشرفة رائقة موفقة ، نهرها ساكن في حرية ، لين في انصبابه ، بقبلتها بطاح سهلة ، ويجوفها الجبل المنيف المسمى بالعروس ، المغروس بالكروم وسائر الأشجار وأنواع الأزهار "[٢] .

على أن أروع ما بلغته قرطبة من العمران والتمصير كان زمن الخلافة الأموية ، حيث ذكر "المقرى" نقلاً عن بعض المؤرخين أن دور قرطبة بلغت في عهد المنصور بن أبى عامر ٢١٣٠٧٧ دارًا للعامة و ٦٣٠٠ دارًا للأكابر والوزراء والكتاب والأجناد بالإضافة إلى مصارى الكراء والحمامات والخانات ، وبلغ عدد حوانيت قرطبة ٨٠٥٥٥ حانوتا ، وبلغ عدد حماماتها ٩١١ حماما ، وقيل ٧٠٠ حمام ، وعدد مساجدها ٣٨٧٧ مسجدًا [٣] ، وقيل ١٨٣٦ مسجدًا [٤] .

على أن مدينة قرطبة ظلت في ازدهار حتى سقطت الخلافة الأموية وتركت بعدئذ لمصيرها التعس ودخلها البربر عام ١٠١٠م مع سليمان المستعين الأموي حين استولى عليها في بداية عهده الذي افتتحه بالقهر وسفك الدماء ، فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة هدموا آثارها ، وسلبوا محاسنها، ومحوا كثيرًا من رسومها ، وتتابعت عليها المحن والفتن حتى كانت أيام "الأدريسي" فوصفها قائلاً : " ...... وبعد ذلك طحنتها النوائب واعتورتها المصائب وتوالت عليها الشدائد والأحداث ، فلم يبق من أهلها إلا البشر

---

(١) المقرى : نفح الطيب : ١ / ١٤٧ .
(٢) ابن غالب الأندلسي : فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس : ص ٢٦ ــ ٢٧ ، نشره : لطفي عبد البديع ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، والسيد سالم : تاريخ المسلمين : ٢٩٦ .
(٣) المقري : المصدر السابق : ٢ / ٧٨ ــ ٧٩ .
(٤) ابن غالب الأندلسي : المصدر السابق : ٢٧ .

اليسير على كبر اسمها وضخامة حالها ..... "[١] .

وعلى الرغم من ذلك استطاعت قرطبة أن تحتفظ ببعض عظمتها وتفوقها في المجال الفني والصناعي ، ففي المجال الفني كان جامع قرطبة مركزا للحج في الأندلس ، يفد إليه المسلمون أيام الموحدين لزيارته والتبرك به والإحتفال فيه بليلة القدر ، يدل على ذلك ما ذكره ابن صاحب الصلاة الولينى : " .... وإني شخصت إلى حضرة قرطبة ــ حرسها الله تعالى ــ منشرحا الصدر بحضور ليلة القدر ، والجامع ــ قدس الله تعالى ــ قبعته ومكانة ، وثبت أساسه وأركانه ، قد كسي أسنان ..... "[٢] ، وفي المجال الصناعي ظلت مدرستها في الحفر على الخشب مزدهرة في عصر الموحدين بدليل أن الخليفة الموحدى أمر صناعها بصناعة وزخرفة منبر جامع الكتيبة بمراكش، وفي المجال الأدبي نبغ من رجالها في الشعر أبو عبد الله محمد بن مسعود القرطبى في القرن الخامس الهجري ، وأبو بكر يحيي بن سعدون بن تمام الأزدى القرطبى ، وأحمد بن مسعود بن محمد الخزرجى القرطبى في القرن السابع ، كما اشتهر من شعرائها : أبو الحسن علي بن يوسف بن خروف القرطبى في عهد الموحدين ، وأبو جعفر أحمد بن شطرية القرطبى ، واشتهر من قضاتها أبو الوليد أحمد بن رشد المتوفى سنة ٥٦٣هـ وغيرهم[٣] .

وفيما يتعلق بجامع قرطبة الذي اشتهرت به حاضرة الأندلس فيعد من الوجهة الفنية أعظم وأروع أمثلة العمارة الإسلامية في العصور الوسطي ، كما يعد من الوجهة العلمية أكبر جامعة إسلامية تدرس فيها علوم الدين

---

(١) الشريف الإدريسي : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ص ٢١٢ ، نشره دوزي ، ودى جوجة ، ليدن ، ١٨٦٦ ، والسيد سالم : تاريخ المسلمين : ٢٩٦ .
(٢) المقرى : نفح الطيب : ٢ / ٩٠ .
(٣) السيد سالم : تاريخ المسلمين : ٢٩٧ .

واللغة ، وكان يفد إليها طلاب المسلمين والمسيحيين على السواء للدرس والتحصيل ، ولقد وصفه مؤرخو العرب وصفًا رائعًا ، وأبرزوا عمارته ، وصوروه بقدر ما أمكنته بلاغتهم التعبير عنه ، ويعد أروع ما قيل في وصف جامع قرطبة ما ذكره "الحميرى" نقلاً عن الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق : " وفيها المسجد الجامع المشهور أمره الشائع ذكره من أجل مصانع الدنيا كبر مساحة وإحكام ضعة ، وجمال هيئة وإتقان بنية ، تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة ، وتتميمًا إثر تتميم ، حتى بلغ الغاية في الإتقان ، فصار يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف [(١)] .

ويعكس ما ذكره الحميرى ــ فيما سبق ــ جهود المسلمين من أمراء بنى أمية في الأندلس في إلحاق زيادات متتالية بجامع قرطبة حتى أصبح يضم أبنية من عصور مختلفة ، وصار بحق متحفًا للفن الأندلسي منذ عهد عبد الرحمن الداخل الذي قام بتأسيسه سنة ١٦٩هـ / ٧٧٥م ، إلى أن أتمَّ الحاجب محمد بن أبى عامر بناء زيادته في سنة ٣٧٧هـ .

كذلك ومن الأوصاف الرائعة لجامع قرطبة وصف إبراهيم بن صاحب الصلاة الذي تسنى له زيارة قرطبة في عصر الموحدين فوصفه قائلاً : " ... وإني شخصت إلى حضرة قرطبة حرسها الله منشرح الصدر بحضور ليلة القدر ، والجامع قدَّس الله بقعته ومكانه ، وثبت أساسه وأركانه قد كسي ببرودة الإزدهاء ، وجلى في معرض البهاء ، كأن شرفاته فلول في سنان ، أو أشرفي أسنان ، وكأنما ضربت على سمائه كلل ، أو خلعت على أرجائه حلل، وكأن الشمس خلفت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطارها أفياءها ، فترى نهارًا قد أحدق به ليل ، كما أحدق بربوه سيل ليل دامس ، ونهار شامس وللذبال تألق كنضنضة الحيات ، أو إشارة السبابات في التحيات ... والشمع قد رفعت على المنار رفع البنود ، وعرضت عليها عرض الجنود ،

---

(١) الحميرى : صفة جزيرة الأندلس : ١٥٣ .

ليجتلى طلاقة روائها القريب والبعيد ، ويستوى في هداية ضيائها الشقي والسعيد ... " [١] .

على أن أروع ما جاء في وصفه للجامع الأموي بقرطبة الفقرة الخاصة بقباب الجامع ومحرابه وجاء نصيها : " وظهور القبات مؤللة وبطونها مهللة وكأنها تيجان وضع فيها ياقوت ومرجان ، قد قوس محرابها أحكم تقويس ، ووشم بمثل ريش الطواويس ، حتى كأنه بالمجرة مقرطق وبقوس قزح ممنطق ، وكأن اللازورد حول وشومه ، وبين رسومه ، نتف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلل الغمام "[٢] .

وقد بدأ الشروع في تأسيس الجامع بقرطبة على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م ، واستطاع أن يكمله في عام واحد ، ولما تولى عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الإمارة سنة ٢٠٦هـ / ٨٢٢م ، أضاف إلى الجامع بلاطين جانبين عام ٨٣٤م ، ثم مد بلاطات الجامع كلها جنوبا مسافة ستة وعشرين مترا ، وذلك عام ٨٤٨م ، وقد سايرت هذه الزيادة أسلوب المسجد الأول في البناء والزخرفة ، ولم تشذ عنها إلا في زخرفة المساند الملفوفة ، أما الزيادة الثالثة فتمت على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، إذ وسع فناء الجامع ، وأقام له مئذنة ضخمة من الحجر سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م ، ولما كانت خلافة الحكم المستنصر تضاعف عدد سكان قرطبة ، وضاقت المدنية بمن وفد عليها من بربر العدوة من زناتة ، ولم يعد المسجد الجامع يتسع لجموعهم الغفيرة ، فاضطر الخليفة الحكم المستنصر إلى توسيع المسجد من جهة القبلة عام ٩٦م ، وعهد إلى حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلي مهمة الإشراف على إحضار الأحجار من جبال قرطبة ، وبهذه الزيادة كملت بمحاسن الجامع ، وصار في حد يقصر

---

(١) المقرى : نفح الطيب : ٢ / ٩٠ ــ ٩١ ، والسيد سالم : تاريخ المسلمين : ٣٠٨ .

(٢) المقري : المصدر السابق : ٢ / ٩١ .

الوصف عنه ، وفي عام ٩٨٧م كانت الزيادة الأخيرة في جامع قرطبة على يدي المنصور بن أبى عامر ، وبها اكتملت لجامع قرطبة صورته الأخيرة ، فلما سقطت قرطبة عام ١٢٣٦م ، تحول المسجد الجامع إلى كاتدرائية ، وهدم جزء من إضافة عبد الرحمن الأوسط وإضافة المنصور عام ١٠٢٣م وأقيم مكانهما كنيسة وهي التي عبر عنها شارلكان بقوله : " لو كنت قد علمت بما وصل إليه ذلك لما كنت قد سمحت بأن يمس البناء القديم ، لأن ما بنيتموه موجود في كل مكان ، وما هدمتموه فريد في العالم أجمع " (١) .

كما كان بقرطبة سوى جامعها الكبير مساجد أخرى ثانوية بلغ عددها وفقا لما ذكره "المؤرخون العرب" نحوا من ٣٨٧٧ مسجدا ، وقيل ١٦٠٠ مسجد (٢) ، إلا أنه لم يتبق من جميع هذه المساجد سوى ثلاثة مآذن ، هي اليوم أبراج كنائس "سان خوان" <وسانتا كل" ، وسانت ياجو ، ويغلب على الظن أنها تعود جميعا إلى عصر عبد الرحمن الأوسط الذي ذكر المؤرخون أنه أقام هو وحواريه عددا كبيرا من المساجد في قرطبة والأندلس ، وقد قورنت تيجان الأعمدة بمئذنة سان خوان بتيجان أعمدة زيادة عبد الرحمن الأوسط في جامع قرطبة ، فوجد أنها ترجع إلى مصنع واحد ، كما قورنت المئذنة من الداخل بمئذنة جامع عمر بن عديس بأشبيلية الذي بنى في عهده ، فوجد أنها متشابهان للغاية ، إذ أن بداخل المئذنتين درج حلزوني يدور حول دعيمة وسطي مربعة الشكل (٣) .

وقد كان المسجد الجامع في قرطبة أساس التنظيم العمراني للمدينة والمركز الدينى الذي تلتف حوله بقية مراكزها العمرانية ، ويسيطر هذا المسجد على حياة المدينة الاجتماعية والاقتصادية ، فكانت تقام حوله أو حول

---

(١) السيد سالم : تاريخ المسلمين : ٣٠٨ ، ٣٠٩ .
(٢) المقرى : نفح الطيب : ٢ / ٧٩ .
(٣) ابن سعيد المغربي (علي بن موسى) : المغرب في حُلى المغرب : ١ / ٤٦ ، تحقيق شوقي ضيف ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣م .

ساحته الأسواق والحوانيت ، كما كانت للمسجد أهميته في الحياة السياسية ، ففيه كانت تعقد الاجتماعات وتوزع ألوية الجيش وبنوده وتقرأ المنشورات وكذلك كانت له أهميته في الحياة العلمية إذ كان يؤمه الطلبة لتحصيل العلوم الدينية وكان يحيط بالمسجد الدور والقصور والفنادق والحمامات وغيرها وكان قصد الإمارة يقع غربي المسجد الجامع ويصله بالمسجد شبه جسر يمر من أسفله الناس .

وفيما يتعلق بدور قرطبة فقد كانت تقام حول فراغ مركزي هو الصحن الذي تتوزع حوله الغرف ، وكان مظهرها الخارجي على عكس مظهرها الداخلي ، فالواجهة الخارجية كانت بسيطة لا تثير الإنتباه بينما الداخل يعج بالزخارف الجميلة ، وهذا يذكرنا ببيوت دمشق القديمة التي بنيت على النمط نفسه ، ولا يخفى علينا أن العرب حين دخلوا الأندلس حملوا معهم كل موروثاتهم العمرانية في عقولهم وتصوراتهم .

أما قصور قرطبة فكانت تقام في الضواحي خارج المدينة عدا قصر الإمارة ، وقد أجرى فيه الأمراء المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة في قنوات الرصاص التي تصب في البحيرات والصهاريج وأحواض الرخام .

وكان قصر الرصافة من أوائل القصور التي بناها الخلفاء وقد بناه الأمير عبد الرحمن الداخل لسكناه ونزهته شمالي المدينة وقد زرع في حدائقه كثير من الأشجار والمزروعات المجلوبة من الشام .

ومن قصور قرطبة – أيضًا – قصر آخر شيده بنو أمية وتمثلوا فيه بقصورهم في المشرق ، كما بنى أحد ملوك الموحدين قصرًا آخر قرب نهر قرطبة ما تزال آثاره باقية إلى هذا الوقت .

واهتم الأندلسيون بالحمامات حتى بلغ عددها في قرطبة وحدها تسعمائة حمام يقع الأكثر منها قرب المسجد حتى يسهل على المصلين الإستحمام والتوجه إلى المسجد للصلاة .

على أن الفضل الأول في حضارة قرطبة للأمير عبد الرحمن الداخلى، ففي عصره تفتحت قرطبة لتيارات حضارية مختلفة بعضها من الشام والحجاز والبعض الآخر من العراق ، ونشطت فيها حركة عمرانية قوية وخاصة منذ عام ٣٢٥هـ ، واستمرت في عهد المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر ، حيث أنشئت في زمنه مدينة الزهراء واتصلت المباني بين قرطبة والزهراء وبقية المدن المنتشرة في الضواحي المجاورة لقرطبة وكان الخليفة الناصر شغوفا بالبنيان فخصص له ثلث أموال جبايته ، وبهذه الأموال أسس الأسوس ، وغرس الغروس ، واتخذ المصانع والقصور [١] .

الحركة العلمية في قرطبة في عصر الخلافة :

ونتيجة لجهود حكام الإسلام في الأندلس في النشاط العلمي ، أصبحت الحركة العلمية في الأندلس نواة للتطور العلمي في أوروبا كلها ، بل لا نبالغ إذا قلنا أن عناية أمراء الإسلام وحكامه بالجانب العلمي في الأندلس كان بمثابة الشعاع الذي أضاء جنبات أوروبا في وقت كانت فيه تغط في ثبات عميق من الجهل والظلمات باعتراف الكثير من الغربيين والأوربيين أنفسهم.

ولقد مثلت قرطبة نموذجا للحضارة العلمية التي شهدتها بلاد الأندلس إبّان العصر الإسلامي ، حيث نشطت نشاطا ملحوظا لم تشهد له نظير من قبل ، حتى لقد أصبح اسم قرطبة في حد ذاته يقترن بالعلم والعلماء ، وأولى الفضل والأدباء ، وفي ذلك يقول الشاعر :

بـــأربع فاقت الأمصار قـــرطبة

منهن قنطرة الــوادي وجامعها

هـــاتان ثنتان والزهراء ثـــالثة

والعلم أعظم شيء وهو رابعها

---

(١) جاسم بن محمد القاسمي : تاريخ الحضارة العربية : ٣٣ ــ ٣٥ .

وإذا عرضنا للناحية الدينية التي اتسمت بها قرطبة عن بقية الحواضر الأخرى نجد أن المذهب المالكي كان المذهب السائد فيها ، ويعود الفضل في انتشاره وسيادته إلى شخصتين كبيرين : الأولى شخصية زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف "بشبطون" والثانية هي شخصية العالم يحيي بن يحيي الليثي .

وإلى جانب المذهب المالكي وُجِد ـــ أيضًا ـــ المذهب الشافعي الذي بدأ يتسرب إلى قرطبة عن طريق قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار وابنه محمد من بعده ، وكان قاسم هذا يؤمن بضرورة العودة إلى الإجتهاد في الفقه من خلال دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فضلاً عن الاستناد إلى الإجماع والقياس ، وقد قلده في هذا الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط منصبًا هامًا إذ جعله كاتبه الخاص حتى يجنبه احتكاك فقهاء قرطبة به وأصحاب الرأي والتقليد ، وقد ظل قائمًا بوظيفته حتى توفى سنة ٢٧٧هـــ / ٨٩٠م ، وكذلك فعل الأمير محمد عندما وفد الفقيه " بقى بن مخلد " إلى قرطبة قادمًا من المشرق بعد رحلة طويلة ، استطاع أن يجمع خلالها الكثير من العلوم والروايات الكثيرة والاختلافات الفقهية ما أثار عليه فقهاء قرطبة من أتباع المذهب المالكي ، فضلاً عن الزاهدين في الحديث والمقصرين عن التوسع في المعرفة ، فحسدوه ووضعوا فيه القول القبيح ، حتى ألزموه البدعة ، وشنؤوه إلى العامة ، وتخطى كثير منهم برميه إلى الإلحاد والزندقة ، ونادوا بسفك دمه ، فأمنه الأمير ورفع شأنه وأعلى منزلته حتى توفى سنة ٢٧٦هـــ / ٨٨٩م .

وإلى جانب المذهب الشافعي الذي انتشر بوجه خاص على عهد الخليفة " الحكم المستنصر " تسلل المذهب الظاهري إلى قرطبة ، وكان قد ظهر ـــ بادىء ذي بدء ـــ في العراق على يدي داود بن علي المتوفي سنة ٢٧٠هـــ ، وقد اعتنق هذا المذهب عدد من مفكري الأندلس ، منهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي الذي " غلب عليه التفقه بمذهب أبي سليمان داود بن علي

الأصبهاني المعروف بالظاهري ، فكان منذر يؤثر مذهبه ، ويجمع كتبه ، ويحتج لمقالته ، ويأخذ به في نفسه وذويه " [١] بيد أنه كان يقضي في أحكامه بمذهب الإمام مالك وأصحابه ، وهو المذهب الرسمي في الأندلس خشية أن يتعرض لغضب فقهاء المالكية عليه ، وحمل لواء هذا المذهب بعد ذلك الفقيه أبو محمد بن حزم القرطبى [٢] ، ثم أبى الخطاب عمر بن الحسن بن دحية الظاهري .

ولقد أمدتنا المصادر التاريخية بعدد وفير من العلماء الذين أنجبتهم مدينة قرطبة في الفلسفة والطب والأدب وغيرهم من العلوم الأخرى .

ففيما يتعلق بعلم الفلسفة ظهر فيلسوف قرطبة الأول محمد بن عبد الله ابن مسرة القرطبي (٢٦٩ ــ ٣١٩هــ / ٨٨١ ــ ٩٣١م) ، وهو الذي أحرقت كتبه ومصنفاته بأمر الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر خارج باب جامع قرطبة ، لأنها كانت تتضمن إشارات غامضة وعبارات عن منازل الملحدين ، وكان مذهبة يجمع بين التصوف والإعتزال ، ففي الإعتزال كان يقول بالاستطاعة والوعد والوعيد ورؤية الله ، وهي آراء تتفق مع آراء ابن حزم الظاهري وسعيد الطليطلي والشهر زوري والشهر ستاني ، وأما آراؤه الفلسفية فقد بناها على آراء لفيلون السكندري ، وأفلوطين نسبت لا نبذ وقليس **Empedocle** ، ومنها ــ أيضًا ــ الجمع بين معاني صفات الله ، ومنها القول بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات فيما عدا الذات الألهية، ومن تلاميذه الياس بن يوسف الطليطلي وخليل بن عبد الملك [٣] .

وفي علم الطب ظهر الطبيب المسلم أحمد بن إياس القرطبى في عهد الأمير محمد ، وأبو عبد الله محمد بن عبدون العذرى القرطبى ، وأبو القاسم

---

(١) المقري : نفح الطيب : ٢ / ٢٢٨ ، السيد سالم : تاريخ المسلمين : ٣١١ .
(٢)
(٣) السيد سالم : المرجع السابق : ٣١٢ ، وجونثالث بالنيثا : تاريخ الفكر الأندلسي : ٣٣٠ ، واحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي : ٢ / ٥٢ ــ ٥٨ .

الزهراوى في عهد الحكم المستنصر ، وقد كان الزهراوى هذا معروفًا في إسبانيا المسيحية باسم **Alsharavivs** ، وقد ترجم جير اردودى كريمونا كتابه **Liber Servitoris** ، جيد ودي كاولياك كتابه عن الجراحة إلى اللاتينية تحت عنوان **Chirgia Parva** سنة ١٤٧٩م .

وفي مجال الشعر نبغ الرمادي القرطبى وكان رقيقًا في شعره ، ومحمد بن يحيي القلفاط وأحمد بن محمد بن عبد ربه .

والحق أن سياسة حكام الإسلام في الأندلس أسهمت بدور بارز في هذا الصدد ، حيث شجع أمراء بنى أمية الثقافة والأدب واحتضنوا الشعراء والكتاب واهتموا باقتناء الكتب النادرة ، وينهض دليلاً على هذا ما فعله الأمير عبد الرحمن الأوسط إذ بعث عباس بن ناصح الجريرى إلى المشرق للبحث عن الكتب القديمة النادرة ، فأتى له بالسند هند وغيره ، ويعتبر عباس بن ناصح أول من أدخلها الأندلس ، وعرّف أهلها بها ونظر هو فيها [١] . غير أن الحركة الأدبية والثقافة لم تصل إلى ذروتها إلا في عصر الخليفة الحكم المستنصر ، حيث كان أكثر الخلفاء حبًا للكتب حتى قيل فيه : " إنه جمع من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة ، حتى قيل أنها أربعمائة ألف مجلد ، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها ، وكان عالمًا نبيهًا ، صافي السريرة سمع من قاسم بن أصبغ ، وأحمد بن رحيم ، ومحمد بن عبد السلام الخشني ، وزكريا بن خطاب ، وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ، وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنه خزائنه، وكان ذا غرام بها ، قد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه، ودق نظره ، وجمت استفادته [٢] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب : ٢٤٥ ، والسيد سالم : تاريخ المسلمين: ٣١٣ .

(٢) المقري : نفح الطيب : ١ / ٣٧١ .

كذلك يُذكر أنه قلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر أو تعليق ، مهما كان موضوع هذا الكتاب ، وكان يعتني بكتابة نسب المؤلف ومولده وتاريخ وفاته ، ولذلك كان في معرفته برجال العلم والأدب والأخبار والأنساب أحوذيًا نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله [١] ، وكان الحكم محبًا للعلماء ، مكرمًا لهم ، فكان يبعث في استقدامهم من المشرق ويرحب بهم ويكرم مثواهم ويرفع منازلهم عنده ، ومن بين العلماء المشارقة الذين وفدوا إلى قرطبة أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي اللغوي صاحب كتاب "الأمالي" واتفق أن وصل قرطبة في أيام الناصر سنة ٣٣٠هـ ، فأمر الناصر ابنه الحكم باستقباله عند نزوله بالأندلس ، وباصطحابه معه إلى قرطبة تكرمة للقالي ، فسار معه نحو قرطبة في موكب جليل ، واختص أبو علي القالي بالحكم المستنصر ، وباسمه طرز القالي كتاب الأمالي ، وكان الحكم يعينه على التأليف بواسع العطاء ، ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام [٢] . وقد كان قدوم القالي إلى مدينة قرطبة يمثل نهضة في الدراسات اللغوية والأدبية، فعنه تلقى الأندلسيون واتخذوه حجة وإمامًا ، ولم يكن لديهم قبله إلا ابن القوطية وثابت وابنه القاسم والزبيدي [٣] .

كما كان الحكم يبعث في شراء الكتب من الأقطار رجالاً من التجار ، ويزودهم بالأموال الطائلة لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه من قبل ، وبعث في طلب كتاب " الأغاني " إلى مصنفه أبى الفرج الأصفهاني ودفع إليه فيه ألف دينار ، فأرسل إليه أبو الفرج نسخة مكتوبة من هذا الكتاب قبل أن يصدر في بغداد ، وكذلك ألف له كتابًا في أنساب قومه بنى أمية .

كما فعل الخليفة المستنصر الأمر نفسه مع القاضي أبى بكر الأبهرى

---

(١) المقري : نفح الطيب : ١ / ٣٧١.
(٢) المصدر السابق : ١ / ٣٦٢ .
(٣) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلس : ٤٤ .

المالكي في شرحه المختصر ابن عبد الحكم ، ومع محمد بن القاسم بن شعبان بمصر ، ومحمد بن يوسف الوراق الذي صنف له كتابًا ضخمًا في مسالك إفريقية وممالكها ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيي بن مفرج(١).

كما كان الحكم المستنصر يُعين هؤلاء الكتاب بالمال على كتابة مؤلفاتهم لا يتردد في مساعدتهم من الناحية العلمية بإعادتهم ما يحتاجون إليه من مصادر ، فقد أرسل إلى الكاتب المصري أبى سعيد عبد الرحمن بن يوسف صاحب كتاب " تاريخ مصر والمغرب " كتابًا استعان به هذا المؤرخ في تصنيف كتابه فيما يختص بالأندلس .

كذلك أولى الخليفة الأموي الحكم المستنصر الكتب عناية فائقة ، حيث جمع في قصره الحذاق في النسخ ، والمهرة في الضبط ، والمجيدين لفن تجليد الكتب ، فاجتمعت له في قصره بقرطبة خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، إلا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء بالله، وكان عدد فهارس عناوين الكتب فقط أربعًا وأربعون فهرسة ، تشتمل كل فهرسة على عشرين ورقة (٢) .

إضافة إلى ما سبق اهتم الحكم بكتب الطب والعقاقير والتنجيم منذ أن أهدى الإمبراطور البيزنطي أباه الخليفة عبد الرحمن الناصر كتاب " ديسقوريدس " في النباتات والعقاقير وكتاب "هروسيس" وقد قام بترجمة هذا الكتاب للحكم قاضي النصارى بقرطبة وقاسم بن إصبع(٣) ، يقول ابن حوقل: " وهي أعظم مدينة بالأندلس وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه في كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة أسواق ونظافة محال ، وعمارة مساجد وكثرة

---

(١) المقري : نفح الطيب : ١ / ٣٧١ ، ٤١٨ ، والسيد سالم : تاريخ المسلمين : ٣١٤ .

(٢) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب : ١٨١ ، والمقري : المصدر السابق: ١/ ٣٦٢ .

(٣) السيد سالم : المرجع السابق : ٣١٥ ، إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي : ٤٧ .

حمامات وفنادق " (١) .

مما سبق يتبين لنا أن الأندلس بمدنها المختلفة كانت مركزًا من مراكز الحضارة في أوربا في العصور الوسطي ، واستطاعت من خلال ما وجد فيها من أسس حضارية أن تكون معبرا من معابر الحضارة إلى أوربا كلها في وقت كانت أوربا تعيش في ظلمات الجهل والتخلف ، ولا ندل على صدق ما تقدم من شهادة بعض المستشرقين المعتدلين على دور الأندلس في نقل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، يقول المستشرق "غوستاف لوبون" في كتابه " حضارة العرب " ما نصه : " .... وأخذت حضارة العرب تنهض منذ ارتقاء عبد الرحمن إلى العرش على الخصوص أي منذ انفصال إسبانية عن المشرق بإعلان خلافة قرطبة في سنة ٧٥٦م ، فغدت قرطبة بالحقيقة ، أرقى مدن العالم القديم مدة ثلاثة قرون ولم يكن عبد الرحمن بقبض على زمام الحكم في إسبانيا حتى أخذ يسعى في حمل العرب على عد إسبانيا وطنا حقيقيًا لهم ، فأنشأ جامع قرطبة الشهير الذي هو من عجائب الدنيا لتحويل أنظار العرب عن مكة ، وصار ينفق دخل بيت المال في إصلاح البلاد وعمرانها بدلاً من انفاقه في الغزوات البعيدة ، ثم سار خلفاؤه على سنته في ذلك" (٢) .

وفي موضع آخر يشهد بما تميزت به حضارة العرب في إسبانيا قائلا: " وامتازت حضارة العرب في إسبانيا في ذلك الدور بميل العرب الشديد إلى الفنون والآداب والعلوم على الخصوص ، وأنشأ العرب في كل ناحية مدارس ومكتبات ومختبرات ، وترجموا كتب اليونان ، ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيمياوية والطبية بنجاح .... وبرع العرب في الزراعة براعتهم في العلوم والصناعات ، ولا يوجد في إسبانيا الحاضرة من أعمال

---

(١) المقري : نفح الطيب : ٢ / ٨ .
(٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، ص ٢٧٤ ، مكتبة الأسرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠م .

الري خلا ما أتمه العرب ، وأدخل العرب إلى حقول الأندلس الخصبة زراعة قصب السكر والتوت والأرز والقطن والموز .... وأصبحت إسبانية ، التي هي صحراء حقيقية في الوقت الحاضر ، عدا بعض أقسام في جنوبها جنة واسعة بفضل أساليب العرب الزراعية الفنية " (١) .

وفي موضع ثالث يعلق على مدينة قرطبة الأندلسية وأحوالها تحت الحكم الإسلامي وما أصبحت عليه عقب خروج المسلمين منها حيث يقول : " وكانت عاصمة الخلافة قرطبة دارًا للعلوم والفنون والصناعة والتجارة ، وتستطيع أن تقابلها بعواصم دول أوربة العظمى الحديثة ، وهي على خلاف قرطبة الحاضرة التي أصبحت مقرًا للأموات ، ....(٢) .

وفي ختام حديثنا عن الأندلس كمركز من مراكز الحضارة الإسلامية في أوروبا نورد ما شهد به " غوستاف لوبون " عن جهود العرب المسلمين في إسبانيا قائلا : " واستطاع العرب أن يحولوا إسبانيا ماديًا وثقافيًا في بضعة قرون ، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوربية ، ولم يقتصر تحويل العرب لإسبانيا على هذين الأمرين ، بل أثروا في أخلاق الناس ــ أيضًا ــ فهم الذين علّموا الشعوب النصرانية ، وإن شئت فقل حاولوا أن يُعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان ، وبلغ حلم عرب إسبانيا نحو الأهلين المغلوبين مبلغًا كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية كمؤتمر أشبيلية النصراني الذي عقد في سنة ٧٨٢م ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عُقد في سنة ٨٥٢م ، وتعد كنائس النصارى الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربي من الأدلة على إحترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم " (٣) .

---

(١) غوستاف لوبون : حضارة العرب ٢٧٤.
(٢) المصدر السابق : ٢٧٤ ــ ٢٧٥ .
(٣) نفسه : ٢٧٦ ــ ٢٧٧ .



قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية القديمة :

١ ــ الإدريسى : وصف المغرب والأندلس من كتاب : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، نشره : دوزى : دى حبوجة : ليدن ١٨٦٦م .

٢ ــ الحميرى : (أبو عبد الله محمد بن عبد النعم) : صفة جزيرة الأندلس، منتخبة منكتاب :الروض المعطار فى خبر الأقطار : نشره : ليفى بروفنسال : القاهرة : ١٩٣٧م .

٣ ــ ابن غالب الأندلسى : فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، نشره : لطفى عبد البديع : معهد المخطوطات العربية ، القاهرة : ١٩٥٦م .

٤ ــ المعزى : (شهاب الدين محمد التلمسانى) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، القاهرة ، ١٩٤٠م .

٥ ــ ابن سعيد المغربى : (على بن موسى):المغرب فى حكى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣م .

ثانيا : المراجع العربية الحديثة :

٦ ــ البشرى : (سعد عبد الله صالح) : الحياة العلمية فى عصر الخلافة فى الأندلس (٣١٦ ــ ٤٢٢هــ / ٩٢٨ ــ ١٠٣٠م) ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامى ، مكتبة الملك فهد ، المملكة العربية السعودية ، ١٤١٥هــ .

٧ ــ حمادة (محمد قاهر) : المكتبات فى الإسلام ، نشأتها وتطورها ومصائرها ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨م .

٨ ــ زيتون (محمد محمد) : المسلمون فى المغرب والأندلس ، دار الوفاء للطباعة ، القاهرة ، (د ــ ت) .

٩ ــ سالم (السيد عبد العزيز) : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأنلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، مؤسسة شباب الجامعة ،

الإسكندرية ، ١٩٩٧م .

١٠ــ عاصى (محمد المنسى) : تاريخ المغرب والأندلس : دار الاتحاد التعاونى ، القاهرة ، ١٩٨٧م .

١١ــ العانى : (سامى مكى) : دراسات فى الأدب الأندلسى ، ساعدت على نشره الجامعة المستنصرية ، ١٩٧٨م .

١٢ــ عباس (إحسان) : تاريخ الأدب الأندلسى : عصر سيادة قرطبة ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٨م .

١٣ــ عنان : (محمد عبد الله) : دولة الإسلام فى الأندلس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠١م .

١٤ــ غيث : (محمد عاطف) : قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

١٥ــ القاسمى : (جاسم بن محمد) : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠م .

١٦ــ كَحيلة : (عبادة): تاريخ النصارى فى الأندلس ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م .

١٧ــ مذكور : (إبراهيم بيومى) : معجم العلوم الاجتماعية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

١٨ــ مظهر : (جلال) : علوم المسلمين أساس التقدم العلمى الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

١٩ــ مؤنس : (حسين) فجر الأندلس : القاهرة ، ١٩٥٩م .

ثالثاً : المراجع المعربة :

٢٠ــ لوبون : (غوستاف) : حضارة العرب : ترجمة : عادل زعيتر : مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠م .

٢١ــ هونكة : (زيغرد): شمس العرب تسطع على الغرب ، تعريب : فاروق بيضون ، وكمال الدسوقى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ،

١٩٦٩م .

رابعاً : المراجع الأوربية :

22- Murphy, F.X: Dulian of Tole do and the fell of the visigothic kingdom in spain specujum. Vol.xxv, January. 1952.

23- King, P.d: Lew and society in the visigothic Kingdon. Cawbridgeuniv press, 1972.

24- Encyclepaedia judaica, jerusa lem, Keter pu[lishing house, 1974.

* * *

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة